العالمية الإسلامية الأولى والثانية

الكاتب: العالمية الإسلامية الأولى والثانية

الكاتب: د. برهان زريق

الطبعة الأولى: 2016

جميع الحقوق محفوظة لورثة الكاتب

الكتاب صدر بعد وفاة الكاتب يرحمه الله

لذا لم يحظ بالتدقيق من قبله

يرجى موافاتنا بملاحظاتكم واقتراحاتكم

على البريد الالكتروني:

Burhan_zraik@yahoo.com

موافقة وزارة الاعلام السورية على الطباعة

رقم/114340/تاريخ 2017/5/10

د. برهان زريق

العالمية الإسلامية الأولى والثانية

أعيش...لأكتب

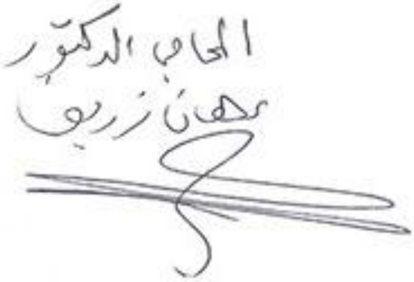

الفصل الأول

مدخل عام

الرؤية والموضوع

لا شك أن الموضوع يحدد رؤياه ومنهجه والطريق الخاص للوصول إليه، والمنهج أو الطريق بدوره وبالمقابل يثري الموضوع ويغنيه ويزيده إقناعاً وخصوبة، لا الرؤية تسبق الموضوع، ولا الموضوع يسبق الرؤية، والكلّ في فلك يسبحون[1].

وفي نظرنا إن الذي يحكم رؤيتنا ورؤيانا وموضوعنا في هذا الكتاب هو القرآن الكريم، ثمّ الأمّة مصداقاً للآية الكريمة القائلة: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ **الأنبياء/92**.

نضيف إلى ذلك الحديث النبوي الشريف باعتباره تنزيل من التنزيل يوضحه ويبينه ويثريه.

وبذلك تحدث ثلاثية هذا البحث فيما يلي: القرآن- التجربة المحمدية- الأمّة.

على أن نستهل هذه الثلاثية بمقدمة للموضوع مستعينين في كلّ كلمة بالله تعالى، غايتنا ومنتهى سؤلنا ومبتغى أملنا ورجائنا.

---

[1] - استعملت كلمة يسبحون هنا تضميناً وحفاظاً على مصدرها القرآني.

مقدمة

لا شكّ أننا «وقبل أي شيء» بحاجة إلى فلسفة حضارية تنير طريقنا وتقود خطانا وتسوس مسلكنا، وبالطبع علينا أن نستخلص هذه الفلسفة من مجمل قواعد حياتنا وذوب تجاربنا وخلاصة خبراتنا ونظرتنا إلى الحياة والوجود والمستقبل.

لكن ألسنا نستبق الأمور ونستعجلها، ونتكلم على هذه الفلسفة قبل أوانها، والمفروض بالفلسفة الحضارية أن نستمع إلى دقات قلب الموضوع وحركة نبضه واتجاهاته الواقعية.

لا شك أن الفلسفة الحضارية تجوس الواقع وتمر على وهاده وتضاريسه، لكنها ترتو باتجاه المستقبل تحرك مفاصله وتنكمش خطاه، وهي في الآن نفسه تحرك أوصاله، وتفجر إرادته وتعمل على ظهور وإبراز نوره، وهذا هو المبرر لكلامنا عن هذه العالمية الثانية، وباختصار نمتص الماضي في اتجاه توظيفه للمستقبل[1].

إنّ إسرائيل ليست حركة احتلالية توسعية فحسب، ولكنها في الآن نفسه حركة تدميرية، فهي ظاهرة اجتماعية مريضة ترهن بقاءها واستمرارها بزوال خصمها وتدميره ومحقه، وأنى لها ذلك «وحسب قوانين الصراع» ونحن أمّة عريقة المرتكزات والجذور، ينغرس قيامها وأوصالها منذ ما قبل حضارة الآكاديين، ثمّ صعدت مع الحياة، فتبث سبع حضارات منها ست حضارات عالمية، إنها أمة تضعف ولكنها لا تموت، وملامح النهوض تستيقظ وتستبين لتصعد وتتفجر...

---

[1] – الموسوعة الفلسفية المختصرة: ترجمة فؤاد كامل وجلال العشري وعبد الرشيد صادق ومراجعة د. زكي نجيب محمود: دار القلم، بيروت، ص6.

إنّ البعد العالمي عنصر أساسي تكويني في الأمّة العربية، وهذا العنصر يظهر جليّاً في حال القوة والامتداد، وهنا مكمن ومبرر حديثنا من هذه العالمية الثانية، وعلى العكس فالتقوقع على الذات هو مظهر ضعف الأمّة وتجرعها العلل وانكماشها على الذات.

وهذه العالمية التي تتكلم عليها ليست هزاراً أو شقشقة كلام، فقد جاء بها الإسلام منذ البدء، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ يُحيِيْ وَيُمِيتُ﴾ **الأعراف/158**.

فالعالمية الثانية مبنية على العالمية الإسلامية الأولى وهي استمرار لها لكن بخطوات جديدة، وهذا هو مغزى ومعنى اختتام النبوة بمحمدﷺ، فاللّه قد اختاره ليحمل إلى البشرية منهج الإسلام الكامل ليصبح فيه بدلاً عن النبوات وليستمر معها عبر الزمان والمكان.

وبدون شك فكل تجديد يعتمد على خصوصية الوعي المحلي ليس سوى تجديد أعرج ونصير النفس في عمر الزمن، وبقدر محدودية المكان الذي ينتمي إليه، والبديل الحضاري يجب أن يأتي عالمي الإطار والمحتوى مستوعباً بالوعي المقومات العالمية المعاصرة وقادراً في الوقت نفسه على النفاذ فيها والتفاعل معها.

وغير خافٍ أنّ ردنا الحضاري على الوجود الإسرائيلي هو ردّ على الوضعية الدولية التي أفرزت الوجود الإسرائيلي وغذته وجعلته مقدمة لها في عمق منطقة القرآن ولسانه، وتحدينا لإسرائيل ليس معركة قومية عسكرية مجردة، وإنّما هي معركة حضارية عالمية يتصدى فيها القرآن بلسانه العربي وبإنسانيته...للعالمية كلها التي جعلت الوجود الإسرائيلي ممكناً وشرعياً.

وإسرائيل لا تكتسب شرعيتها في هذه الأرض من حقوقها التاريخية، وإنّما تكتسبها من منهجية الصراع الوضعية العالمية التي تعيل ببساطة وتبرر قتل وتشريد الفلسطينيين[1].

ونحن لا نستطيع سوى التأكيد على طبيعة لاهوت الأرض وخصائصه الفلسفية والأخلاقية كروحية للتطور الأوربي، حيث انتهى ضمن الصياغة المادية الجدلية، فإنسان اليوم المعاصر قد تكيف عقلياً وسلوكياً على نحو جديد يحمل سمات التحرر من علاقات الماضي التقليدية بأشكالها الاجتماعية والفكرية، حيث أصبحت العلاقة بينه وبين الكون علاقة مباشرة نقدية وتحليلية تتباعد –بحكم التطور وانقلابية العصر- عن تأثير الوسطاء والأطر الكادحة والحرية، تبلغ ذروتها في إطار القدرة الملازمة على ممارسة النقد والتحليل، وفي إطار الحيوية الفكرية الملازمة للوعي التاريخي الجديد.

وفي الحقيقة ففي الوقت نفسه الذي نتقدم فيه باتجاه العالمية الأوروبية فهذه العالمية أخذت تفقد مضمونها القومي والتاريخي لتتحول باتجاه عالمي أشمل واكتشاف البديل إذاً يتخذ منذ البدء قيمة عالمية، ولا يكفي أن يأتي هذا البديل في الإطار القائم بين مفهومي الأصالة والتغريب، وإلا كان بديلاً غير قابل لتجاوز هذه المرحلة الخصوصية بالذات حين تتطور المرحلة نفسها، بقوة الدفع المتسارع إلى العالمية الشاملة[2].

وحين يأتي البت عن الدليل بلاهوت الأرض منساقاً بهذه العالمية ومقيداً بها فإن هموم الإنسان المعاصر هي التي يجب أن نوليها اهتمامنا الأساسي، وهذا الأسلوب

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة "العالمية الإسلامية الثانية"، بيروت، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، سنة 2004، ص532.

[2] – المرجع السابق، ص168.

يخالف حتماً التوجه للمسلمين فقط بإطار الانتماء الديني المسبق، بل المطلوب هو التوجه نحو العالمية نفسها حيث الاختبار الحقيقي على محك التجربة البشرية الواسعة لما ندعو إليه في إطار تصور كوني جديد، وإن ضرورة تفاعلنا مع كلّ خبرات العالم الفلسفية ليست لغرض تجديد الدين الإسلامي في إطار مشكلات العصرنة المحلية، ولكنها ضرورة لطرح ما لدينا على بساط العالمية الشاملة على مستوى الإنسان المعاصر الذي يحلق فوق الحدود بكلّ معوقاته الحياتية الجديدة[1].

فالمنهج الإلهي في دعوته الإنسان كي يعيد اندماجه في التفاعل مع كلّ عنصر يقتضي نهوض الإنسان وتحقيق الحيوية الحضارية ودون هذا الوعي الحضاري لا يستطيع الإنسان الاندماج في الكون، والمسألة هي مسألة إيجاد وعي حضاري بديل يتفجر بالقوة الحرارية الكامنة فينا ويقوي الدفع الإلهي لنا على طريق البديل كما دفع التجربة الإسلامية منذ بدايتها[2].

لقد خلق اللّه الإنسان لا ليقهره بالعجز، ولكن ليرتقي به إلى مصادر القوة والقدرة والعلم وكل ما تعطيه حيوية الإبداع ليكمل مسيرته في الوجود عبر معاودة الاندماج بالوعي في الحركة الكونية ضمن منهجها الإلهي فالمسألة القرآنية ليست في وضع القدرة الإلهية مقابل الفعل البشري، ولكن في إعطاء الفعل البشري كامل حريته ووضعه في اتجاه الإدارة الإلهية القائمة على وحدة الطبيعة الكونية السليمة، ومن ثمّ فالتناقض بين الفعل الإنساني والقدرة الإلهية هو من تأثير فلسفة الصراع والتضارع، وانعكاسها على الفكر الإسلامي هذه الفلسفة التي تتوهم إمكانية استلاب الإنسان لقدرات اللّه في الحركة عبر فهمها السطحي للأمور.

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة "العالمية الإسلامية الثانية"، ص168.

[2] – المرجع السابق، ص285.

كيف هي علاقة الإنسان بالطبيعة بالنسبة للحضارة الغربية؟؟ إنها علاقة قهر وصراع إذ فقدت الظاهرة الطبيعية معناها الإنساني المسخرة له، وأخذ الوجود كلّه شكل القوى المتضارعة (المتشابهة) والمتضادة والمتنابذة، وأصبح موقف الإنسان هو موقف السيطرة عليها بالعلم وتمجيد وتأليه ذاته.
فالقرآن منهج تاريخ هذه الأمّة موجهة نحو بناء الحضارة البديلة بكلّ قوى الإبداع المتاحة ليستوي حكمه الله ويتجسد في الأرض مادياً مقابل الحضارة العالمية التنابذية[1].

سئل رسول اللهﷺ عن أفضل عمل يعمله الإنسان، فأجاب: ﴿بَذْلُ السَّلَامِ لِلعَالَمِ﴾.
لقد أكد الله تعالى على توليه الأمر منذ البداية، فهو لن يدع الكون لتعبث به القوى المضادة لناموسه الخلقي، موضحاً أنه سيطرح العرب على طريق الإنسانية جمعاء: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ آل عمران/**110**.

فهناك إعداد إلهي لمحمدﷺ وهناك إعداد للعرب...كانت التجربة كبيرة جداً «ولا تزال» ولم يكن من شأنها أن تفرغ في مرحلة واحدة وهناك في الأرض العربية وضعت أسس الانطلاق وركزت دعائم البناء لتوضيح أبعاد المنهج الإلهي في التجربة المحمدية البشرية الوجودية بأسرها، لقد امتدت التجربة الإسرائيلية قروناً مع الأنبياء، أمّا التجربة المحمدية العربية، فقد كثفت قواها في أقل من ربع قرن،

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة "العالمية الإسلامية الثانية"، ص287.

لذلك فهي تجربة مثالية ومتفوقة، بالمقارنة مع التجارب السابقة، تحتوي ما احتوته تلك التجارب، لكنها تجاوزتها بالإضافة والاستزادة[1].

ومحمدﷺ جاء ليختم على مرحلة العائلية والقبلية، وليبدأ طريق العالمية انطلاقاً من العرب الأميين (الذين ليس لهم كتاب) وامتداداً للأميين من غير العرب كما حددته سورة الجمعة، إذ جعلت خصائص الانتشار بين الشعوب الأميّة (غير الكتابيّة): ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴿2﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الجمعة/**2-3**.

وحدد القرآن الكريم مسؤولية العرب بالذات عن الدعوة وإنه لذكر لك ولقومك[2]: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ الزخرف/**44**، كما وحدد مركزية التفاعل العربي مع الغير انطلاقاً من وسط العالم القديم[3]، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ البقرة/**143**.

ولقد ركبت عالمية الأميين على أساسين هامين يتحكمان حتى الآن في خصائص المجتمع العربي وبنائه وتوجهاته الاقتصادية والفكرية وهما :

أ- التدامج مع كافة الشعوب.

ب- التفتت الطبقي وانعدام التركز الإقطاعي أو الرأسمالي.

---

[1] – حمد أبو القاسم حاج محمد : جدلية الغيب والإنسان والطبيعة "العالمية الإسلامية الثانية"، ص323.

[2] – المرجع السابق، ص 348.

[3] – المرجع السابق، ص 348.

فقوانين الإسلام الاقتصادية والاجتماعية تحول دون تركز الثروة "منع الربا وقانون الميراث"، كما أن الامتداد بالدعوة تبعاً لمنطق الخروج يؤدي إلى المساواة العرقية مع الغير، ولهذا استحال تحقيق قومية عربية على أسس عنصرية، كما استحال بناء أحزاب على أسس طبقية[1].

فمحمدﷺ جاء ليختم على مرحلتي العائلة والقبيلة وليبدأ طريق البشرية بعالمية الأميين العرب ومن يلحق بهم، ثمّ يكون الاستواء على العالمية الشاملة، ومن هنا تكتسب العروبة شخصيتها المركزية في إطار عالمية الأميين الأولى كقوة مستنبطة لكل الحضارات ولكل الأعراف وفي موقع الوسط من العالم، أي تتشكل العروبة كقومية القوميات بأفق يحمل قوة الانفتاح والتصبح المستقبلي على العالمية الكلية وهنالك ملاحظة جديرة بالتنويه وهي أن بحثنا هذا ليس سابقاً لأوانه، بل إن حمولاته ومفاجآته وما ينطوي عليه من تمخضات كثيرة وعديدة، ونحن لا نستطيع أن نحصي الأحداث التي لم تكن متوقعة خلال النصف قرن المنصرم، فقد برزت الصين بثقلها ووزنها وأهميتها وسقط الاتحاد السوفيتي كما سقط جدار برلين وتوحدت دول أوربا وغير ذلك من المستجدات.

وفضلاً عن ذلك فعندما يأتي الأوان للبذرة أن تنفجر عن الحياة تشق كل ما أمامها حتى الصخر، تعبيراً واندفاعاً.

وهذا هو حال الأمة العربية، فهي تضعف، لكنها لا تموت فيها الوهاد التي هي تعبير وتقابل الذري الشاهقة.

وهذا الغليان في صدر كل عربي وكل مسلم ليس إلا انبعاث انطلاقاً من مبدأ استبقوا الخيرات، ومبدأ سارعوا إلى مغفرة من ربكم، ومبدأ فلا أقتحم العقبة، هذه المبادئ التي تغلي وتفور في كل قلب وصدر، لقد ظنت أوربا أن أتاتورك أجهز

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة "العالمية الإسلامية الثانية"، ص359.

على الإسلام في تركيا ولكن عندما عاد الأذان ليكون بالعربية أخذ الشعب التركي بأكمله بذرف الدموع فرحاً بهذا العنصر المأمول.

من كان يتوقع ما حدث للاعتداء الإسرائيلي المأفون على السفينة مرمرة عندما كانت في طريقها إلى غزّة.

والخلاصة: لا محال فالنصر للعروبة لا سيما العروبة التي جزء من ماهيتها الإسلام، هذه صوى ومرتكزات كان لا من وضعها ونحن نسلك الطريق ونستشرق جوانبه ونتناول مواضيعه.

القرآن الكريم

كم تتعثر الجوارح ويتلعثم اللسان، ويختنق الفؤاد عند أيّة محاولة جادة للتعريف بالقرآن الكريم، أو عند أيّة محاولة للإحاطة بالكلية بموضوعاته كيف تحيط وترقى إلى مستوى هذا الكتاب المطلق الكريم عطاء المكنون فهماً المجيد الذي لا يبلى.

لقد سعت الأمّة الإسلامية خلال أربعة عشر قرناً لاستجلاء معناه ومحاولة فهمه، مستعينة بوفور السنة النبوية واجتهادات الفقهاء والمفسرين من السلف الصالح، غير أنّها قد انتهت على الرغم من الجهود المبذولة إلى ما يتناقض مع مطلقية الكتاب الإلهي وعالمية الخطاب الإسلامي، إذ هيمنت نسبية البشر على مطلق الوحي وحددته بمعيناتها الظرفية، مما أنتج العديد من التفسيرات والتأويلات المتضاربة التي اتخذت من ذاتها من جنبات بديلة عن القرآن.

واستندت كل مرجعية إلى تأصيل للسنّة النبوية وللتراث الخاص بها، الأمر الذي أدى لا إلى تفكيك مطلقية القرآن فحسب، ولكن إلى تفكيك وحدة الأمّة التي أناط بها عالمية الخطاب[1].

ولهذا فسنأخذ بأهمية القرآن الكريم بما جاء على لسان الرسول الكريم قال ﷺ: «اعْمَلُوا بِالْقُرْآنِ، أَحِلُّوا حَلالَهُ وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ، وَاقْتَدُوا بِهِ وَلا تَكْفُرُوا بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَمَا

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: أبستمولوجيا المعرفة الكونية، إسلامية المعرفة والمنهج، ص34.

تَشَابَهَ عَلَيْكُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى أُولِي الْعِلْمِ مِنْ بَعْدِي، وقال ﷺ في موضع آخر: ﴿الْقُرْآنَ شَافِعٍ مُشَفَّعٍ وَمَاحِلٍ مُصَدَّقٌ مَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ﴾.

وفي الحقيقة، فالقرآن الكريم مطلق معاول للوجود الكوني المطلق بما في ذلك الإنسان، ولهذا جاء مهيمناً على الكتب الأخرى ومصدقاً لها وناسخاً لشرعتها ومنهجها، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ المائدة/**48**.

فالقرآن الكريم في تجدد عطائه عبر مختلف الأزمنة والمكنة والمكنون في معانيه القابلة للتكشف، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿77﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿78﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ الواقعة/**77-79**، فالتوجه نحو القرآن باعتباره كتاباً كونياً معادلاً في إطلاقية الوجود وحركته بما فيه الإنسان[1].

فمن خصائص القرآن أنّه يقدم مؤشرات منهجية كونية للخليقة، حين يتحدث عن التخليق الكوني للإنسان والنفس فيما تعرض من متقابلات كونية متفاعلة جدلياً وبما يجعل حرية الإرادة الإنسانية والاختيار مما أصل التكوين[2].

فالقرآن معادل موضوعياً للوجود الكوني وحركته، وهو المصدر الوحيد للنفاذ إلى هذه الكونية كما هو واضح في سورة الشمس وفاطر والرعد، وقد حدد ارتباط المسلم بعالم الأمرة ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ النمل/**91**.

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: أبستمولوجيا المعرفة الكونية، ص53، 76.

[2] – المرجع السابق، ص 88.

والإنسان مطلق في حدّ ذاته مستحب بحكم التركيب (المطلق) للكون الذي يوازيه، ويستمد من الوحي القرآني (مطلق الوعي) الذي يعادل الوجود الكوني وحركته، فنحن أمام مطلقات ثلاثة هي القرآن والإنسان والكون، وفوقهم إله أزلي[1].

النص القرآني مطلق انطلاقاً من أنّ القرآن مكنون ومجيد وكريم، ومطلق وكوني متميز عن سائر الكتب السابقة عليه بوصفه كتاب الأرض الحرام وليس المقدسة والمنزلة مع خاتم الرسل والأنبياء الذي أتاه الله السبع المثاني وجعله رسول المسلمين والقرآن العظيم وأيده بالروح القدس.

فالعلاقة قائمة بين القرآن ككون مسطور والوجود ككون منثور انطلاقاً من أنّ الله سبحانه وتعالى لم يفرط في الكتاب من شيء، بحيث ينزل النص دائماً على الواقع، وبمعنى أوضح فالقرآن في إطلاقية يعادل الوجود الكوني وحركته بمنطق جدلي[2].

هذا الكلّ المترابط يكشف عن معنى القرآن ومغزاه المطلق فوق نسبية الكتب المقدسة، ولذلك جعله الله مهيمناً عليها ومرجعاً لها، كما أن محمداً هو مرجعية الأنبياء من قبله وإن تقدموا عليه في الظهور، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ المائدة/**48**.

فالقرآن كتاب كوني ووحي إلهي مطلق ومحيط بالوجود الكوني وحركته ومعادل له، والكون بما فيه الإنسان مطلقان لا متناهيان وسرمديان، والوحي القرآني كذلك، وكما أن الإنسان متجدد بالجسم وغير متناهٍ في تكوينه، والكون يتجدد بالظاهرة الطبيعية وغير متناهٍ في تكوينه، كذلك القرآن كوحي مطلق معادل لهذه الكونية

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: أبستمولوجيا المعرفة الكونية، ص196.

[2] – المرجع السابق 257.

اللامتناهية، فهو مثلها يتحدد بالحرف المثبت في بنائيته كمواقع النجوم، ولا يتناهى في معانيه، فالقرآن والإنسان والكون يحملون خصائص تكوينية مطلقة، وهكذا يظلّ القرآن على إطلاقيته ليعطي كلّ مرحلة وحيها ضمن ما يتوافر لها من خصائص تكوينية معرفية[1].

ومن منطلق هذه البنائية القرآنية المحكمة وناظمها الكلي يتخذ القرآن صفة الكريم الذي يعطي، وصفه المكنون الذي ينكشف، ولو ظلّ المكنون مكنوناً لبطل الكرم والعطاء[2].

وهذه السمات السالفة الذكر «التي اجتزأنا بها وأوجزنا عندما نتكلم على الكتاب المجيد الكريم المكنون» حدتنا لطرحها والتذكير بها لا سيّما أنّ موضوعنا في الأساس محكوم بالمستقبل الذي لا يقدره حقّ التقدير إلاّ اللّه تعالى وكتابه المكنون الذي ينكشف عن المستقبل، ومن ثمّ يحسم نهائياً ميزان القوة بيننا وبين إسرائيل كما توضحه سورة الإسراء، أجل سنتعرض إلى موضوع التدافع بيننا وبين إسرائيل في شكله ومظهره وصورته الأخيرة.

وهذا موضوع محكوم بغامض المستقبل البعيد وبذلك ليس أمامنا سوى القرآن الكريم، وبالتالي إذا ما أمتثلنا لإرادة اللّه تحققت أحكام سورة الإسراء، وأتيح للهدى ودين الحقّ أن ينتصر على الدين كلّه، وفي مقدمته على ذلك اليهود الذين عاثوا فساداً في الأرض بعد أن اغتصبوا فلسطين وشردوا أهلها وأخرجوهم من الوطن.

وهناك ملاحظة هامّة وأساسية وهي أن طبيعة القرآن ليست في كونه كتاباً يحتوي على سورة مفصلة بفواتحها وخواتمها تتضمن عبادات ومعاملات، إنه جماع

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد : جدلية الغيب والإنسان والطبيعة "العالمية الإسلامية الثانية"،، ص 276 و277.

[2] – المرجع السابق، ص 283.

حقيقة البعثة المحمدية التي أجملها الله بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ **الجمعة/2**، إنّه وعي ومنهج وحقيقة إلهية كونية شاملة ومطلقة.

فالقرآن هو مصدر كامل يعقب بالتحليل والتوضيح على آيات الله بتفاصيلها وكليّاتها وسجل إلهي مفتوح على التجزئة الوجودية الكونية ومصدر الحكمة الشاملة في التعامل عبر التزكية الإلهية للإنسان.

لقد نزل هذا القرآن ليرقى بالإنسان إلى معارج الحكمة الإلهية الكونية ليبصر الإنسان كل شيء كما يريد له الله أن يبصره وهو في خلاصته منهج الجمع بين القراءتين كما خوطب "محمد" في أول التنزيل، ثمّ تنزل القرآن كلّه فيما بعد ليفصل هذه الحقيقة ويعطي أبعادها في تجارب الأنبياء من قبل.

في الإطار الفسيح لتلك الحقيقة الإيمانية تكوّنت ونشأت التجربة المحمدية العربية كمقدمة لمنهج إلهي حضاري كوني ترسى دعائمه التفصيلية على مستوى الفكر البشري ككل، إنّه البديل الذي أتى من عند الله، وقد عاش العرب تلك الحقيقة عبر انجذابهم اللغوي للقرآن وعبر إرشاد الله إخبارياً لهم بما يشابه التطبيق لمعاني ذلك المنهج مع تقديم النماذج السابقة.

وها نحن أولاً سنتعرض للتجربة المحمدية الموازية نسبياً للقرآن الكريم، نقول الموازية نسبياً لأنها فوق الزمن باعتبارها تنزيل من التنزيل، ومن جهة أخرى فهي تحت هيمنة القرآن الكريم متقيدة بهداه وفحواه وغايته وبنيته لأحكامه وموضحة لمفاهيمه.

طبيعة التجربة المحمدية

خصائصها- واستجابة العرب والمسلمين لها

نوهنا سابقاً بسمات التجربة اليهودية، وقلنا إنها سقطت ونسخت إرهاصاً ومقدمة لرسالة جديدة سرمدية اتحفتنا بها السماء، هي تجربة الرسول محمدﷺ.

ولقد قامت هذه الرسالة وسادت مرحلة تاريخية هامة، واستجابت لدواعيها ومعانيها العرب والمسلمون بقلوبهم وعقولهم، وخرجوا للعالم تلبية لكلمة السماء واستجابة لنداء البشرية.

وسنبحث هنا خصائص هذه التجربة، ثمّ استجابة العرب والمسلمون لها، وأخيراً مسألة الخروج.

الفرع الأول

خصائص التجربة المحمدية

ويمكن التأكيد بيقين أنه منذ أول يوم نزل فيه القرآن الكريم حدد للرسول الأعظم محمدﷺ ولتجربته موقفه السلوكي كذات متّحددة بمنهج اللّه في الحركة الطبيعية والبشرية، ومستهدية بالنهج الإلهي الكوني.

كانت عظمة "محمد" السلوكية في أنّه نَفَذ من أول يوم إلى أعماق الروح التوحيدي، فلم يصبح في نظر نفسه قائداً عبقرياً يؤلف بين مجموعة من القبائل ضمن وحدة قومية...، وباعتباره واعياً لتحركه بإرادة اللّه.

لم تظهر أعماله ما يؤكد على أي جانب ذاتي في تكوينه، فقد كان يتمثل إرادة اللّه وحكمته، وكانت تجربته صعبة ولكنها كانت أعظم تجربة لإنسان في التاريخ.

توضح التجربة العربية المحمدية منذ بداياتها القرآنية في حراء ضمن سلوكياتها العملية في المجتمع أنّ فعلاً إلهياً هو فوق كل الشروط الموضوعية للزمان والمكان قد تحقق بشكل واضح.

ونحن هنا في هذه الصفحات المحددة سنعرض لبعض جوانب هذه التجربة وأول ما تشير إليه هو حقيقة تدامج هذه الرسالة مع كافة الشعوب والأمّة وتعاونهم.

والواقع فقوانين الإسلام الاقتصادية والاجتماعية تحول دون (تركز الثروة) سواء بمنع الربا أم وفقاً لقوانين الميراث، كما أنّ الامتداد بالدعوة تبعاً لمنطق (الخروج)

يؤدي إلى التدامج العرقي مع الغير، ولهذا استحال بناء قومية عربية على أسس (عنصرية)، كما استحال بناء أحزاب على أسس (طبقية)، وكل تغيير على أساس (قومي-طبقي) هو عين المستحيل في نسيج الواقع العربي وجوهره وطبيعته، فضلاً عن أن أي تأسيس لمجتمع عربي – إسلامي معاصر لا يستجيب لجدلية عالمية الأمّيين وأسسها اللا عرقية واللا طبقية سيكون مآله التخبط.

والتجربة المحمدية العربية خلت من الآيات المعجزة بردّ أصول هذه التجربة إلى (الرحمة الإلهية) في مقابل (الخير العربي) قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ **الأنبياء/21.**

وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ **آل عمران/110.**

هنا يتضح الفارق النوعي في التعامل الإلهي مع تجربة الإيمان العربي ومع تجربة الإيمان الإسرائيلي، فهو لم يحدث هنا تغييراً ظاهرياً في السنن الكونية لا في حالة التأييد ولا في حالة العقاب، حتى إن إنزال الملائكة في معركة بدر إلى جانب المسلمين أنفذه الله كحدث غيبي غير مرئي بالنسبة للبشر.

هذا وننوه بأنّ الرسالة المحمدية لم تكن خاصة بالعرب، وإنّما كانوا الطليعة لأمم أخرى، هكذا عاملهم الله منذ البدء معاملة (جيش من الرسل)، ولم يكونوا خير أمّة (قابعة) في مكانها، ولكن خير أمّة (أخرجت) للناس[1].

فالعربي أعد إعداداً خاصاً على تجربة الإيمان، وهكذا جاء التركيز في القرآن على الدروس الإيمانية التي استخلصت من ساحات القتال بالذات، إذ من خلالها كان

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص 375.

يتبين العربي وجود اللّه الفعلي معه من وراء الحجاب، كان يحسّ به قائداً ورامياً: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿17﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ **الأنفال/17- 18.**

أجل إن اللّه تعالى كان قد هتك حجاب السببية في العلاقة بينه وبين البشر، إذ كانت رؤية فعل اللّه الخارق أمراً ممكناً في متناول السمع والبصر، كما كان الإحساس بقوى الغيب في تلك المراحل الأولية إحساساً قوياً وطاغياً، أي كان العصر كله عصر نبوات.

أما في تجربة محمد فقد أصبح حجاب السببية قوياً وأصبحت العلاقة باللّه مشدودة إلى واقع الحس والمحسوسات، فحصرت النبوة وتميزت، ثم ختمت نهائياً وأصبح الاتجاه لمقامها يمر عبر حجب إذ كثيفة في المكان والزمان.

فالأنبياء جميعاً «قبل محمدﷺ» صعب عليهم أن يمارسوا تجاربهم دون معجزات وخوارق حتى أن يونس(عليه السلام) تمرد على نبوته ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴿140﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ﴾ **الصافات/140-141.**

في ختام تلك المرحلة المتقدمة لقد جاء محمد ليفتتح مرحلة جديدة في تاريخ البشرية أغلقت فيها معارج السماء حتى دون الكائنات غير المرئية: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً﴿7﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً﴿8﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً﴿9﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ **الجن/7- 10.**

فالمرحلة التي بدأت بالنبوة المحمدية ختمت مرحلة كاملة قبلها واتجهت نحو الوضعية العلمية وانزواء التفكير الغيبي وتطور ملكات الإنسان الذاتية وتضخم إحساسه بقدراته المستقلة عن الفعل الإلهي، إنّها مرحلة عالمية الخطاب وحاكمية الكتاب وشرعية التخفيف والرحمة.

هذه العقلية التي افتتح سيدنا "محمد" لا يمكن أن يكون مدخلها المدخل نفسه الذي طرقته الأنبياء من قبل مع شعوبها، أي التسليم بالخوارق الغيبية، وإنّما مدخلها الانتقال من مدركات الحس إلى رحلة الحكمة التي تنفذ عبر الفهم الدقيق للعلاقات بين الأشياء وإلى النظر في فعل الله في حركة الطبيعة والتاريخ، فعلاً غير مباشر، لكنه كامل التأثير لهذا السبب بالذات حجبت عن "محمد" آيات الخوارق وأعطى عوضاً عنها لا النبوة فقط، ولكن الحكمة بأسمى معانيها: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ **الجمعة/2**.

لقد ختم محمد النبوّة: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ **الأحزاب/40**.

لكنه فوق ذلك فاتح عهد العالمية التي ترث عنه الحكمة بشموليتها في المنهج الكوني عبر استمرارية التاريخ البشري: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴿31﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ **فاطر/31-32**.

لقد جاء "محمد" في أول المفترق بين مرحلتين تاريخيتين في عمر البشرية بدأت الأولى "بآدم" وانتهت لديه، وبدأت الثانية به وتنتهي بنهاية العالم، والفارق الجوهري بين المرحلتين هو كالفارق بين تجربة "موسى" الإيمانية في بدايتها

وتجربة "العبد الصالح"، فالمرحلة الإيمانية الأولى كانت لا ترى فعل الله إلا فيما هو ماثل باتخاذه شكلاً مباشراً في سُنن الطبيعة، أما التجربة المحمدية فقد جاءت لتنطلق بالمستوى الثاني من الإيمان عبر الجمع بين القراءتين كتجربة "العبد الصالح" الذي أرشد "موسى" والذي كان يرى فعل الله ضمن كل الأشكال غير المباشرة، كما كانت تجربة "محمد" ومن معه في بدر وأُحد والخندق وسائر وقائع تلك المرحلة[1].

فالإيمان المحمدي هو مقدمة البشرية لتعرف طريقها إلى الله عبر التعامل مع السّنن الموضعية وبأن تكتشف الله في المادة وفي الحركة دون حلولية ودون ما ورائية ودون ارتداد إليه بمبدأ المادة الناقصة.

إنها من أعظم المراحل وأغناها في التاريخ الإيماني للبشرية، وقد جاء افتتاحها بعبارة (اقرأ)، وانتهت إلى الجمع بين القراءتين، وهذا جوهر الحقيقة المحمدية الكونية، وإرث الحقيقة يخرج معجوناً في لحمة العصر، وعلاقة من يلبي محمداً بالكتاب لا تكون علاقة نبوة ولا علاقة تجديد ولا علاقة رسالة ثانية ولا ثالثة، وإنما علاقة توريث يتفاعل فيها وصي الكتاب مع شخصية العصر حافظاً لاستمرارية الحكمة والمنهج الإلهي[2].

إن من يفهم حكمة انقضاء مرحلة النبوات سيفهم تماماً أن الله جعل إرادته في إعادة اكتشاف القرآن وفهمه ضمن كل مرحلة من مراحل التطور البشري بما ينسجم والخصائص الفكرية لشخصية المرحلة الحضارية، وقد ضمن القرآن وحي كل مرحلة كنور تتضح به حكمة المنهج الإلهي وتطبيقاته الكونية.

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص 377.

[2] – المرجع السابق، ص 377.

لقد كان الرسول ﷺ عالماً بحدود قومه الجغرافية من بعده، وقد أشار له القرآن بذلك، فقصّ عليه من قصص الرسل والأنبياء الأولين وأقوامهم بما يطابق جغرافياً الآن المناطق التي سيطر عليها الإسلام.

بتلك الإشارة لم يكن الله يحدد للعربي بعده الجغرافي فقط، بل كان يعطيه خلاصة معاني الحكمة النبوية التي ظهرت في كلّ منطقة من هذه التي تربط بين آسيا وإفريقيا وأوروبا، وكان على العربي أن يدرك يومها أن الله يقوده ليرث تلك الحضارات وليواصل حوار أنبيائها معها ضمن المنهج الكلي، وما جاء إشارة في القرآن أثبته الرسول تصريحاً في أيام الخندق، فقد كان ذلك ضمن الإعداد للخروج إلى منطقة الحضارات العالمية التقليدية، حيث تتمازج موجات الحضارات العالمية التقليدية، وتلتقي في تلك الأرجاء على أطراف المتوسط الشرقي وجنوبه، وبذلك قدّر للعرب أن يستمروا في العالمية من بعد "محمد" ليكونوا ورثة لهذه الحضارات وليعبدوا منهجها بالوعي الإلهي الكوني، وفي فترة وجيزة لا تمتد لأكثر من قرن استوعب اللسان العربي بلاد الأربعة والعشرين نبياً الذين قصّهم الله على نبيّه.

كانت المهمة كبيرة جداً، فقد دفع الله بالعرب ليكونوا في مقدمتها ولكننا لا يمكن أن نتوقع من العرب، أن يكونوا العماد الكلي لهذه التجربة الكبيرة، فهي تجربة إلهية تتجاوز حدود الزمان والمكان بالمعنى المحلي لتاريخ العرب «تجربة كبيرة كالقرآن نفسه في تفاعله الدائم مع الوعي البشري به عبر العصور المختلفة» وهي تجربة كبيرة مصدرها غيبي، وليس بشرياً فهي تتحرك بالغيب وليس بالعرب فقط.

والعرب في اندفاعهم نحو العالمية كان يجب أن يحملوا بوعيهم المنهج الحضاري الكوني للقرآن وأن يندمجوا في تلك الحضارات العريقة ويعيدوا منهجها، وأن ينطلقوا لتحقيق نهج السلام على مستوى العالم بما يكفل القضاء على حضارة الصراع.

لقد أدى العرب الأوائل دورهم في حدود الإمكانيات التي أتاحها اللّه، أي لقد حملوا كلمة اللّه وحملوا بفعل اللّه، وأنجز اللّه لهم وعده فورثوا مناطق الرسل الأربعة والعشرين وسلموا مفاتيح صنعاء وفارس والشام ومصر وكل جنوب المتوسط، وبقي عليهم بعد ذلك أن يعيدوا صياغة هذه الحضارات ضمن المنهجية القرآنية، كما أعادوا صياغة لسانها عربياً.

كان اللّه يدرك أقاصي القدرات التي أتاحها للعربي في هذا الدور العالمي وضمن تلك المراحل التاريخية، لذلك حين خاطبهم كخير أمّةٍ أُخرجت للنّاس فقد حدد مهمتهم العالمية: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ **آل عمران/110**.

ذلك كان الحد الممكن لتحركهم العالمي كما قدّره اللّه، أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإيمان باللّه، أمّا الأبعاد العميقة في القرآن فلم تكن من أصل المهمة العربية التاريخية، بل جعلها اللّه في طي القرآن ومكنونه، حيث تنبعث بقواها في ظلّ العلاقة العربية بتلك الحضارات.

لهذا السبب لم يشأ اللّه أن يكون الفتح الإسلامي فتحاً دينيّاً فقط ينتهي بترجمة القرآن إلى لغات هذه الشعوب فتأمر بمعروفه وتنتهي عن منكره، بل أبقى لهذه الحضارات العريقة أن تنفذ إلى المعاني المنهجية الكونية في القرآن.

فالمهمة الإلهية إذاً ليست عربية بالمعنى السلالي لهذه العبارة، وإنما مهمة حضارية عالمية تتجه لجذب كل مقومات الوجود الحضاري العالمي التقليدي في المناطق التي سيطر عليها اللسان العربي.

لقد اندمج العرب بلسانهم في هذه الأمم الحضارية، فأصبحوا منها وأصبحت منهم، فاستوى القرآن على قاعدة حضارية عريضة هي خلاصة الحضارة الإنسانية بكل مقوّماتها المادية، وكان من جوهر هذه القاعدة أنها قد حفظت في إطارها الجغرافي في السياق التاريخي للبشرية من "آدم" وإلى "محمد" وحفلت بكلّ

ما حملته تجارب الأنبياء واحتفظت بكلّ روائع الحضارة الإنسانية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ البقرة/ **143**.

لقد رفع اللّه الأميين العرب إلى درجة الإسلام ولم يكونوا قد استكملوا بعد حتى مرتبة الإيمان، فحين وصفوا أنفسهم بالإيمان أنبأهم اللّه بأنّ صفتهم هي الإسلام، إسلام الأنبياء الذين كانوا أرفع مرتبة من بني إسرائيل المؤمنين: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿14﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴿15﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿16﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿17﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ الحجرات/**14- 18**.

واستطراداً فالإيمان هو القاعدة العامّة للتدين، لكنه يختلف بين إيمان حسي يقوم على المرئيات وإيمان غيبي يقوم على التسليم بالوعي، والأخير هو ما يطلق عليه الإسلام، وقد جعله اللّه من قبل ديناً للأنبياء في حين استوت شعوبهم على الإيمان الحسي: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ المائدة/**44**.

والإسلام في منظومته الغيبية هو إيمان مضاعف، إذ يمتد الإيمان بعد إيمان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ﴾ النساء/136، وبما يحيط بكلّ المتعلقات الغيبية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ النساء/136.

لم يطلب الله من المؤمنين اليهود أو غيرهم من الأقوام (الخروج) من ديارهم جهاداً في سبيلهم، ولكنه طلب ذلك من العرب والخروج مشقة ونفي، حتى أنّ الله طلب منا أن نقاتل من يعمد لإخراجنا من ديارنا[1]: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴿8﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الممتحنة/8-9.

مع التدليل بأن سمة الخروج –أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر– تسبق سمة الإيمان في ترتيب الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ آل عمران/110.

وهذه الأمّة المخرجة للناس ترتبط (بإمام المسلمين ونبي الأرض المحرّمة والرسالة الخاتمة): ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿161﴾ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ

---

[1] – في حالتنا نستجدي السلام من إسرائيل، والسؤال المطروح هو: كيف تبرّز مقررات مؤتمرات القمة بالقول الأرض مقابل السلام؟.

الْعَالَمِينَ﴿162﴾ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الأنعام/ 161-163.

ولقد جعل الإسلام من عالم (الأمر) الإلهي ﴿وبذلك أمرت﴾ وهو فوق عالم الإرادة الذي يتصدره موسى كإمام للمؤمنين: ﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف/ 143.

وفوق عالم المكان والمشيئة الفطرية الأولى الذي يتصدره إبراهيم كإمام للناس: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ البقرة/ 124.

فمحمد ﷺ بإمامته للمسلمين تستوي مرتبته في مطلق عالم الأمر، فهو من معصوميته الكاملة وارتباطه بالأرض المحرمة والرسالة الخاتمة، إنّما يصدر عن أمر إلهي في أمر إلهي: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ النمل/ 91.

فعبر كافة هذه الأبعاد مجتمعة رُفع الأميون العرب إلى مرتبة الإسلام، رفعوا بمحمد خاتم.

من كلّ ما سلف يمكن التأكيد بيقين بأنّ القرآن الكريم نزل مستهدفاً تغيير شخصية الإنسان العربي من الداخل ليتحوّل به من الذاتية الفردية القبلية القائمة على عقلية الكثرة والانحصار البيئي إلى الكونية الشاملة بامتدادها البشري والطبيعي وتعلّقها بالله.

وهـذا التحـول لم يكـن سـهلاً ضـمن التحليـل العلمـي الموضـوعي للتـاريخ، فـالقرآن بوصـفه «أداة غيبيـة» حقّقـت التعـالي الحضـاري علـى المطلـق الفـردي العربي، جاذباً الإنسـان العربـي مـن الـداخل إلى هـذا التحـول بحيث نقـف تاريخياً أمام ظاهرة مذهلة كان أساسها الغيب.

وقد رأينا كيف أنّ الله «وقد جذب الذات العربية عبر الإنشاء القرآني إلى هذا المحتوى الجديد المكنون في القرآن» دفع الإنسان العربي عبر دروس تطبيقية عديدة في معارك التحويل نحو الإسلام ليدرك أعماق الكلمة القرآنية وحكمة الله في التدبير الكوني.

تلك كانت المعالم الرئيسية في بداية صنع التاريخ العربي وتركيز مقدّماته العالمية ليخرج العربي لا من صحراء الجزيرة إلى سهول العالم لكن ليخرج أولاً من فرديته إلى كونيته، ومن سطوح الفكر إلى أعماقها ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن ظواهر الموجودات والحركة إلى حقائقها، وأن يأتي هذا التحول خلافاً للطرق المباشرة التي أجراها الله في علاقاته مع الشعوب السابقة[1].

طوال ثلاثة وعشرين عاماً تمّ الإنجاز الضخم كما قدّره الله وبما يرضي رسوله وتمكنت الشخصية العربية من العبور إلى الوعي الجديد مدفوعة بالقرآن ومدعومة بتجاربها التطبيقية في سلسلة المعارك والوقائع الأخرى.

كانت تلك المرحلة مرحلة تحويلية بالقرآن، فقد كانت، نلك إنجازات هائلة توقّف عليها فيما بعد المسير كلّه، كذلك جاءت علاقة العربي بالقرآن «كوعي يستمر مع البشرية للأمام مهمة» في تلك المرحلة المتقدمة.

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص393.

في هذا الإطار الفسيح لتلك الحقيقة الإيمانية تكوّنت ونشأت التجربة المحمدية العربية كمقدمة لمنهج إلهي حضاري كوني ترسي دعائمه التفصيلية على مستوى الفكر البشري ككل، فهو البديل الذي أتى من عند الله، وقد عاش العرب تلك الحقيقة عبر انجذابهم اللغوي للقرآن وعبر إرشاد الله إخباريّاً لهم بما يشابه التطبيق لمعاني ذلك المنهج مع تقديم النماذج السابقة، لذلك لا يمكن القول إن ثمّة فهماً جديداً للقرآن كان غائباً فيما مضى ويمكن أن يفهم به اليوم، فقط يمكن القول «وهذا هو الصحيح» إنّ هناك أشكالاً تبدو للناس جديدة في ظاهر فهمهم للقرآن تحتاج لإعادة اكتشافها ضمن المنهج الإلهي[1] الموجود بحقيقته وتفاصيله أصلاً، أي منذ التجربة المحمدية العربية.

لقد كان فهم القرآن في كليته متاحاً «حدّ كبير» ومنذ البداية للكثيرين من الذين انفتحوا عليه بكلّ استعداداتهم، كان يتنزل على قلوبهم وحياً صافياً، وكانت علاقتهم بالحكمة التي يتلقونها أن يمارسوها لا أن يمنهجوها، وجاء من بعدهم خلفٌ جعل همّه أن يتسقّط أخبارهم دون أن يضع اللبنات في حائطها، ودون أن ينظم السلك الذي يضمّ حبات جوهرها.

والخلاصة فمنهجيتنا هي منهجية القرآن التي نشأت ضمنها التجربة المحمدية العربية، ولا ندّعي أنّ ثمة جديداً يضاف، سوى محاولة الوعي بالقرآن في إطاره المنهجي الكلي على نحو كوني شامل، بوصفه معادلاً للحركة الكونية وكل دلالاتها، وهذا الفهم ليس جديداً في ذاته ولكنه جديد في تناوله، أي إنه كان موجوداً في القرآن، غير أن العرب لم يكن من شأنهم وطبيعتهم أن يتناولوه بشكله المنهي الكلّي، ولا يعود الأمر لنقص فيهم وكما فينا، وإنما يعود لطبيعة مقوّمات تجربتهم وخصائص تكوينهم التاريخي والاجتماعي.

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة "العالمية الإسلامية الثانية"، ص393.

لقد تلقى العرب القرآن ضمن (مواضع النزول)، وبدا لهم أنه يشير عليهم في كلّ حالة إلى الأسلوب الأمثل بتناولها والتعامل معاً، ويرتبط هذا الأسلوب بالكيفية التحويلية التي كان ينزع إليها القرآن في تحويله التدريجي للعربي من مطلقه الفردي إلى الكونية، فهناك مواضع نزول يقابلها تحوّل تدرجي للإنسان العربي باتجاه منهجية القرآن الكونية وكليّته التي هي معادل موضوعي للحركة الكونية كلّها ولعقيدة التوحيد الكبرى ونتيجة لذلك «وعلى نحو طبيعي» جاء فهم العربي للقرآن فهماً مجزّأً يعطي دلالات الحكمة، ولكنه «أي العربي» لا يحيط بها منهجيّاً ضمن القراءة القرآنية الواحدة بمنهجها الواحد، وكانت علاقتهم بحكمته أن يمارسوها في مواضعها لا أن يمنهجوها بشكلها الكلّي كما أوضحنا على مستوى الجمع بين القراءتين، القراءة الغيبية، والقراءة الموضوعية، ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴿1﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴿2﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴿3﴾الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴿4﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ **العلق/ 1-5**.

في هذا الإطار مضى العربي يردّ كل معنى في القرآن إلى موضعه المحدد من النزول، ونشأ علم كامل فيما بعد يسمّى بعلم "أسباب النزول" ويكفي العربي أنه عاش القرآن ومعانيه في ممارساته السلوكية، وأنّه تلقى عن حكمه في كلّ مسألة، فالاتجاه كانت تطغى عليه "السلوكية" أكثر من (المنهجية العلمية).

بذلك الأسلوب التدريجي أمكن تحقيق المدى الذي تتحمله التجربة العربية في تحوّلها نحو مهمتها لتخرج بالقرآن إلى الناس.

كان خروج العرب يعني الانفتاح على الحضارات التقليدية العالمية، وقد قطعت تلك الحضارات شوطاً بعيداً في منهجية أفكارها وتأطيرها على نحو فلسفي شبه متكامل، لذلك لم يكن من طبيعة تجاربها الحضارية أن تتلقى القرآن بنفس الكيفيّة التي يعيه بها العربي ضمن لزوميات مرحلة تحوله التدريجي، فقد طرحت

هذه الحضارات على نفسها من قبل تساؤلات فلسفية عميقة عن الله والدين والإنسان ومصيره وخياره وجبريته وحريته وماضيه ومستقبله وعلاقته بالفعل في الحياة، تلك كانت بيئات حضارية متقدمة، وقد سبقت العرب بألوان شتّى من تعقيدات الفكر، كما استقبلت في ماضيها «قبل خروج العرب» أربعة وعشرين نبياً كان لهم معهم شأن مختلف[1].

لقد قدر الله هذا الفارق مسبقاً «بين كيفية تناول القرآن في مرحلة التحويل العربي» وكيفية تناوله حضارياً لدى التجارب البشرية المتقدمة وتجلّى هذا التقدير في الأمر "لمحمد" بإعادة ترتيب آيات القرآن على غير مواضع النزول ليعطي الكتاب وحدته العضوية المنهجية الكاملة التي تقابل أي منهجية حضارية بشرية مقابلة.

لم يتوقف العرب ولا المفسرون كثيراً لدى حكمة إعادة ترتيب القرآن بل وقفوا في حدود أنّ الأمر (توفيقي) فقط، وذلك كان من طبيعة وضعهم، فقد كانت مهمّة القرآن بالنسبة للعربي هي مهمة تحويلية من وعي إلى وعي إلهي بديل، ولم يكن ذلك ممكناً ضمن مرحلة تكون العربي الحضارية إلا بالمزج بين الإرشاد الإخباري والتجربة العملية، وترك الله الأمر لاستعدادات العربي في المضي إلى المنهج الكلي عبر تراكم التجارب واتصال مواضع النزول.

بيد أن القرآن لم يكن للعربي فقط، بل للعالم أجمع، فرتّبه الرسول ضمن منهجيته التي تجاوزت مواضع النزول وأسبابها المحلية التحويلية، فالأصل لم يتغير غير أن القرآن وزّع إلى سور تحمل كل سورة معنى خاصاً بها في إطار المعنى الكلي العام الذي يوحّد بينها، هكذا أصبح للبقرة سياق موضوعي محدد يتّصل مندمجاً في آل عمران، ويستمر إلى آخر الكتاب ليعطي عبر وحدته الكليّة المنهج الكلي.

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص 396.

ولقد رأينا الطريقة التي ألحق بها الرسول آيات متأخرة النزول بافتتاحية القرآن الأولى في سورة (اقرأ)، بحيث اكتمل نهجها الواحد، والأمر على هذا النحو في كلّ السور، أي أنّ الرسول أخرج القرآن من محليّته إلى عالميته بإعادة ترتيبه من مواضع للنزول إلى منهج لوعي كلّي واحد متماسك الفقرات، وبقي على الحضارات العالمية من بعد أن تعبر بالعربي نفسه ومن خلال القرآن إلى درب المنهجية الكاملة التي تحمل كل أبعاد الحضارة البديلة.

لم يعد من مهمة الذين خرج إليهم العرب بالقرآن أن يستهلكوا السنين ليدركوا أن "أبا عبد الرحمن بن أبي حامد العدل" قال: ((إن "أبا بكر بن زكريا الحافظ" قد قال: إن "أبا حامد بن الشرمتي" قد قال: إن محمداً بن يحيى قد حدثه عن الحجاج بن "محمد عن ابن جرع" قال: أخبره يعلي بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ النساء/**59**)).

نزلت في عبد اللّه بن حذافة بن قيس بن عدي بعثه رسول اللّهﷺ في سرية.." رواه البخاري عن صدفة بن فضل ورواه مسلم عن زهير بن حرب، كلاهما عن حجاج، وقال ابن عباس في رواية: ((بعث رسول اللّهﷺ خالد بن الوليد في سرية إلى حي من أحياء العرب، وكان معه عمار بن ياسر، فسار خالد حتى إذا دنا من القوم عرس لكي يصحبهم، فأتاهم النذير، فهربوا عن رجل قد كان أسلم، فأمر أهله أن يتأهبوا للمسير، ثمّ انطلق حتى أتى عسكر خالد ودخل على عمار فقال: يا أبا اليقظان إني منكم وإن قومي لما سمعوا بكم هربوا وأقمت لإسلامي، أفنفعني ذلك؟ أو أهرب كما هرب قومي؟ فقال: أقم فإن ذلك نافعك، وانصرف الرجل إلى أهله وأمرهم بالمقام، وأصبح خالد فغار على القوم، فلم يجد غير ذلك الرجل فأخذه وأخذ ماله، فأتاه عمار فقال: خلّ سبيل الرجل فإنّه مسلم، وقد كنت أمّنْتَه وأمرتُه

بالمقام، فقال خالد: أنت تجير عليّ وأنا الأمير؟ فقال: نعم أنا أجير عليك وأنت الأمير، فكان في ذلك بينهما كلام، فانصرفوا إلى النبي ﷺ، فأخبروه خبر الرجل، فأمنه النبيﷺ وأجاز أمان عمار ونهاه أن يجير بعد ذلك على أمير بغير إذنه.

قال: واستبّ عمار وخالد بين يدي رسول الله ﷺ فأغلظ عمار لخالد، فغضب خالد وقال: يا رسول الله أتدع هذا العبد يشتمني؟! فو الله لولا أنت ما شتمني.

وكان عمار مولى لهاشم بن المغيرة، فقال رسول اللهﷺ: يا خالد كفّ عن عمار فإنّه من يسبّ عماراً يسبّه الله، ومن يبغض عماراً يبغضه الله، فقام عمار فتبعه خالد فأخذ بثوبه، وسأله أن يرضى عنه، فرضي عنه، فأنزل الله تعالى هذه الآية وأمر بطاعة أولي الأمر))[1].

الآية وردت في سورة النساء بالرقم/59/ في الجزء الخامس، ومدلولها بالنسبة لنا لا علاقة له بهذه القصة نهائياً، فالآية تشكّل جزءاً من وحدة خاصة بسورة النساء ولها موضع محدّد في سياق وحدة السورة، وهي سورة تشريع، ولكنه مطروح ضمن منهج أو غطاء كامل.

وما تدّلنا عليه الآية في سياقها ليس فقط طاعة الله ورسوله فهذا أمر واضح، ولكن طاعة أولي الأمر (منا) في إطار تعلقهم بأداء الأمانات إلى أهلها وأن يحكموا بين الناس بالعدل أي بما أمرهم به الله كما هي مقدمة في الآية/59/، وأن يبتعدوا عن المفهوم الوضعي للحكم كما هي نهاية المقدمة في الآية/59/، وأن يكون

[1] - علي بأحمد النيسابوري أبو الحسن الواحدي: أسباب النزول، ص91.

أولـوا الأمـر هـؤلاء (منـا) ولـيس (علينـا) بالتسـلط الفـوقي أو (فينـا) بـالإرث الاجتماعي التاريخي.

﴿إِنَّ اللّـهَ يَـأْمُرُكُمْ أَن تُـؤدُّواْ الأَمَانَـاتِ إِلَـى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْـتُم بَـيْنَ النَّـاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴿58﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴿59﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ النساء/**58- 60**.

هذا المفهوم يبتعد المفسرون به بما ينأى عن روح التشريع وجوهره في سورة النساء كلها ضمن المنهجية القرآنية الكاملة، أي النهج الكوني الإلهي لمعاني التشريع في القرآن، وهو نهج ينتهي إلى تحقيق السلام الكوني وعقيدته الكبرى في العالم ضد فلسفة الصراع الوضعي ويقوم على أساس الالتزام الإبراهيمي الذي أسلم لربّ العالمين: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ البقرة/**131**.

أجل فروح التشريع القرآني لقاعدة أولى الأمر منكم تتجلى فيما أكدناه سابقاً بضرورة الأخذ بكافة مكونات صدور التشريع بما في ذلك أسباب نزول الآية (حادثة عمار) وحق الفرد في أن يناقش التشريع وتوفير حريته وديمقراطيته – قصة الطائر المعبرة عن الحرية- والطاعة للحاكم، يجب أن تقترب بمكتنفاتها وأسبابها البعيدة (حرية عمار في مناقشة عمار للقائد خالد).

وبالطبع وقد استثنى الرسول ﷺ فقط من تطبيق قاعدة (أولي الأمر منكم) في التولّي لأن ولايته كانت عن الله بحكم رسوليته، وهو أمر خاصّ به، إذ كان الرسول

ﷺ من أولي الأمر بالله، لذلك وإدراكاً منه لمنهجية القرآن ومعناه لم يولِّ أحداً أمر المسلمين من بعده وتركهم لما أدركوا من القرآن ولم يتوله بالتفسير[1].

لقد فُهم القرآن في تلك المرحلة بما توجّه به القرآن إليها من معانٍ تحويلية تضع العربي في إطار رسالته العالمية حاملاً الأبعاد الفكرية للحضارة العالمية البديلة، غير أنه لم يكن من بدّ أن يُلقي الواقع العربي ظلاله على تلك المرحلة التي منحته أقصى استعداداته البشرية، وأن يقترب لفهم القرآن في منهجيته بالطريقة التي تتلاءم وتكوينه الذاتي في مرحلة التحوّل، لذلك لا نستطيع القول فهم القرآن في حدود (سطحية) أو (جزيئية) قياساً إلى فهمنا نحن له في هذا العصر أو لمنهجيته.

لقد فهم العربي القرآن (كما تعطيه تجربته) وكما ينبغي له أن يفهمه، أما القرآن نفسه فيبقى عالياً على كل المراحل التطورية التاريخية، ولكنه يمدّ إلى كلّ مرحلة صورتها فيه وضمن منهجه الكلّي، وليست مهمتنا (تأويله أو عصرنته) ضمن متغيرات العصر، ولكن مهمتنا هي الوصول إلى صورتنا فيه ضمن منهجيته الكاملة التي رتّبه عليها الرسول ﷺ.

إنّ الفارق بين القرآن وأقصى صورتنا إمكانيات الوعي البشري للقرآن، هو كالفارق بين الله والإنسان، غير أن الله يمدّ الإنسان بمكنونات الوعي بكتابه عبر تطور الحركة والتاريخ[2].

قد تجاوز القرآن (نظرياً) وعي العرب الذاتي كما تجاوز (فعل) الدعوة (عملياً) فعل العرب الذاتي، حيث ألقى الله إليهم بكلمته وساندها بالفعل المتحرك الذي

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص398.

[2] – المرجع السابق، ص399.

قهر كلّ الأسس الموضوعية في سبيل التحوّل بالعربي وإخراجه بالرسالة إلى العالم، وليظل محكوماً في خروجه وتطوّره بالتفاعل الغيبي بين كلمة اللّه وفعله.

كلمة اللّه وفعله بالمعنى الغيبي هي أساس تكوننا التاريخي، فمقدمتنا التاريخية منذ بدايتها لم تكن مقدمة ذاتية بالمعنى الموضوعي لهذه الكلمة، وإنما مقدمة غيبية[1] يستمر فيها فعل الغيب واضحاً ضمن كل المراحل المتأخرة، لذلك لم يكن من مسؤولية العربي أن يتسع بالوعي لكلّ دلالات التجربة الغيبية منهجاً وفكراً، بل كانت مسؤوليته قاصرة على الاستجابة لمعاني الغيب في تجربته بالمدى الذي يستطيعه، وهو مدى غلبت عليه مظاهر التحويل باتجاه الوعي الكوني والرسالة العالمية.

كان محمد ﷺ من بين العرب يدرك دوره العالمي وأبعاد رسالته الحضارية الكونية ومنهجها، وكان يدرك نصيب قومه من ذلك، بل وكان يدرك المدى الجغرافي البشري الذي سيتوجه إليه قومه من بعده، ففي أيام الخندق صرح الرسول ﷺ بالأمر:

﴿اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، واللَّه إِنِّي لأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ السَّاعَةَ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ فَقَطَعَ ثُلُثًا آخَرَ، فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّه إِنِّي لأُبْصِرُ قَصْرَ الْمَدَائِنِ الأَبْيَضَ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ ، وَقَالَ: بِسْمِ اللَّه فَقَطَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّه إِنِّي لأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا السَّاعَةَ﴾.

إنّ نظرة تاريخية لتماوجات الشعوب وتداخلها في الممر الآسيوي الإفريقي توضح لنا أنه ما من حضارة كانت قادرة على الاستمرار والبقاء، فنفقة الحياة في هذه المنطقة هي أكبر مما تطيقه الحضارات مع ذلك بقيت الحضارة الإسلامية

[1] – الغيبية محكومة بالظلال القرآنية أي بالموضوعية والغلبة والسببية.

وتعرّبت وأصبح لها مراكز تاريخية متناوبة من خلافة المدينة إلى خلافة دمشق إلى خلافة بغداد وإلى مركزية مصر بشمال إفريقية وتركيا.

ليس ثمّة مصادفة في الكون وليس ثمّة حادث عرضي، لكل موضعه وتقديره وحكمته فالكون كلّه آية واحدة متماسكة النسق والتكوين والذي لا يرى الأمور إلاّ في عوارضها ومصادفتها يغيب عنه النهج الإلهي في الحركة الكونية، ولا يستطيع بالتالي أن ينفذ إلى علاقات الأمور، وإننا عندما نستجيب لله، فسيحيينا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن أَعۡطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴿5﴾ وَصَدَّقَ بِالۡحُسۡنَىٰ﴿6﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴿7﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسۡتَغۡنَىٰ﴿8﴾ وَكَذَّبَ بِالۡحُسۡنَىٰ﴿9﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ الليل/**5-10**.

لم يكن إلا تسارع الجغرافي الذي وجدت فيه القبائل العربية نفسها حال الخروج عبثاً، ولم يكن استمرار وجود هذه الأمة رغماً عن التحدي التاريخي والحضاري الهائل عبثاً، ولم تكن سيطرة هذه الأمة بحكم موقعها على مداخل العالم التقليدية ومخارجه بين أوروبا وآسيا وإفريقيا، ولم يكن توحد الحضارات العريقة باللسان العربي عبثاً، ومع ذلك فقد ألغت الشعوب بثقلها على حضارتنا فالشرق الآسيوي يغور في وجوهنا وبجناحنا بكلّ ما ترعرع في سهوله وسهوبه من تدفق بشري والغرب يتغلغل شمالاً فينا وشرقاً حتى يركز أعلامه على قلاع فلسطين، واليهودية العالمية تستخدم كل حيلها لنسفنا من الداخل والخارج.

وهذه الحضارة العربية لم تبن حصونها الثقافية والاجتماعية والأخلاقية من سرفه دماء الشعوب.

إن كل قبر من أنفاق لندن وراءه قصة أسرة من جامايكا، وكل عمود في قصورها من ورائه على مدى الإمبراطورية التي لم تكن تغيب عنها الشمس، مقابل ذلك كانت حال يثرب، عاصمة الرسول مدينة متواضعة، لم يتغير فيها شيء، والأمر

نفسه بالنسبة لمكة حتى أن عمر بن عبد العزيز رفض كساءها وقال لمن اقترح عليه ذلك: ((البطون الجوعى أولى، بل لم يرسل الولاة العرب شيئاً من عائدات الزكاة إلى خارج مناطقهم تقيّداً بالقاعدة الإسلامية التي تقتضي بصرف الزكاة على فقراء المنطقة نفسها، وأبعد من ذلك فقضية عمير بن سعد تصيخ لها مسامع الدهر، ويزدهر لها جبين الزمان، أجل لقد استعمله الخليفة الراشد عمر بن الخطاب والياً على حمص، ولما مضت السّنة كتب إليه عمر أن أقدم علينا، فلم يشعر إلا والرجل قد قدم عليه من حمص ماشياً حافياً، عكازته بيده، ومزوده وقصعته على ظهره، فلما نظر إليه عمر قال: يا عمير! أمرضت أم البلاد بلاد سوء؟! فقال: يا أمير المؤمنين أما نهاك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظنّ، وقد جئتُ إليك بالدّنيا أجرها بقرابها، فقال له: وما معك من الدّنيا؟ قال: عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوّاً إن لقيته...ومزود أحمل فيه طعامي.. وأدواة أحمل فيها ماءً لشرابي ولطهوري.. وقصعة أتوضأ فيها وأغسل فيها رأسي وآكل فيها طعامي، فو الله يا أمير المؤمنين ما الدّنيا بعد إلا تبع لما معي.. فقام عمرﷺ عن مجلسه إلى قبر رسول اللهﷺ وبكى بكاءً شديداً ثمّ قال: اللّهمّ ألحقني بصاحبيّ «الرسول وأبو بكر» غير مفتضح ولا مبدل.

وبعد هذا كلّه جلس ليحاسب عمير...قال له: ما صنعت في عملك يا عمير؟ قال: أخذت الإبل من أهل الإبل والجزية من أهل الذمّة عن يد وهم صاغرون، ثمّ قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل فو الله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأتيتك به.. فقال عمر: عد إلى عملك يا عمير)).

بمثل هؤلاء فتح الإسلام حوض الحضارات وبمثل هؤلاء حكم فلم يحدث ذلك التطور القسري الذي انتهجته الحضارة الغربية في تشييد هياكلها من عرق المستعمرات...ولم يبن "ابن العاص" في مصر هرماً يخلد كمعجزة رابعة إلى جانب خوفو بعد أن يسحق تحته الآلاف من المستعبدين.. ولم يشيد "هارون الرشيد"

برجاً يظاهر به برج بابل أو ينافس به برج إيفل، ولم يفكر أحدهم في مثل حماقة (تاج محل)[1] .

كل ما يقال الآن عن أن الحضارة العربية الإسلامية لم تتواصل جدلياً كالحضارة الأوروبية فيه جهل للفارق بين طبيعة الحضارتين، فقد جاءت تلك الحضارة إنسانية الاتجاه بحكم محتواها القرآني، فأبقت نفسها في حدود التطور الطبيعي «غير القسري» لقواعدها الحضارية على مستوى الإنجازات العلمية الزراعية والصناعية، لقد أدّى (الخروج) إلى تكوين (الأمّة الوسط)، لكن ماذا الرابط المركزي الذي يلفّ الشتات؟.

الرابط هو (القبلة) وتعزيز مكانة (مكة) كقاعدة مركزية جاذبة للأمة الوسط والديار فكما بوأ الله الموقع الوسط من بعد الخروج، جعل قبلتها مكة، ولهذا ربطت سورة البقرة (آية/143) بين الأمّة والقبلة، ثمّ تحدّد الأمر بوضوح في آية لاحقة: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ البقرة/**143 – 144**.

المعنى الأخطر، مكة جاذبة لشخصية الإنسان العربي في مختلف دياره وحيثما تموضع في الموقع الوسط وفي الأمّة الوسط، فمفهوم (المركز) من تكوين الشخصية

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: عمير بن سعد وجدلية التاريخ الاقتصادي والاجتماعي العربي.

العربية يتحول إليها بالذات، وليس إلى (العواصم) القطرية أو الإقليمية أو حتى القومية، فما يصيب مكّة يصيب الشخصية العربية في جذر تكوينها[1].

التجريد من تتابع النبوات:

تفترض استمرارية المسؤولية عن الذكر، أو الدفع بالحق في مواجهة الباطل، استمرارية النبوات التي من شأنها أن تستشرف مسؤوليات كل مرحلة وتحلّ إشكالياتها، ويكون لها قدرة السيطرة الروحية على النّاس، إن اللّه سبحانه و تعالى جعل محمداً خاتماً للرسل والنبيين، وهي لم تختم كما ختم على (عصمة) تكون ذرية من ظهره: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ **الأحزاب/40**، مع نفي أدنى توقع لمخلّص قادم، أياً كانت صفته، وجعل الأمر من بعد محمد (توريثاً) متعدد الخصائص الإنسانية، فلا يطير الوارث في الهواء ولا يمشي على الماء، مجرد خصائص إنسانية لا علاقة لها بما يتجاوز وضع الإنسان كإنسان، يؤخذ منه ويرفض بحكم العقل والمنطق: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ **فاطر/31**.

هذا ونشير استطراداً إلى أن فتح العربي المسلم لهذه الأرجاء وبالتحديد المنطقة الحالية ما بين الفرات والأطلسي اكتسب طابع الصراع الدموي لا مع شعوب هذه المنطقة، ولكن مع القوات العسكرية للإمبراطوريات الغازية لهذه المنطقة أي ضد القوات الرومانية والفارسية.

أمّا الشعوب فقد (استجابت) للفتح العربي الإسلامي بوصفه مدخلاً (لتحريرها) من قبضة الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية، ولهذا فتح نصارى دمشق بوابات تلك المدينة التاريخية أمام الفاتحين، كما استجاب أقباط مصر وعلى رأسهم رأس الكنيسة الذي نفاه الرومان بسبب الانتشار العربي المسلم في مصر.

---

[1] - محمد أبو القاسم حاج محمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص48.

حكمت تطلعات التحرير توجه شعوب هذه المنطقة نحو العربي المسلم، تماماً كما أن تطلعات أداء رسالة الرحمة هي التي حكمت توجهات الفاتحين العرب نحو هذه الشعوب، أمّا (السيف) فقد اقتصرت مهمته على رقاب قوات الغزو الإمبراطوري الروماني والفارسي.

والخلاصة فلقد استوعبت الكلية الحضارية العربية الإسلامية الجديدة التي عرفناها بعالمية الأمّيين أهم عصارات العالم القديم الحضارية والثقافية، أصداء بابل بآشوريتها وسومريتها وكلدانيتها وأكاديتها، وما بين بابل ومصر حضارات الآراميين بكافة اشتقاقاتها، وحضارات مصر، وما أبقت عليه الهيلينية اليونانية في شواطئ مصر، وما تركته الحضارة الرومانية في شمال إفريقيا .

تلك كانت مرحلة إعادة الصياغة الحضارية لما بين الفرات والأطلسي في المنطقة التي قدر لها فيما بعد أن تشكل الحدود الجغرافية لكيان عربي جديد بعد انحسار مركزية الخلافة الإسلامية العربية وضغط العالمين الأوروبي والآسيوي على خاصرتي عالمية الأميين (سقوط الأندلس والهجوم المغولي على بغداد).

لم تقرر هذه المنطقة ما بين الفرات والأطلسي فقط مصير التدامج العربي مع شعوبها التاريخية، بل استوعبت في إطار هذا التدامج «ومحوره الإنسان العربي كقاسم مشترك» شعوباً أخرى ليست من هذا النطاق، فهناك موجات (البويهيين عام 945م)، ثمّ (السلاجقة عام 1060م)، ثمّ (الأيوبيين الأكراد)، الذين امتدوا عن (الزنكيين الأتراك) بداية بعام/1127م/، ثمّ المماليك بمختلف فصائلهم العرقية، ثمّ يأتي الاجتياح المغولي الأول في عام/1258م/ والثاني في الشكل التيموري عام/ 1400م/، ودون أن نغفل التفاعلات العرقية في المغرب العربي وهي تفاعلات تمت باتجاه أوروبي شمالي وباتجاه إفريقي متوسطي وجنوبي أي جبلي وصحراوي.

ذاك مسار تدامجي طويل بدأ تأطيره الجغرافي منذ الخلافة الأموية/ 661-750م/، ثمّ عمّق تفاعلاته البشرية والحضارية طوال المرحلة العباسية/ 750-1258م/، بحيث تمّ استيعاب حضارات تلك الشعوب بفلسفاتها ومذاهبها إلى حدّ كبير، فإذا أعدنا النظر في خارطة الانتشار الجغرافي سنجد أن كافة حضارات الشرق الأدنى وفارس الهند والصين واليونان والرومان قد تداخلت ببعضها حواراً واتصالاً فتعددت (الملل والنحل) وتنوعت مصادر الاقتباس والاستشهاد، قد كان العالم القديم كلّه ناشطاً بحركيته الثقافية والفكرية في هذا الإطار الجديد (عالمية الأميين).

لأول مرّة في حركية الاتصال الحضاري بين الشعوب تسقط معادلات الثنائية الخصامية بين الشرق الآسيوي والغرب الأوروبي، فكلاهما متفاعل داخل حركية ثقافية واحدة مركزها موقع الوسط بينهما إلى أن أتت أوروبا فيما بعد فانبعثت هذه الذهنية الخصامية تحت ضغط توجهاتها العنصرية والاستعمارية[1].

ولأول مرّة في تاريخ البشرية يستوي التفاعل الحضاري على قاعدة (إنسانية) غير عرقية وغير شوفينية لأنها مزاج كافة الأعراق المعروفة وقتها، فأنتج ذلك التفاعل مدارس فلسفية غاية في التعدد والتنوع كما حفظ للعالم عبر عدّة قرون تراثه الفكري والفلسفي والأدبي الذي استجمعه شرقاً وغرباً حتى إذا ما نهضت أوروبا في يوم لاحق من أيام التاريخ وجدت أمامها تراث العالم كلّه ليس محفوظاً فقط ولكن مفهرساً ومجدداً.

المهم أنّ ثمّة تدامج عرقي وتفاعل حضاري قد اتخذ مداه باتساع تلك العالمية الأميّة فانتفت عنها صفة الخاصية الحضارية الذاتية، لهذا لم تستطع تلك المرحلة

[1] - محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص 535.

أن تنجب فكراً يقوم على (التوصيف العربي) أو التفوق (العنصري) كما أنتجت أوروبا عبر فلسفة تجربتها المغايرة تماماً لتجربة الأميين، المهم أنّ التدامج العرقي قد قفز بالعربي إلى خارج توهمك الصفاء العرقي العنصري، فالعربي يتدامج مع الآخرين نافياً لذاته فلا يتعرف على ذاته ويرجع إليها إلاّ إذا سبقه الآخرون فتعرفوا على ذواتهم وناقضوه بها.

كما أنّ موقع الوسط الجغرافي ما بين القارات (آسيا – أوروبا- أفريقيا) قد جعله مستجمعاً في ذاكرته الحضارية والتراثية لمجموع الحضارات العالمية.

لقد تطلع العربي «ضمن عالمية الأميين» بروح منفتحة على ديانات الآخرين وفلسفاتهم وحكمهم لأن دينه لم ينكر على هذه الشعوب خصائصها الدينية الكتابية وشرائعها من عهد نوح وإلى عهد عيسى عليهما الصلاة والسلام.

لقد أنكر فقط ما رآه في حدود التحريف وقد تمادى البعض من العرب في الثقة والانفتاح إلى الدرجة التي سهل معها على بعض الكائدين دس تحريفاتهم في التفسير الديني التراثي للقرآن الكريم، وقد تنبه البعض من علمائنا الأجلاء لجانب من هذا التحريف فيما عرفوه بالإسرائيليات، غير أنّ المشوار النقدي لا زال طويلاً.

تلك كانت أخلاقية الانتشار العربي الإسلامي لصياغة عالمية الأميين، وقد كانت صياغة مختلفة تماماً عن صياغة أي فاتح في كل التاريخ لإمبراطوريته الفلسطينية في 1969 من مشروعية لفكر الثورة.

هكذا وضح لنا الآن الكيفية التي تأطر بها الوجود العربي جغرافياً وبشرياً ما بين المحيط والخليج، وأشرنا إلى السمات الحضارية في مراحل الفكر الثلاث، كما أشرنا إلى التدامج العرقي والإرث الحضاري العالمي والانفتاح الديني الكامن في عالمية الدعوة الإسلامية المعترفة بالأديان السماوية من قبلها، وبرسول الإسلام ﷺ

المعترف برسالات الرسل من قبله، فأصبحت الهوية العربية «بضرورات التكوين» مركزية جامعة ومستقطبة على مستوى ديني وحضاري وعرقي وفي موقع الوسط من حوض الحضارات.

هذا يعطي للقومية العربية هوية مفارقة في نشؤها وطبيعتها وتركيبها خلافاً للكيفية التي نشأت في إطارها قوميات أخرى في العالم، والتي بقيت أسيرة الروح العرقي والاتجاه الحضاري الأحادي الجانب والاتجاه الديني الأحادي الجانب أيضاً.

إنها القومية اللا عرقية لأنها من كافة الأعراق المندمجة، واللا شوفينية، أمّا الخلط «حين هوجمت عبارة (القومية)» فقد جاء من اثنين: أحدهم طرحها بالمقاييس الذاتية الأوروبية المفارقة في جدلية تكوّنها التاريخي لمسار التكوّن العربي، وثانيها عارضها في سباق معارضته العلمانية من جانب وتخوفاً من طرحها في تضاد مع عالمية الإسلام من جانب آخر، وكانت الفجيعة في الطرحين كبيرة جداً، علماً بأن من طرح العلمانية قد طرحها، لا من خلال فهمه لجدلية التركيب العربي الاجتماعية والسياسية، ولكن من خلال منظور التطور الأوروبي لها.

الأمّة

يثير هذا العنوان مواضيع كثيرة لكننا سنختار منها ما ينسجم ويتفق مع الموضوع، وهكذا فقد تحدد اختيارنا بما يلي:

- استجابة العرب والمسلمين للنبأ العظيم.
- المكافأة والثواب على الاستجابة.
- الأمّة العربية بوصفها نواة العالمية الإسلامية.
- تكوين الأمّة العربية منظور إليه من زاوية قواه الفاعلة.

مع ملاحظة أن موضوعات هذا البحث تنشأ به وتتقارب مع مواضيع "العالمية الإسلامية الأولى"، ومن ثمّ فموضوع "لماذا اختار اللّه العرب للتصدي لرسالة النبأ العظيم؟" كان من الممكن أن تتحيز موقعها في هذا البحث، بيد أننا رجحنا لها موقعها الخالي لعدة اعتبارات.

الفرع الأول

استجابة العرب والمسلمين

لقد استجاب العرب «أول ما استجابوا» للنبأ العظيم، فحملوا كلمة اللّه وحُملوا بفعل اللّه، وقد أنجز اللّه لهم وعده فورثوا مناطق الرسل الأربعة والعشرين، وسلموا مفاتيح صنعاء وفارس والشام ومصر وكل جنوب المتوسط، وبقي عليهم أن يعيدوا صياغة هذه الحضارات ضمن المنهجية القرآنية، كما أعادوا صياغة لسانها عربياً[1].

لقد اندمج العرب بلسانهم في هذه الأمم الحضارية، فأصبحوا منها وأصبحت منهم، فاستووا بفعلهم هذا على قاعدة عريضة هي خلاصة الحضارة الإنسانية بكلّ مقوماتها المادية والمعنوية وكان من جوهر هذه القاعدة أنها حافظت في إطارها الجغرافي في السياق التاريخي للبشرية من آدم حتى محمد، وحفلت بكلّ ما حملته تجارب الأنبياء واحتفظت بكلّ روائع الحضارة الإنسانية، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ البقرة/**143**.

وقوله تعالى: ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ ﴾ آل عمران/**110**.

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص401.

كان الله يدرك أقاصي القدرات التي أتاحها للعربي في هذا الدور العالمي وضمن تلك المراحل التاريخية، فاقتصر على تكليفهم على ذلك أي على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1].

والقرآن الكريم نزل مستهدفاً تغيير شخصية الإنسان العربي من الداخل ليتحول به من الذاتية الفردية القبلية القائمة على عقلية الكثرة والانحصار البيئي إلى الكونية الشاملة بامتدادها البشري والطبيعي وتعانقها بالله[2].

لقد كانت المهمة كبيرة جداً (كونية وعالمية) وقد دفع الله بالعرب ليخرجوا إلى الناس، وطبعاً فلا يمكن أن نتوقع أن يكونوا العماد الكلي لهذه التجربة الكبيرة، فهي تجربة إلهية تتجاوز حدود الزمان والمكان بالمعنى المحلي لتاريخ العرب، والعرب في اندفاعهم لذلك كان عليهم أن يحملوا بوعيهم المنهج الحضاري الكوني في القرآن، وأن يندمجوا في تلك الحضارات العريقة ويعيدوا منهجيتها بمنطق الاستيعاب والتجاوز لكافة المناهج الفعلية والأنساق الحضارية وأن ينطلقوا لتحقيق نهج السلام على مستوى العالم.

فالحضارة العربية الإسلامية التي عهدناها وعرفناه بحضارة الأميين استوعبت أهم مقومات العالم القديم الحضارية والثقافية: أصداء بابل بآشوريتها وسومريتها وكلدانيتها وآكادنيتها، أو ما بين بابل ومصر: حضارات الآراميين بكافة اشتقاقاتها وحضارات مصر، وما أخفت عليه الهلينية اليونانية في شواطئ مصر، وما تركته الحضارة الرومانية في شمال إفريقيا.

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة "العالمية الإسلامية الثانية"، ص 401.

[2] – المرجع السابق، ص 392.

لقد طرح القرآن أمام العربي مفهوم انتظام الوجود كلّه حول ناظم واحد وقيامه في وحدته على مطلق واحد وجعل الكثرة مظاهر لوحدة واحدة.. إله واحد أحد صمد، تدور حوله الأشياء، وتخضع له الظواهر الكونية، وهو الذي أعطاها معناها وصفاتها وحدود حكمته فيها.

وقد رأينا كيف أن الله «وقد جذب الذات العربية عبر الإنشاء القرآني إلى هذا المحتوى الجديد المكنون في القرآن» دفع بالإنسان العربي عبر دروس تطبيقية عدية في معارك التحويل نحو الإسلام ليدرك أعماق الكلمة القرآنية وحكمة الله في التدبير الكوني[1].

ولأول مرّة في تاريخ البشرية ليستوي التفاعل الحضاري على قاعدة إنسانية غير عرقية واعتبارها مزاج كافة العروق المعروفة آنذاك، فأنتج ذلك التفاعل مدارس فلسفية في غاية التعدد والتنوع وحفظ للعالم عبر عدّة قرون تراثه الفكري والفلسفي والأدبي الذي استجمعه شرقاً وغرباً.

والمهم في كل ذلك أنّ التدامج العرقي قد قفز بالعرب إلى خارج توهمات الصفاء العرقي العنصري، فالعرب يتدامج مع الآخرين نافياً ذاته، كما أن موقع الوسط الجغرافي جعله مستجمعاً في ذاكرته الحضارية والتراثية مجموع الحضارات العالمية.

فالله تعالى دفع بالإنسان العربي عبر دروس تطبيقية عديدة في معارك التحويل نحو الإسلام ليدرك أعماق الكلمة القرآنية وحكمة الله في التدبير الكوني.

تلك كانت المعاني القرآنية الرئيسية في بداية صنع التاريخ العربي وتركيز مقدّماته العالمية ليخرج العربي لا من صحراء الجزيرة إلى سهول العالم فحسب، لكن

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص392.

ليخرج أيضاً من فرديته إلى كونيته، ومن سطوح الفكر إلى أعماقها ومن ضيق الدّنيا إلى سعتها ومن ظواهر الموجودات والحركة إلى حقائقها، وأن يأتي هذا التحول خلافاً للطرق المباشرة التي أجراها الله في علاقاته مع الشعوب السابقة.

طوال ثلاثة وعشرين عاماً تم الإنجاز الضخم كما قدّره الله وبما يرضي رسوله ﷺ، وتمكّنت الشخصية العربية من العبور إلى الوعي الجديد مدفوعة بالقرآن ومدعومة بتجاربها التطبيقية في سلسلة المعارك والوقائع الأخرى.

كانت تلك المرحلة (مرحلة تحويلية) إنشائية وصياغية بالقرآن رفعت بالبعض إلى القمة في تدبر المنهج الإلهي الكوني، وكانت تلك الإنجازات هائلة، توقّف عليها المسير بأكمله، وهكذا جاءت علاقة العربي بالقرآن –كوعي مستمر مع البشرية للأمام وبقيت مستمرة حتى الآن وترنو بوجدانها لتحقيق هذا الحكم وهذه الرؤيا المنتظرة.

وكما قلنا سابقاً فقد رفع الله الأميين العرب إلى درجة الإسلام، ولم يكونوا إذ ذاك قد استكملوا مرتبة الإيمان، فحين وصفوا أنفسهم بالإيمان أنبأهم الله بأن صفتهم هي الإسلام، إسلام الأنبياء الذين كانوا أرفع مرتبة من نبي إسرائيل المؤمنين: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿14﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴿15﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿16﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿17﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ **الحجرات/14- 18**.

وفضلاً عن ذلك لم يطلب الله من المؤمنين اليهود أو غيرهم من الأقوام (الخروج) «والخروج مشقة وضنا وعذاب» من ديارهم جهاداً في سبيله، ولكنه طلب ذلك من العرب في الآن ذاته، يقاتلوا من يعمد لإخراجهم من ديارهم: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴿8﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ **الممتحنة/8-9**.

هكذا بالتحديد أعطى الإنسان العربي لهذه الحضارات بالمدى الذي استوعب به هو المنهج الذي يحمله على أكتافه، ولم يكن ذلك الاستيعاب ليخرج عن إمكانيات العربي الذاتية وظرفه التاريخي وتكوينه في مرحلة التحوّل القرآني، وهكذا فقد اقتحم هذا الإنسان المصاغ.

وبالتحديد فقد القيم الإسلامية، اقتحم المجال الحضاري العالمي بأقصى ما أعطته مرحلة التحوّل القرآني في ربع قرن من مزايا سلوكية جديدة، وهي بطبيعتها ليست مزايا منهجية كاملة، وإن أخذت عن ذلك المنهج «وعبر التدريب الإلهي الشاق» معاني السلوك وتجنّب الفردية والاستعلاء على الآخرين.

إنّ ربع قرن من التحول بالقرآن حمل العربي من أقصى مطلقه الفردي إلى جماعية وأخوة المؤمنين لم يكن الله يطلب منهم الوعي بكامل المنهج والتدريب عليه في فترة وجيزة لتحول ضخم، بل لخّص مهمتهم في الخروج إلى الناس لوضع حد بين أمرين واضحين: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وفي إطار (تؤمنون بالله)، هنا بالتحديد حكمة الاقتضاء الإلهي[1]، وبالتالي مثال على تلك التجربة القرآنية

---

[1] – محمد أبو القاسم: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص461.

وما فعلته وحولته، لنا أنموذجاً على ذلك في شخص "أويس القرآني" (الأواه المنيب) (العابد النائب) و"عمير بن سعد" الوالي على حمص.

المهم في الموضوع هو سير وكشف ذلك التفاعل الذي حدث في كنف الشخصية العربية التي استجابت للشعوب الأميّة الأخرى، وكما تفصح عنه سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴿2﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ **الجمعة/2-3**.

لقد أحكمت هذه القاعدة (الأميّة) بمنطق (التعارف) ﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ علاقة العرب بغيرهم، حتى كافور الإخشيدي حكم مصر، وأن بيبرس قاد الأمّة في مواجهة التتار وأن صلاح الدين يتصدّر للدفاع عنها في مواجهة الفرنجة وأن يوسف بن تاشفين تسلم قيادها في المغرب.

أضف إلى ذلك فهذه التركيبة فكّكت أيضاً دواعي التركّز حول الذات، فلم تتولد نزعة قومية كمحركة للفعل الحضاري، بل منحها بديلاً أهم وأخطر، ألا وهي معاني الإسلام الإنسانية السمحة، وأكثر قوة من الحراك بالذاتية والطبقية.

هذه بعض معاني الخروج القرآنية على النفس العربية، وطبعاً فالخروج يستصحب معه الدار، فهو بذلك يختلف عن الإخراج الذي هو فتنة لا تعدلها إلاّ فتنة الخروج عن الدين نفسه، فحين يخرج الإنسان عن داره، إنّما يخرج عن كلّ خصائصه: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴿8﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ **الممتحنة/8-9**.

فلنتأمل لنستعبر بمفهوم هذه الآية وما تضعه على كاهلنا من مسؤولية تجاه الفلسطيني الذي أخرج من داره ووطنه.

إنما هو المعنى الذي أعطى (للخروج) في تجربة الإنسان العربي، فالآية الكريمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ **آل عمران/110**، وترتبط بعالمية الخطاب الإسلامي: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ **الأعراف/158**.

لقد فهم الإسلاميون العالمية باعتبارها (نفياً للذات العربية)، و(نفياً لتعلقها بالحمى الأرضي)، وذلك بحكم الخروج والتوجّه للناس كافة، وظلّوا يؤكدون على أنّ الهدف (المثالي) الوحيد هو التعلق بالله وليس بالذات أو الحمى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ **الحجرات/13**.

فمفهوم الإسلاميين لهذه الآية يعني ذوبان الشخصية العربية وتلاشيها في الغير عالمياً، وهذا يقود إلى النفي والشتات، وليس إلى مفهوم الخروج الذي يقتضي التفاعل مع الغير (التعارف) من خلال الإبقاء على خصائص الذات.

وطبعاً فالخروج العربي الراهن يختلف عن الخروج الأول "الخروج في التجربة الإسلامية الأولى" هو خروج من خلال الشعوب وحقوق الشعوب والتعاون مع الشعوب، بصفته العربي المهاجر مواطناً في الشعوب به ما لهم وعليه ما عليهم، ويحمل قلبه وإيمانه وروحه وعقله ليضعها «بالإسلام وبالعروبة» في خدمة الشعوب، وفي الوقت

نفسه تكون الشعوب الإسلامية أعضاء في النادي العالمي وتكون مع نفسها كومونولث للشعوب الإسلامية "اتحاد" أو أي مظهر سياسي تعاوني آخر.

الفرع الثاني

ثواب استجابة العرب للنبأ العظيم

كان أساس التجربة مع الإيمان العربي التأكيد على الهيمنة الإلهية من وراء الحجاب، وهذا أسلوب مختلف نوعياً في العلاقة بين اللّه وتجارب الإيمان البشري السابقة فمحمدﷺ لم يحي الجسد الميت ولم يبرئ الأكمة والأبرص ولم تتحول عصاه إلى ثعبان ولم ينزل بإرادة اللّه المائدة من السماء.

لقد كانت المكافأة على ذلك أن ربط بين الرحمة الإلهية والحيز الإلهي، محيلاً بينهم وبين مصادر العذاب القاطع إذ كذبوا بالآيات وهذا الاندماج يأتي كمقدمة لأمر خطير هو أن الرسالة المحمدية لم تكن خاصة بالعرب، وإن كانوا الطليعة لأمم أخرى.

لقد عاملهم اللّه منذ البدء معاملة طليعة من الرسل، لذلك لم يكونوا خير أمّةٍ قابعة في مكانها، بل خير أمّة أخرجت للنّاس[1].

فالعربي «وهو مهيأ للخروج» فأعد إعداداً خاصاً على تجربة الإيمان ومن هنا جاء التركيز في القرآن على الدروس الإيمانية "التي استخلصت في ساحات القتال، فمن خلالها كان يتبين العربي وجود اللّه من وراء الحجاب، وكان يحس به قائداً ورامياً: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿17﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ **الأنفال/17- 18.**

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص375.

وبمقدار ما جاء الرسول محمد ﷺ في ختام تلك المرحلة المتقدمة ليغلق عليها، فقد جاء لافتتاح مرحلة جديدة في تاريخ البشرية أغلقت فيها معارج السماء حتى دون الكائنات غير المرئية: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً﴿7﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً﴿8﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً﴾ **الجن/7- 9**.

لم يطلب الله من المؤمنين اليهود أو غيرهم من الأقوام الخروج من ديارهم جهاداً في سبيله، ولكنه طلب ذلك من العرب حتى طلب منا أن نقاتل من يعمد لإخراجنا من ديارنا: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴿8﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ **المتحنة/8-9**.

لقد خرج العربي حاملاً القرآن إلى حوض الحضارات فلم يكن خروجه ذاتياً، بل كان محمولاً بقدرة الهيمنة تفوق قدراته الذاتية، كما كان يحمل كتاباً يفوق وعيه الذاتي، فعلاقة العربي ومنهجيته هي علاقة تبني وليس (توليد)، كما أن علاقته بالخروج هي دفع غيبي، وليس استعلاء ذاتي[1].

لقد تمّ الإسراء لاستكمال ختم النبوة وتعميد بيعة الأنبياء والرسل لخاتم النبيين بعد أن كانوا قد عاهدوا الله على إنجاز رسالاتهم (الحصرية) في أقوامهم كمقدمة لرسالته العالمية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ

[1] – محمد أبو القاسم حاج محمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة "العالمية الإسلامية الثانية"، ص460.

جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ آل عمران/ **81**.

لقد حمل العرب حكمة الله فحُملوا بفعل الله ولقد أنجز الله لهم وعده فورثوا مناطق الرسل الأربعة والعشرين وسلموا مفاتيح صنعاء وفارس والشام ومصر وكل جنوب المتوسط، وبقي عليهم بعد ذلك أن يعيدوا صناعة هذه الحضارات وتوجز السمات الرئيسية في التجربة المحمدية: عالمية الخطاب، حاكمية للكتاب، شرعة التحقيق والرحمة لا الأصر والأغلال.

وكما قلنا سابقاً، فكانت المكافأة للعربي على كلّ ذلك أن طبق عليه منهج التخفيف والرحمة القرآني بدلاً من منهج الإصرار والأغلال الذي كان مطبقاً على نبي إسرائيل، مقابل هذه المسؤولية الشاقّة الملقاة على عاتق العربي ومكافأة له على تحمل ذلك الخروج.

الفرع الثالث

الأمّة العربية بصفتها نواة العالمية الإسلامية

لعل أغلب المنظومات أو الإنسان تتألف من عدّة عناصر يحتل أحدها دوراً أساسياً فاعلاً يمثل العروة الوثقى أو حلقة اللباب.

وهذا ما لعبته الأمّة العربية في العالمية الإسلامية الأولى، وما ستلعبه في فاعلية ومنظومة العالمية الإسلامية الثانية.

وهذه الأهمية ترجع إلى عدّة أسباب، أهمها موقع الوسط الجغرافي الذي تتموضع منه وتستوي عليه بالإضافة إلى اللغة التي تنطق بها وتفصح عن مكنوناتها.

كما سيتضح لنا من الأبحاث الآتية:

المطلب الأول:

الموقع الجغرافي الجيواجتماعي والجيوبولتيكي الذي تتموضع فيه الأمّة العربية

يميز علماء الجغرافيا عنصر الموضع من عنصر الموقع الذي يتبوؤه المكان، فهذا العنصر الأخير يتحدد تبسيطاً دوره يحمله الصلات التي تربطه بالعناصر الجغرافية الأخرى لا سيما المجاورة، ولنا مثل واضح في موقع مملكة تدمر، أو الأنباط أو اليمن...إلخ.

ولعل هذا الموقع الجغرافي «إضافة إلى الحيوية الحضارية» هو السبب الذي حملت لأجله الأمّة العربية رسالة النبأ العظيم، ثمّ تموضعت في أحشاء هذه العالمية

الممتدة من جنوب الصين إلى جنوب أوروبا فالوجود العربي قائم جغرافياً في هذه البقعة المحددة ما بين القارات القديمة أمّة وسطاً ليمارس مسؤوليته العالمية في حقّ الناس.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ البقرة/**143**، أي ليمارس العرب مسؤوليتهم في حقّ النّاس وليكونوا شهداء على النّاس ويمارس الرسول أيضاً مسؤوليته[1].

هكذا يتوفى الرسول عند اكتمال دعوته للعرب بالذات ودخولهم الإسلام، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ المائدة/**3**.

وبذلك اكتملت مسؤولية الذكر: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ الزخرف/**44**.

ثمّ تأتي الرسالة للنّاس غير العرب عبر النّاس الذين استووا فيما بعد على حوض الحضارات القديمة لتحقق عالميتها[2].

فالأمّة الوسط حاضنة جغرافياً وحضارياً وتاريخياً لما توسط العالم بين القارات الثلاث (آسيا وإفريقيا وأوروبا)، حيث استوى العربي على سطح حضارات كانت في الأصل منه وله، من بابل في العراق وإلى قرطاجة في شمال إفريقيا، فوحدها

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص285.

[2] – المرجع السابق، ص284.

بلسان ليس بالأساس غريباً عنها، استعادها واسترجعها إلى رؤية دينية كانت تتفاعل بحيثيات مختلطة في تركيبها الحضاري، فتكونت بذلك الأمة العربية وما يسميه القرآن الأمة الوسط[1].

المطلب الثاني:

مفهوم الأمة الوسط

ويتابع الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد قوله: ((غير أن الاختلاف يظل كما قلنا كامناً في أصول المنهج المعرفي للدلالات، فالأمة العربية تعني استرجاع الذات، والأمة الوسط تعني استرجاع الشهادة على الناس والتفاعل معهم ضمن بعد عالمي، ومن هنا يستحوذ مفهوم (الدار) الذي يعني خصائص القاطنين على مفهوم (الأمة الوسط) المرتبة بذات الخصائص، أي الشهادة على الناس، فإن لم تكن ثمة شهادة على الناس ينتفي مفهوم الأمّة نفسه.

لقد أدّى (الخروج) إلى تكوين (الأمة الوسط) ولكن بمنطق (الديار)، فكيف يمكن أن يوجد (الرابط المركزي) الذي يشدّ الديار والأمّة الوسط؟)).

الرابط هو (القبلة) وتعزيز مكانة (مكة) كقاعدة مركزية جاذبة للأمة الوسط والديار، فكما بوأ الله للأمة الوسط من بعد الخروج، جعل قبلتها مكة، ولهذا ربطت سورة البقرة السابقة/143/بين الأمّة الوسط والقبلة، ثمّ تحدّد الأمر بوضوح في آية لاحقة: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص 479.

﴿أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ البقرة/**143 – 144**.

المعنى الأخطر ومكة جاذبة لشخصية الإنسان العربي في مختلف دياره وحيثما تموضع في الموقع الوسط وفي الأمّة الوسط، فمفهوم (المركز) من تكوين الشخصية العربية يتحول إليها بالذات، فما يصيب مكّة يصيب الشخصية العربية في جذر تكوينها، وما يصيب خارج مكّة فيتعلق بالديار مثل ما أصاب الديار الفلسطينية، فهي لم تعن الكثير بالنسبة للإنسان العربي ومفهومه عن (حمى الديار)، ومفهومه عن (القبلة)، فالقدس ليست قبلته وإنما (البيت الحرام)، والديار الفلسطينية ليست دياره وإنّما هي ديار الفلسطينيين، فالمعركة ضد الإسرائيليين لم تتسع لكلّ الديار العربية، لهذا اتخذت المواجهة العربية ضد إسرائيل معنى (التضامن) مع الفلسطينيين ولم تتخذ معنى (المواجهة المصيرية) فالمفهومان (الدار)، و(القبلة) كانا يحولان دون الحشد (القومي المركز) في المعركة ضد إسرائيل[1].

فمفهوم الدار يرتبط بداية بمنطق (التأليف القبلي)، فاللّه سبحانه وتعالى لم يجعل (الخروج) مرتبطاً بوحدة قومية، وإنما جعله مرتبطاً (بالتأليف) بين قبائل عربية يصعب تنازلها عن مطلقها الذاتي وعن فرديتها :﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الأنفال/**63**.

بدورنا نخالف هذا الرأي، فالعرب إبان ظهور الإسلام لم يكونوا شتات قبائل ولعلّ معركة ذي قار أكبر مثل على ذلك، وزيادة في الأمر فقد كان العربي له شعوره الذاتي الخاص بأنّه غير الأعجمي، بقول الشاعر لغيط بن يعمر: ((يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً على نسائكم كيسرى وما جميعاً)).

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص 480.

وقول عنترة بن شداد يصف ناقته:

شـــربت بمـــاء الدُّحْرُضَـــيْنِ فأصـــبحت | زوراء تنفـــر مـــن حيـــاض الـــديلم

فناقته لا تستطيع الشرب من حياض الديلم، بل من حياض الدّحْرُضَيْنِ في أرض العرب ومن ذلك الأحلاف، وحلف الفضول مثل جلي على ذلك، فقد تحالفت هاشم وزهرة، وتيم لرفع الظلم عن كل مظلوم[1].

والأمة لا تنشأ دفعة واحدة بفعل فاعل، بل هي وليدة التطور البطيء والأحداث المتنوعة والظروف المتعددة، ويأتي عامل ليسرع الولادة ويقوي النمو والنشوء «تبسيطاً للأمر» حيث لا يتاع لنا تجليه هذا الموضوع فمكة مثلاً لم تكن قبيلة، بل مدينة دولة "كالمدينة الدولة في اليونان" والأمر نفسه نسجه على المناذرة والغساسنة ودولة تدمر والأنباط ودول اليمن...إلخ[2].

فهؤلاء ارتقوا إلى ظاهرة الشعوب ولم يبقوا في طور القبيلة، ثمّ جاء الإسلام ليكمل التكوين ويرفع البناء على مستوى الأمّة.

والخلاصة فالمعركة على أرض فلسطين معركة قومية بكلّ ما تعنيه هذه الكلمة وإلاّ كيف نفسر زج هذه الأمّة بهذا الأتون طيلة هذه الفترة المديدة.

وهذا من جانب فلسفي آخر يعني تنزل الغيب على جدل الواقع، فالواقع قبلي فردي لا يعطي في تحقيق المنال أكثر من (التأليف) لهذا لا تستطيع الشخصية العربية أن تمضي لأبعد من مفهوم (الدار) كمحور لذاتها، فما يخرج عن نطاق

---

[1] – ظافر القاسم: نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، بيروت، دار النفائس،1974، ص20.

[2] – د. عصمت سيف الدولة: عن العروبة والإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، سنة، ط2، ص53.

دارها لا يغنيها إلاّ بشكل (تضامني) لا يكون موضوعاً لانفجار (الحمية) مهما تعلق الأمر بالعروبة أو الإسلام، فكافة ما كان من مواجهات قومية أو إسلامية في الديار الفلسطينية اتخذت فقط طابع (التضامن)، ومهما كان تبريرنا لتلك المواقف السلبية بوجود مؤتمرات، كالأسلحة الفاسدة أو (ماكو أوامر) أو بيع سفن الأسلحة في عرض المتوسط قبل وصولها للمقاتلين، إلاّ أنّ أساساً في داخل تكويننا «أي مفهوم الدار» كان يحول دون التغلب حتى على تلك المؤامرات[1].

هذا ولنا على القول السابق الملاحظات الآتية:

1- تميزت العصور الحديثة بتضحيات الكثير من الشعوب واستوائها واستقلالها، وراح المفكرون وعلماء الاجتماع يقعون الشروط في تكوين الأمة، ولكنهم أمسكوا عن الكلام على غاية الأمة وأهدافها، فذلك يختلف من أمة لأخرى حسب صيغة تكوينها وإذا كانت القبائل العربية خرجت وكونت الأمة الوسط والدار لا الوطن، وحسب قول "الأستاذ حاج حمد"، فكم بالأحرى لها أن تقوم «وهي حالة متقدمة على القبائل» بذلك لا أن ترتد على الذات.

2- وصف "فنتور" مكة بأنها المدينة الدولة التي تشبه المدينة لدى اليونان[2]، والواقع «وكما ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب» أن أقساماً من الأمة العربية كانت قد ارتقت إلى طور الشعب بشهادة القرآن نفسه، كما نجده في حال المناذرة الغساسنة وشعب الأنباط وشعب تدمر وشعوب اليمن، وبعضها الآخر بقي في الحال القبلي، ونجد أن الحال الأولى (الشعوب) كانت دعامة للإسلام، كما هو موقف المدن الثلاث: مكة والمدينة والطائف، فهذه المدن هي التي حافظت على إسلامها، ولم ترتد في زمن الخليفة أبي بكر.

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص479 و480 و481.

[2] – د. برهان زريق: الصحيفة والميثاق، دستور دولة المدينة، أول دستور لحقوق الإنسان، دمشق، دار معد، دار النمير، 1996، ص512.

والخلاصة لا يصح إطلاق وصف الحالة القبلية على الأمة العربية، بل فهذه الأمّة سارت أشواطاً بعيدة بطريق التقدم وتكوين شعور الأمّة.

3- لماذا لا نتكلم على حال الفرد حتى في القبيلة ونضجه واستوائه قومياً كأبي ذر وعنترة وزهير بن أبيّ سلمى وغيرهم.

4- إذا حملت الأمّة العربية «وهي كذلك» رسالة العالمية الإسلامية الثانية، فهي تستطيع أداء المهمة أكثر من كونها مجموعة في قبائل، وبالتالي فالغاية الكبيرة تحتاج إلى أداة أهم، وفي حالتنا المطروحة، فالعالمية الثانية تحتاج إلى أمّة، أي إلى أداة تتقدم على حال الشعب.

5- إن المثل المضروب في حال فلسطين ليس صحيحاً فالشعب العربي في كافة أرجاء الأمّة تعامل مع هذا الحال باعتباره جزءاً لا يتجزأ من الأمّة العربية، وإذا كان هنالك تقصير فذلك من الحكام ونحن رأينا بأم أعيننا تدافع الشعب العربي عام 1948 للذود عن فلسطين، والمسألة ليست مسألة تضامن مع الشعب الفلسطيني وإنّما الذود والذب عن أمة عربية في فلسطين.

ولنا أن نتساءل ما الذي دفع عبد الناصر لتحمل مسؤولية حرب 1967 أهو التضامن أم منطق الأمّة؟؟.

الفرع الرابع

تكوين الأمّة العربية

منظور إليه من زاوية قواه الفاعلة

الإسلام ليس مجرد دين، فهو باليقين ليس دين أيّة أسرة أو أيّة عشيرة أو أيّة قبيلة أو أي شعب أو أيّة أمّة.

وهذه السمة الخاصة بالإسلام هي التي أنشأت بينه وبين الأمّة العربية علاقة خاصة لا مثيل لها بين أيّة أمّة[1].

بهذه الدلالة كانت الأغلبية الساحقة من الشعب العربي وما يزالون وسيبقون جزءاً لا يتجزأ من الأمّة الإسلامية التي ينتمي إليها كلّ المسلمين في الأرض بصرف النظر عن أجناسهم وأوانهم ولغاتهم وأممهم ودولهم وأوطانهم لا فضل لأحد منهم على الآخر إلاّ بالتقوى[2].

هكذا كانت الأمّة العربية ثمرة تفاعل الإسلام، مع شعوب الأمّة العربية، وتفاعلها فيما بينها في ظلّ الإسلام، تفاعلاً انتهى إلى أن تكون شعباً عربياً واحداً بدلاً من شعوب متفرقة، ووطناً عربياً واحداً بدلاً من أقاليم متناثرة.

---

[1] - د. عصمت سيف الدولة: عن العروبة والإسلام، ص52.

[2] - المرجع السابق، ص34.

وما كان هذا ليحدث لولا التقاء أمرين في مرحلة تاريخية واحدة، الإسلام كثورة حضارية قادرة على التطوير والخلق.

الشعوب التي لم تكتمل أمماً، ولم يكن أي الأمرين بمفرده بقادر على أن يخلق الأمّة العربية، وهكذا أسهم الإسلام في تكوين الأمّة العربية، ولكنها عندما تكونت وجوداً ذا خصائص متميزة عن العناصر التي التحمت مع تكوينها، فهي أمّة عربية وليست جماعة مسلمة من ناحية، وهي أمّة عربية، وليست امتداداً ثانياً لأي شعب من الشعوب التي كانت من قبل[1].

وهكذا فنحن نواجه العنصرين السابقين: عنصر العروبة وعنصر الإسلام عند التعامل مع الأمّة العربية، والقول بغير ذلك يعني ابتار هذه الأمّة واختزالها إلى غير حقيقتها ومكوناتها.

وفضلاً عن ذلك، فأي عنصر في منظومة يجب أن يأخذ موقعه في هذه الأمّة المنظومة ترتيباً وتنسيقاً وأهمية ودوراً وموقعاً، دون أية زيادة أو نقصان، وإلا أوقعنا الخلل تكويناً في المنظومة، بما يترتب على ذلك من نتائج وآثار.

وبالفعل فقد نشأت الثقافة العربية على أيدي هاتين الفعاليتين، فبرزت الدراسات الإسلامية متمثلة في القراءات والتفسير والحديث والمغازي والفقه، كما ظهرت الدراسات العربية في اللغة والأخبار والأنساب إضافة إلى الشعر[2].

يروي البلاذري أن هشام بن عبد الملك سأل رجلاً عن أخواله بني مخزوم: ((يا خال أتقرأ كتاب الله؟؟، قال: اقرأ منه ما أقيم به صلاتي، قال: أفتروي من الآثار

[1] - د. عصمت سيف الدولة: عن العروبة والإسلام، ص72.

[2] - د. عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية دراسة في الهوية والوعي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1984، ص84.

شيئاً، قال: لا، قال: أفتعرف من أحاديث العرب وأشعارها وأيامها ما يعرفه مثلك؟، قال: لا، قال: أتنسب قريشاً وسائر بني نزار؟، قال: أحسن من النسب شيئاً، قال: يا غلام، فليس من خالنا حشمة))[1].

وينتهي "د. الدوري" حديثه عن تكوين الثقافة العربية الإسلامية فيقول: ((ويلاحظ أن فترات التحكم الأجنبي وركود الثقافة أربكت الوعي وحدث من توثبه، ولكن مقوماته ظلت في الإرث الثقافي لتظهر من جديد في حركة النهضة في العصر الحديث...لقد بقيت العربية قاعدة للعروبة وبقي الإرث الثقافي قاعدة مشتركة، وهو يحوي فكرة الأمّة بمفهومها الثقافي ويربط العروبة بالإسلام، ومن هذه الجذور وفي نطاق تحديات داخلية وأفكار خارجية ظهر الوعي الحديث ليتجه من العروبة بمفهوم ثقافي اجتماعي إلى العروبة بمفهوم سياسي قومي))[2] .

إذاً حدث الإرباك والبلبلة وحدث التحول في المضمون الثقافي للعروبة والاتجاه إلى المفهوم السياسي القومي بدلاً من المفهوم الثقافي الاجتماعي، والمفروض بالوعي القويم العودة بالثقافة إلى وضعها الذي نشأت فيه على أيدي أمناء الأمّة وروادها أسلافنا وآبائنا الذين صاغوا هذه الثقافة في حال الصحو والنقاء لا في حال البلبلة والإرباك، وليس عجباً أن يجري عالم الاجتماع الكبير "د. محمد ذوادي" مقارنة بين اللغة العربية والدين الإسلامي في المستعمر الفرنسي في الجزائر، فيسجل تفوق الدين الإسلامي على اللغة العربية.

ولسنا هنا حيال ترجيح إحدى الفعاليتين على الأخرى، ومن ثمّ القول بأن فعالية الدين أهم من فعالية اللغة والعكس، فكلتا الفعاليتين هامة ومن النظام العام حسب مضمون الفقه الدستوري، ولا يجوز إسقاطها أو الاستهانة أو ابتسارها أو

---

[1] – د. عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية دراسة في الهوية والوعي، ص84.

[2] – المرجع السابق، ص120.

التنازل عنها أو إهمالها أو تجميدها، وإنما يجب أن تلعب دورها الدستوري حسب واقع الأمر وظروفه.

وكي لا تدخل في تناقض مع "حكم القيمة" ويعزي النبأ أننا نصطف مع أو ضد هذا الفاعل أو ذاك (العربي أو الديني) فلنتخلى عن أحداث عصرنا الحالي، ولنولِ وجهنا شطر وجهة العصر الوسيط، فسنرى أن ردود فعلنا تجاه الخارج إما أن يكون عربياً أو إسلامياً أو مختلطاً أي عربياً إسلامياً.

هكذا يدرس الدكتور محمد جابر الأنصاري هذه الظاهرة ليخلص إلى نتيجة مفادها: ((أن البيئات السلفية إذا كانت قد قاومت التيارات الحضارية الوافدة، فقد مثلت في الوقت نفسه القوة الأساسية في الإسلام لمقاومة الغزو الأجنبي، ويكاد يكون قانوناً عاماً في تاريخ الإسلام ازدهار السلفية في أزمان الغزو الأجنبي، وما ينشأ عنه أو ما يمهد له من تفكك داخلي، حيث يتطلب الوقف التاريخي جمود السلفية وحسمها))[1].

ولقد ضرب الدكتور الأنصاري أمثلة على ذلك في تعرض بيئة الأندلس لغزو الإسبان من ناحية، وتعرضها لاجتياح المرابطين والموحدين من ناحية أخرى، ومثلها بيئة الشام بين الغزو الصليبي والرد السلجوقي –الأيوبي ثمّ المملوكي- رداً على المغولي[2].

ويتابع الدكتور الأنصاري حديثه، فيقول: ((لقد انفسح الطريق أمام السلفية لتتولى الرد التاريخي، «انهى صلاح الدين السلطة الفاطمية وقمع الباطنية قبل

---

[1] – د. محمد جابر الأنصاري: الفكر العربي وصراع الأضداد، المؤسسة العربي للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1999، ص35، ونحن بدورنا هكذا نفسر بروز تيار "حماس" كرد قوي على البربرية الصهيونية.

[2] – المرجع السابق، ص37.

مواجهة الصليبية» لأن السلفية حققت الانتصار على العدو في ميدان القتال، فقد بسطت سيادتها أيضاً في ميدان الفكر والحياة))[1] .

ومع تفكك الدولة العثمانية، وتصاعد حركة التحدي الأوربي، بدأت ردة الفعل أولاً من جانب البيئات السلفية، فظهرت حركة الشيخ محمد عبد الوهاب في الجزيرة العربية/منذ سنة 1744/، ثمّ تلتها حركة عبد القادر الجزائري/1832- 1847م/، ثم الحركة المهدية التي وقعت ضد الاستعمار البريطاني في السودان، ثمّ الحركة السنوسية في ليبيا .

ويرى "د . الدوري" أن تقلص السلطان العربي منذ سيطرة الجند التركي، ثمّ بعد أن ضرب هذا السلطان بالغزو البويهي، ثمّ السلجوقي، إذ أدى ذلك إلى إبعاد العرب عن السلطة، مما أدى إلى توسيع القاعدة الشعبية، وكان لذلك أثره، إذ تمثل الوعي في حركات شعبية، ضد الأجانب المتحكمين (وهم مسلمون)[2] .

وليست مهمتنا هنا، تسجيل ردود الفعل الخشنة من أمتنا على المؤثرات الخارجية وحسبنا القول إن كينونة أمتنا تقوم على فاعلين، الفاعل العربي والفاعل الإسلامي، وإن رفع أي من الفاعلين هو رفع الأمّة وتعلية وجودها ودورها .

---

[1] – د . محمد جابر الأنصاري: الفكر العربي وصراع الأضداد،، ص45.

[2] – د . عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية، ص115 .

الفصل الثاني

العالمية الإسلامية الأولى

وسنبحث في هذه العالمية الجوانب الآتية:

- لماذا اختار الله العرب لتبليغ رسالة النبأ العظيم.
- سمات وخصائص هذه العالمية.
- سقوطها.

وسنعالج الأبحاث السابقة تباعاً وكما يلي:

لماذا اختار الله العرب

لتبليغ رسالة النبأ العظيم

وبالطبع فهذه الأمّة التي وصفت بأنّها تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر هي الأمّة العربية لسبب بسيط هو أنها استجابت للرسالة، لكن ما هو وضع هذه الأمّة قبل الاستجابة؟.

لدينا في ذلك رأيان الأول يشدد على وجهة النظر المكانية المدللة بأن الله اختار الأمّة العرب لأنها كانت تتموضع في وسط أمم عالم الحضارات القديم، الأمر الذي هيأ لها القيام بعملية الاتصال ببقية الشعوب، والاحتكاك بهم وتبليغهم الدعوة.

والرأي الثاني يدلل بأن الأمة كانت لا تزال تتحلى بسلامة الفطرة وصفائها ونصاعتها ونقائها وبعدها عن الأوشاب والشوائب.

وسنعرض للرأيين السابقين كما ندلي بوجهة نظرنا الخاصة في الموضوع.

الفرع الأول

الأمّة الوسط

يقول الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد: ((ليس هنالك مصادفة جغرافية في وجود مجتمع بشري ما هنا وعدم وجوده في مكان آخر))، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ البقرة/**143**.

فالوجود العربي قائم جغرافياً في هذه البقعة المحددة ما بين القارات القديمة: أمة وسطا ليمارس مسؤولية العالمية في حقّ الناس: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾ وليمارس مسؤوليته تجاههم[1]، وهكذا يتوفى الرسول لدى اكتمال دعوته للعرب بالذات ودخولهم الإسلام: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ المائدة/**3**.

وبذلك اكتملت مسؤوليته: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ الزخرف/**44**، ويتابع الأستاذ حاج حمد قوله: ((لقد حدد القرآن الكريم مركزية التفاعل العربي مع الغير انطلاقاً في الوسط من العالم القديم، فالخصائص يحدده «الأميون» والمسؤولية محددة «عرب» والمركز محدد «الوسط»))[2].

---

[1] – كتابه جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص284.

[2] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص348.

ومرة ثانية يؤكد "حاج حمد" رأيه السابق فيقول: ((هذه الأمّة التي تربعت في موقع الوسط من العالم، فتفاعلت حضارياً وفلسفياً مع الانجازات والموروثات البشرية على امتداد ما بين المحيطين الأطلسي غرباً والهادي شرقاً، وباتجاه إفريقيا من العالم الجغرافي والبشري (القديم) فاستوعبت حضاراتها الذاتية المتفاعلة معها، ومن قبل الفتح الإسلامي، فأصبحت بالفعل أمّة الأمم وقومية القوميات المنبسطة على حوض الحضارات التاريخية.

وباستيعاب ذلك ورثت إشراقية فارس وفلسفة الهيلينية الإغريقية، فليس من أمّة مؤهلة موضوعياً بحكم تركيبتها لإعطاء العولمة بعداً إنسانياً كأمة الوسط هذه))[1].

لقد جعل اللّه من الأمّة الوسط في الموقع الوسط من العالم القديم والذي يربط بين قارات آسيا وأوروبا وإفريقيا، قاعدة للانتشار الإسلامي العالمي في مرحلتيه، الأولى (الأمية) والثانية (الظهور الكلي للدين والعالمية الشاملة)، وحمل العرب دون غيرهم المسؤولية، وكانت المراكز الإسلامية التي تلي العرب (تركية عثمانية) أو (فارسية صفوية) عاجزة عن أداء هذا الدور وتحمل مسؤولية الذكر، سواء أكان ذلك من مرحلة العالمية الإسلامية أو الثانية.

وإذا كانت الخلافة الإسلامية خرجت من أيدي المكان والزمان العربي، لتصبح في أيدي الأتراك العثمانيين الذين لبوا حماية هذه الأمّة الوسط بوجه التطويق الأوروبي من بعد سقوط الأندلس، لكنهم لم يمارسوا دور الأمّة الوسط، المسؤولة عن الذكر والشهيدة على الناس، فذلك الدور ليس من خصائصهم[2].

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: أبستمولوجيا المعرفة الكونية، إسلامية المعرفة والمنهج، بيروت، دار الهادي، ط1، 2004، ص116.

[2] – المرجع السابق، ص508.

لم يكن الاتساع الجغرافي الذي وجدت فيه القبائل العربية حال الخروج عبثاً، ولم يكن استمرار وجود هذه الأمّة رغماً عن التحدي التاريخي والحضاري الهائل عبثاً، ولم تكن سيطرة هذه الأمّة بحكم موقعها على مداخل العالم التقليدية ومخارجه بين أوروبا وآسيا وإفريقيا عبثاً، ولم يكن توحد الحضارات العريقة باللسان العربي عبثاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴿38﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الدخان/**38-39**.

ولكن ما يجب طرحه هو: هل هنالك أصرة أو علاقة بين الانتشار الإسلامي وبين العنصر الجغرافي؟؟.

يجيب عن ذلك الدكتور رضوان السيد «رداً على الباحثة الإيطالية بيانكا أموريني» قائلاً: ((إنّ الباحثة المذكورة أفضى بها التسرع إلى بعض النقائض، وذلك حين تبحث الجغرافيا باعتبارها جزءاً من خصوصية الإسلام، والإسلام إن توقف عند حدود جغرافية معينة فلأن إطلاقات البشرية المحدودة للجماعة التي حملته حصرته «ولم تحاصره» في البقاع الأكثر اعتدالاً، وإلاّ كيف نفسر انتشاره وتوسعه في بقاع حارة الطقس))[1].

ويمكننا التأكيد «مع الدكتور رضوان السيد» أن طاقة الحامل البشري المحدودة، لم تمكن الإسلام من الانتشار خارج هذه الحدود الجغرافية خلافاً لرأي الباحثة الإيطالية الذي أرجعت ذلك إلى العامل الإيديولوجي الخاص بالإسلام الذي يحكمه العنصر الجغرافي، ولقد أورد الدكتور رضوان نصوصاً صادرة عن "الدكتور جمال حمدان" تؤيد رأيه، قال الدكتور حمدان: ((يترامى الإسلام حتى خط الاستواء عبر بيئات شديدة التفاوت، من الغابة الاستوائية، ومن المدارية ومن السافانا الإفريقية إلى

---

[1] – د. رضوان السيد: قضايا الإسلام المعاصر والمستقبل، صحيفة الخليج، الشارقة، عدد 2444، تاريخ 1985/12/27.

قبائل الاستبس الأسيوي، ومن أدغال الهند إلى الغلو الإفريقي، فهو إذاً يتوزع في المناطق الحارّة والمعتدلة والباردة على السواء، كما ينتشر في الصحراء الجافة والأعشاب المغيرة والغابات الكثيفة، وبالمثل نجد الإسلام البحري على السواحل كما نجده في صميم الغابات)).

وفي رأي "الأستاذ حاج حمد" أن الباحثين السابقين "د. رضوان السيد وجمال حمدان" كانا قد وفرا جهداً كبيراً لو اكتفيا بمعيار الأميين ذلك المعيار الذي اعتمده "الأستاذ حاج حمد" مع أن معيار التحقق المستمر للإسلام «الذي تؤيده» هو المعيار الأكبر، فهو المبدأ العام في الإسلام، وهو معيار معراجي ارتقائي إرادي اقتحامي صاعد، وتقصد بذلك مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ البلد/**11**، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴿10﴾ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ الواقعة/**10-11**، وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران/**133**.

وقالﷺ: «إِنّ اللّهَ تَعَالَى، يُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ وَأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا».

ففي جوف هذه الأمّة –وبفعل مبدأ الأمر بالمعروف يكمن السومريون والبابليون والآشوريون والآراميون والكنعانيون والإدوميون[1] وبقايا ثمود وتدمر والأنباط والفراعنة والقرطاجيون والسبئيون والمعينيون والحميريون وقتبان وحضرموت وأوسان رجوعاً إلى عاد وثمود وحتى إلى فلك نوح.

فالأمّة الوسط حاضنة جغرافياً وحضارياً وتاريخياً لما توسّط العالم بين القارات الثلاث (آسيا واوروبا وإفريقيا) حيث استوى العربي على سطح حضارات

1 –الإدوميين هم قبائل بدوية كانت تقطن في صحراء النقب وجزء من الأردن منطقة جنوب البحر الميت تحديداً وقد اقاموا مملكة عرفت باسم إدوم ترجع الى القرن ال20 ق.م.

كانت في الأصل منه وله، من بابل في العراق وإلى قرطاجة في شمال إفريقيا، حيث وحدها بلسان ليس بالأساس غريباً عنها، استعادها أو استرجعها إلى رؤية دينية كانت تتفاعل بحيثيات مختلفة في تركيبها الحضاري، فتكونت بذلك ما يسميه القوميون: (الأمّة العربية) وما يسميه القرآن (الأمّة الوسط) غير أن الاختلاف يظلّ كما قلنا كامناً في أصول المنهج المعرفي للدلالات، فالأمة العربية تعني استرجاع الذات، والأمّة تعني استرجاع الشهادة على الناس والتفاعل معهم ضمن بعد عالمي[1].

كانت مهمة "محمد" متسعة جداً ولا يكاد يطيقها أحد غيره مستعيناً بالله، وقد جاءت قوة الإعداد هذه بحكم الدور الكبير الذي حمّله الله للعرب، فكادوا أن ينشأ تنشئة الأنبياء ليكونوا بحق جيشاً من المرسلين قادراً على أن يأتي البشرية بحكمة الله الكونية وليس بمجرد الفروض من عبادات ومعاملات.

كان التدريب الروحي شاقاً إلى حدود كبيرة وكان على "محمد" أن يضع لبناته الأولى لتنطلق به التجربة بأسرها فيما بعد.

إن نظرة وضعية للفارق بين الوعي المفهومي الجديد الذي طرحه "محمد" على العرب وتركيب العرب العقلي ضمن حالة التعدد الإحيائي توضح لنا إلى أي مدى كانت المهمة شاقة وصعبة بل ومستحيلة دون تدخل الله الغيبي.

فقد كان على امّة من الرعاة أن تصبح سيّدة الحكمة في عصرها وأن تحمل الحكمة وتمدّها إلى عصور قادمة وأن تنفذ إلى جوهر الحقائق في الأشياء، كان القرآن كقول إلهي والعرب كفعل إلهي هما في وحدتهما هدف الجهد المحمدي، كان التحول نفسه فعلاً إلهياً غيبياً كاملاً تماماً كمثاله في المعارك التي شخصنا أوضاعها، فمهمة كتلك لم يكن بمقدور البشر إنجازها على أي نحو كان لولا تدخل الله

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص479.

القطعي[1]، ونحن بدورنا نشجب هذا الوصف، لم يكن أبو بكر أو عمر أو عثمان أو علي...إلخ راعياً، بل كانوا محاور ودعائم قوية في مكّة الدينية كما وصفها Venture.

ويبدو أن فكرة "الوسط" هذه تحتل موقعاً مركزياً في المنظومة الفكرية للأخ الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد بدليل اعتمادها مرة ثانية في كتابه "أبستمولوجيا المعرفة الكونية إسلامية المعرفة والمنهج[2].

فقد احتلت هذه الصفحات من هذا الكتاب تحت عنوان الفطرة الإلهية وتكوين الأمّة الوسط، وقد جاء فيه: "كانت مهمة الرسول والنبيﷺ أن يؤسس قاعدة الدعوة المكانية والبشرية"، فيما يعادل المصطلح اللاتيني (الجغرافيا والديموغرافية)، وقد حدد الله هذه القاعدة بنصوص قرآنية واضحة، منها: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴿2﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ **الجمعة/2-3**.

وكذلك: ﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ **الأنعام/92**، وكذلك: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ **الزخرف/44**.

وانتهاء بتأسيس "الإطار الكلي" البشري والمكاني المحدد بالأمّة الوسط. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص381.

[2] – محمد أبو القاسم حاج حمد: أبستمولوجيا المعرفة الكونية، إسلامية المعرفة والمنهج، ص314 وما بعدها.

جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿143﴾قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ البقرة/**143 – 144**.

ونأتي الآن إلى "تحليل" هذه الآيات "بتفكيك" مضمونها منهجياً ومعرفياً ثمّ "تركيبها"، ففي آيات (الجمعة) يبعث اللّه سبحانه وتعالى النبي والرسول الخاتم ﷺ في "الأميين" وهم في دراساتنا "غير الكتابيين" وليس "غير الكاتبين" علماً بأنّ النبي لا يخط بيمينه وليس تابعاً لكتاب سماوي من قبل، فجمع بين الحالين "غير كتابي بوصفه أمياً" و"غير كاتب" بوصفه لا يخط بيمينه، ولو كانت "الأمية" تعني الذي لا يخطّ بيمينه كما هو دارج في الكلام العربي السائد لاكتفى اللّه في النص القرآني بمفردة "أمّي" فقط: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ العنكبوت/**48**.

وبما أنّ الأميين هم على "الإطلاق" غير الكتابيين، وينتشرون في كلّ العالم، تم "التحديد" وحصرهم في سورة الأنعام بمكة ومن حولها (أم القرى)، ثمّ حمل اللّه هؤلاء بالذات المسؤولية عن الذكر في سورة الزخرف ودفع بهم لتأسيس "الأمّة الوسط" في سورة "البقرة" بنصرته للنبي في كافة هذه المراحل.

إطار الأمّة الوسط والارتباط بين مكة والقدس

وتمتد الرقعة الجغرافية والبشرية للأمة الوسط ما بين الأرضين "الحرام" حيث "منطلق" الدعوة، والأرض المقدسة حيث "امتدادها" وحيث يخرج الأميون بعد أن تحولوا إلى كتابيين باتجاه الأرض المقدسة وما حولها لتكوين "الأمّة الوسط.

هنا نجد ارتباطاً عضوياً بين مكانين، الأرض "الحرام" وما حولها والأرض "المقدسة" وما حولها، فقد توجهت النبوة والرسالة الخاتمة في مبتدأ دعوتها للأميين العرب والكتابيين على حدّ سواء، فكانت (القبلة) باتجاه الأرض المقدسة، واستمرت على هذا النحو إلى تاريخ 15 شعبان من السنة الثالثة للهجرة وما يوافق 23 يونيه/حزيران 624م.

فالأرض المقدسة وأهل الكتاب فيها "هدف مستقطب" جغرافياً وبشرياً منذ بداية الدعوة، واستقطاب الهدف جزء أصيل من الرسالة نفسها على طريق تحقيقها لعالميتها، ويظهر ذلك في خطاب الله سبحانه وتعالى للإسرائيليين بعد أن عبدوا العجل ثمّ انتدبوا سبعين نقيباً للاعتذار، فرجف بهم الجبل، وأشار الله عليهم بأن الرحمة التي يطلبونها مقيدة ومرهونة بأتباعهم للنبي الأمي، فهو وحده الذي يضع عنهم "شرعة الأصر والأغلال" التي تنسق تماماً مع مقابل العطاء الحسي الخارق والمرئي الذي منحهم إياه، وأن النبي الأمي هو نبي "الخطاب العالمي" و"شرعة التخفيف والرحمة".

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴿155﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ

مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُـم بِآيَاتِنَـا يُؤْمِنُـونَ﴿156﴾ الَّـذِينَ يَتَّبِعُـونَ الرَّسُـولَ النَّبِـيَّ الأُمِّـيَّ الَّـذِي يَجِدُونَـهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿157﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ **الأعراف/155- 158.**

فالأرض المقدسة وما حولها هي من صميم المشروع التأسيسي للأمة الوسط وقد جرد الرسول ﷺ باتجاهها ثلاث حملات:

الأولى في العام الهجري "الثامن" الموافق 629/630م (وعلى رأسها زيد بن حارثة) وبجيش من ثلاثة آلاف مجاهد، واستشهد "زيد بن حارثة" و"عبد الله بن رواحة" و"جعفر بن أبي طالب" رضوان الله عليهم أجمعين في معركة مؤته الشهيرة.

والثانية حين تولى الرسول ﷺ بنفسه قيادة حملة اتجهت إلى "تبوك" في العام الهجري التاسع الموافق 630/ 631م.

والثالثة في العام الهجري "الحادي عشر" الموافق/632/633م/، وعلى رأسها "أسامة بن زيد" وأمرها بالتوجه إلى "البلقاء" و"أذرعان" و"مؤته"، وقد أنفذ الخليفة الأول أبو بكر تلك الحملة مباشرة بعد التحاق الرسول بالملأ الأعلى يوم الاثنين 12 ربيع الأول الموافق 8 حزيران/يونيو 633م، و12 ربيع الأول هو ذات تاريخ

مولده المبارك، وذات يوم دخوله حين هجرته إلى المدينة المنورة في العام الهجري الأول الموافق 25 أيلول/سبتمبر سنة 622م.

فبالامتداد من الأرض الحرام إلى الأرض المقدسة يتحقق "الخروج/البقرة" وتتحقق "عالمية الخطاب"/الأعراف.

وهو خروج "بشرعة السيف" التي قررها الرسول نفسه وأنفذ ثلاث حملات في حياته الشريفة ولتحقيق مفهوم "الأمة الوسط" ومركزية "القبلة" المحولة إلى البيت الحرام.

البعد الغيبي في الامتداد نحو الأرض المقدسة

وقد خصّ اللّه سبحانه الأرض المقدسة وما حولها بانبعاث معظم النبوات وباركها بهم، ثمّ "دمجها" في الأرض الحرام بوصفها "امتداد" ورسخ هذا الدمج بالإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ **الإسراء/1**.

وللتأكيد على هذا الاستقطاب حقق اللّه سبحانه لنبيه في الإسراء إمضاء العهد مع كافة الرسل والنبيين "بمدخل عيني" أعلمنا به عبر القرآن: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ آل عمران/**81**.

فكما كان الإسراء غيباً، كذلك كان اللقاء النبوي وإحقاق الشهادة من كافة الأنبياء حضوراً في الأرض المقدسة، فدانوا جميعاً لخاتم الرسل والنبيين وألحقت الأرض المقدسة بالأرض الحرام بعد صبر على أهل الكتاب والتوجه إلى قبلتهم دام اثني عشر عاماً من البعثة النبوية، وهم يدركون "يقيناً" أنه النبي الأمي "المبشر به" في

التوراة كما هي نصوص سورة الأعراف والمبشر به في "الإنجيل" أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴿6﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الصف/**6- 7**.

حيث استخدم السيد المسيح قوة "الاسم المحمول" وخصائصه وهو "أحمد" ولم يستخدم الاسم "الحامل" وهو "محمد" وبما يتوافق مع طبيعته واسمه "المحمول" "المسيح".

ثمّ ربط اللّه بين بشارة السيد المسيح بأحمد، وعالمية الدعوة، تماماً كما ربط بين البشارة به في التوراة وعالمية الدعوة للناس كافة ووضع شرعة الأصر والأغلال.

فبعد الآيتين/6 و7/في الصف تأتي الآيتان/8 و9/مباشرة: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴿8﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الصف/**8- 9**.

فالامتداد الإسلامي نحو الأرض المقدسة هو مبتدأ الإظهار الكلي العالمي للهدى ودين الحق على الدين كلّه، ولو كره الكافرون ولو كره المشركون ولهذا كان المبتدأ بشرعة السيف، وحملتي "زيد بن حارثة" و"أسامة بن زيد" وما بينهما حملة الرسول ﷺ نفسه.

الأمة الوسط غير "الوسيطية" التلفيقية

قد اتخذ البعض من مفهوم "الأمّة الوسط" دعوة "للوسطية" الفكرية والسياسية، وليس القرآن بوسطي بأي وجه من هذه الوجوه، إذ أن القرآن "منهجي" له ضوابطه المعرفية وحلاله وحرامه البينين وأوامره ونواهيه وخطابه، فالمنهجية والوسطية الفكرية والعقائدية والسياسية نقيضان للقرآن، منهجياً ومعرفياً، كما أن دلالات النصّ القرآني في آيات سورة البقرة تربط ما بين التحول إلى (القبلة — المركز) باتجاه "البيت الحرام" والأمة "الوسط" ولم تربط بين الأمة الوسط والوسطية الفكرية.

والشهادة (حضور إنساني ومكاني)ولا علاقة للشهادة على الناس بالوسطية الفكرية، وإنما علاقة الشهادة هي "بالخروج" الجغرافي والبشري إلى الناس، وقد ربط هذا (الخروج) نصاً بمقاتلة اليهود من أهل الكتاب: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ آل عمران/**110**.

ولم يكن لهذه الوسطية الفكرية والمسلكية والعقائدية المدعاة أدنى خط من تحكيم (شرعة السيف) ضد المشركين وعلى رأسهم "مسيلمة الكذاب" حين تمت تصفيته وأتباعه في العام الهجري العاشر الموافق 631/632م، وكان مسيلمة الكذاب أقرب إلى الوسطية إذ أراد "اقتسام النبوة" وبعض النفوذ.

كذلك لم تكن لهذه الوسطية ودعاوى الحوار أي مجال تطبيقي في مواجهة الحقبة النبوية للمشركين والكتابيين من اليهود الذين غدروا "بصحيفة المدينة" وتحالفوا مع المشركين في "غزوة الخندق" في العام الهجري الخامس الموافق/626/627م/.

لا يجتمع دينان في جزيرة العرب

لم يألُ الرسول ﷺ جهداً في تطويع جزيرة العرب بالدعوة و(شرعة السيف) ففي الجزيرة القاعدة البشرية (الأميين) التي بعث فيها، وهي (أم القرى وما حولها) التي تنذر ولا تبشر فقط لأنها (المسؤولة عن الذكر) ولأنها (مقدمة تشكيل(الأمة الوسط).

وكان البدء (بالمشركين) عبر غزوات متلاحقة لم تكن (الحجة الأساسية) فيها الدفاع عن النفس والدولة الوليدة، وإنّما تأسيس (قاعدة الدعوة) والأمة الوسط، ولهذا عقدت (النصرة الإلهية) وجاء (التدخل الإلهي) الغيبي، ولم يكن الهدف قط تأسيس (دولة) توازي الدولتين البيزنطية الرومانية والساسانية الفارسية وبهياكل مماثلة لهما أو مقاربة وإنما قاعدة تأسيس ودعوة.

فكافة مفاهيم الدولة لا تنطبق على تلك الحقبة النبوية الشريفة قد يلجأ المحاورون إلى المجادلة الحسنة لكافة التبريرات لتبدو غزوات الرسولﷺ دفاعية أو غير ذلك، ولكن كيف يفسرون أن المشركين (نجس) وأن شرعة السيف قائمة بحقهم في الجزيرة العربية؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة/**28**، فهذا قتال مبدئي لا يحتاج إلى مبررات الدفاع النفس.

وكذلك ربطت هذه الآية في (التوبة(رقم/28/بتاليتها رقم/29/التي تأمر بقتال (المرتدين) عن دينهم هم وليس عن الإسلام من (أهل الكتاب) وهم حصراً اليهود وإخضاعهم للجزية كرهاً وهم (صاغرون) ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ التوبة/**29**.

وفي هـذا الإطـار كانـت غـزوة "بـني النضـير" في السـنة الهجريـة الرابعـة الموافق/625/626م/، حيث تم إجلاؤهم فذهب فريق منهم إلى الشام وفريق إلى خيبر، ثم كانت غزوة "بني قريظة" إثر غزوة الخندق في السنة الهجرية الخامسة الموافـق/626/627م/، ثـم جـاءت غـزوة "يهـود خيـبر ووادي القـرى" في السـنة الهجرية السابعة الموافق/628/629م/، مع عقد الصلح مع يهود "فدك وتيماء" وحكم عليهم في الحـالتين بغير منطـق (الجزيـة)، وقـد تم الإجـلاء وقتـل الرجـال وسبي النسـاء والـذراري وذلـك هـو حكم "سـعد بـن معـاذ" وكـان "سـيداً لـلأوس" في المدينة (119/215هـ- 737/830م).

لم يحكـم فـيهم "سـعد بـن معـاذ" شـرعة (التخفيـف والرحمـة) الإسـلامية الناسـخة لشـرعة (الأصـر والأغـلال) التوراتيـة كمـا يـرد في سـورة الأعـراف/آيـة 157/وبما يماثل حكم (التخفيف) الذي طبقـه الرسـول علـى يهـود "فدك وتيمـاء" في السنة الهجريـة السـابعة حـين غـزا يهـود خيـبر ووادي القـرى كمـا أسـلفنا، وإنمـا حكم فيهم النص التوراتي الذي "صدقه" القـرآن في سـورة المائـدة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴿32﴾ إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ المائدة/**32- 33**.

وقـد هـيمن القـرآن علـى كافـة النصـوص الـتي صـدقها والعائـدة لشـرعة الأصـر والأغـلال التوراتيـة واسـتبدلها تبعـاً لمنهجـه وشـرعته شـرعة التخفيـف والرحمـة:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ المائدة/**48**.

غير أن الكثير من فقهاء المسلمين قد اختلط عليهم الفارق بين النهجين الإسلامي القائم على (عالمية الخطاب وحاكمية الكتاب وشرعة التخفيف والرحمة) في مقابل النهج اليهودي التوراتي على (شرعة الأصر والأغلال وحصرية الخطاب القبلي الإسرائيلي والحاكمية الإلهية وحاكمية الاستخلاف).

فطبقوا على المسلمين الشرائع التي (صدّقها) القرآن وغفلوا عن جانب (الهيمنة) عليها بتشريع ناسخ، ومن هنا جاء (الظن) الذي ارتقى إلى مستوى (الاعتقاد) بأن ما طبقه سعد بن معاذ على اليهود هو (حد إسلامي أطلقوا عليه حد الحرابة)، وهو (حد توراتي)، ثمّ عززوا هذا الاعتقاد بأحاديث منسوبة للنبي ﷺ دون أن يتساءلوا لماذا لم ينفذ النبي نفسه هذا الحد؟! ودون أن يتبينوا منهجياً ومعرفياً الفارق بين (التصديق والهيمنة)، فلو لم يصدق القرآن على ما كان من تشريعات إلهية بحق سالف الشعوب لاتخذ من ذلك مبرراً لتكذيب النبوة الخاتمة وخروجها عن ما أنزله اللّه سبحانه وتعالى من قبل، فجاءت (ثنائية) التصديق والهيمنة، فالتصديق (اقرار) بما ورد في الكتب السابقة، والهيمنة (نسخ) لها باتجاه شرعة التخفيف والرحمة تثبيتاً لآية الأعراف رقم/157/، فلو لم تتم الهيمنة والنسخ باتجاه شرعة التخفيف والرحمة ووضع شرعة الأصر والأغلال لبطلت نبوة النبي الأمي الموعود، ولبطلت خطبة النبي في (حجة الوداع) والتي اقتصرت على (المبادئ الإسلامية العامة).

الأمة الوسط حيث لا تجتمع مركزيتان

قد استكمل الرسول ﷺ إخضاع المشركين من الأميين العرب بشرعة السيف، أمضى نفس الشرعة باتجاه اليهود، كما استكمل أبو بكر هذا الإخضاع منذ إنفاذه بعثة "أسامة بن زيد"، وتوجت حقبة تأسيس " الأمة الوسط" بدخول عمر صلحاً إلى بيت المقدس عام 15هـ الموافق/636/637م/، في حين استكمل فتح دمشق في شهر رجب عام 14هـ الموافق 635/636م، وقد سبق أن أعلن ملوك حمير في اليمن إسلامهم في السنة الهجرية التاسعة الموافق/630/631م/، بذلك تمّ استكمال الدائرة البشرية والجغرافية للأمة الوسط وبشرعة السيف.

مبدأ الإلحاق خارج جزيرة العرب

قد أوضحنا الارتباط العضوي ما بين الأرضين الحرام والمقدسة وما حولهما في المرحلة التأسيسية للأمة الوسط والتي قامت على شرعة السيف وبتوجهات الرسول نفسه.

ولم تكن تلك المواجهات مقتصرة على جيوش الروم والفرس حتى نطلق عليها (مرحلة تحرير) كما يطيب للبعض (تبرير) الأمر بمصطلح معاصر، إذ تمّ إخضاع أميين عرب وكتابيين على مدى الشام الكبير والعراق، فهناك تحالف الغساسنة مع الروم في العام الهجري الثامن الموافق/629/630م/، وهناك الحملة في "دومة الجندل" ضد "أكيدر بن عبد الملك الكندي" عام/9هـ/الموافق/630-631م/، وقتال قبيلة "بكر" المتحالفة مع الفرس في معركة "الولجة" عام/12هـ/الموافق/633-634م/، وهزيمة بائل "بهراء" و"تنوخ" و"كلب" و"غسان" في "دومة الجندل" عام/12هـ/الموافق/633-634م/، وهزيمة "تغلب" و"إياد"

و"النمـــر" المتحـــالفين مـــع الـــروم في واقعـــة (الفـــراض) في شـــهر "ذو القعـــدة" عام/12هـ/الموافق/633-634هـ/.

هذه القبائل العربية والأمي منها غير الكتابية بالذات والتي تمّ إخضاعها تقع خارج دائرة الأميين العرب في مكة وما حولها، فهم ضمن امتداد الأرض المقدسة وما حولها وتنطبق عليهم الآية رقم/3/في سورة الجمعة وليس الآية رقم/2/.

فالآية رقم/2/ مناطها الأميين العرب حول أم القرى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ **الجمعة/2**،

أمّا الآية رقم/3/فمناطها من يلحق بالأصل وهو فرع وامتداد له: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ **الجمعة/3**.

أمّـــا غـــزو فـــارس بدايـــة مـــن/12هـ/وإلى فـــتح "المـــدائن" عاصـــمة فـــارس عام/16هـ/الموافق 637/638م، ثمّ ما يلي ذلك من بلدان في آسيا بعد ارتحال الرسول للملأ الأعلى بعام، وكذلك غزو مصر عام/18 هـ/الموافق/639-640م/، ثمّ ما يلي ذلك من بلدان في المغرب العربي والسودان وكذلك الغزوات الموجهة إلى الروم خارج دائرة الأمّة الوسط، فهي من نوع "التوسع" ولا علاقة لها لا بالجهاد ولا بالأمّة الوسط، وقد نتجت كافة المشكلات من بعد مع هذا التوسع غير الديني.

التحول إلى الحوار العالمي

بعد استكمال تكوين الأمّة الوسط وإدماج الأرض المقدسة بالأرض الحرام وإنجاز الحقبة النبوية الشريفة لمهماتها التأسيسية وفق معايير النصرة الإلهية والتدخل الإلهي، يتحول الأمر إلى حوار عالمي بمنطق المجادلة الحسنة، حيث تتضمن عالمية الخطاب التوجه لاستيعاب وتجاوز كافة المناهج المعرفية والديانات، واستيعاب وتجاوز كافة الأنساق الحضارية إظهاراً للهدى ودين الحق.

هنا يأتي التعايش الإيجابي والتفاعل والتعارف وحتى التسامح ومع كافة الكتابين من يهود ونصارى ومجوس وصابئة من الذين بقوا من الحيز الجغرافي لما ألحق بالأمّة الوسط بموجب الآية/3/ في سورة الجمعة.

ولم تنص آية الالتحاق على أسلحة اليهود ولا النصارى من أهل الكتاب في الأرض المقدسة، فمرتكز الأمّة الوسط هو جزيرة العرب تعييناً، أمّا القدس والشام وما حولهما امتداد بحكم تغيير القبلة، فلم لم تتغير القبلة من الأرض المقدسة إلى الأرض المحرمة لفرضت الأسلحة على اليهود والنصارى بشرعة السيف نفسها.

ففي الأرض المقدسة تمّ اقرار التعددية الدينية واستمرارية هذه التعددية بمنطق الآية: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ البقرة/**145**.

وقد حصرت مسؤولية الذكر بالعرب وليس مجرد الإسلام والإيمان، ولذاك حباهم الله بما حباهم به ماضياً وحاضراً وهم غافلون، إذ يظنون ما لديهم مجرد صدفة جيولوجية! أو بما يماثل عطاء الله للدول النفطية الأخرى. ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ الزخرف/**44**.

أمّا اليقين القطعي فقد جاءت به الآية: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ **الأنعام/92**، ولهذا لم تتم الأسلحة القسرية في الامتداد المقدس كما تمت في جزيرة العرب بالدعوة وشرعة السيف حيث "لا يجتمع في جزيرة العرب دينان".

وبقي الأمر «كما حدده القرآن» التحاقاً وليس بالضرورة الحاقاً قسرياً وكذلك دفاعاً وتدافعاً، دينياً ووطنياً، ولكن في حال الاعتداء على المسلمين وأولئك الذين خرجوا كخير أمّة باتجاه الأرض المقدسة وما حولها: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴿39﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴿40﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ **الحج/39 – 41**.

بالتحول إلى (عالمية الخطاب) وإظهار الهدى ودين الحقّ بعد تأسيس قاعدة الأمّة الوسط بشرعة السيف يؤخذ من القرآن محددات المرحلة الجديدة تماماً كما أخذت الحقبة النبوية خطها في مرحلتها، حيث أحاطت مطلقية القرآن بمهمات الحقبة النبوية الشريفة وحددتها بما فيها من نصرة إلهية، ثمّ تحيط بما بعدها من حقب.

لذلك وفي مرحلة (ما بعد التأسيس) وحين يحاول البعض إقصاء المسيحية واليهودية، وكذلك من اليهود والنصارى أنفسهم خاطبهم الله سبحانه بأن اليهود على شيء وأن النصارى على شيء: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ

يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ البقرة/**113**.

ثم مد خطابه لمن أتى بعد اليهود والنصارى وقال نفس القول بحقه فوصفه (بعدم العلم والمضمر) هذا موجه للمسلمين بضرورة التتابع التاريخي، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿114﴾ وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة/**114- 115**.

وبحكم هذه الآية تمتد حرمة المساجد إلى كافة العبادة لذوي الديانات المختلفة، وذلك في الآية/113/الممتدة السياق عن الآية/112/، ثمّ أكد الله سبحانه وتعالى على إطلاقيه التوجه إليه عبر كافة الأمكنة في العالم وعبر كافة الديانات في الآية/115/، فأصبح كما للآخرين مناسكهم للمسلمين مناسكهم: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴿67﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿68﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ **الحج/67-69**.

بهذا ركز القرآن قاعدة معرفية في العلاقة مع الديانات السماوية وهي أنها على شيء وذلك بمعيين النسبية المقدسة بحكم تنزلها خارج الأرض الحرام، والجزئية نتيجة ما أصابها من تحريف فوصف هذا التحريف بالكفر وليس بالشرك.

ويمتد توصيف ما عدا القرآن بالسببية والجزئية إلى ديانات أخرى وصفت بانتمائها الإيماني "كالصابئة" الذين يمتدون بدياناتهم إلى صحف إبراهيم والمجوس الذين يتمثلون الألوهية نوراً، حيث انصرفوا إلى الجانب الرمزي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴿62﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة/**62-63**.

وكذلك: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ المائدة/**69**.

وكذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ الحج/**17**.

(انتهى كلام الأستاذ محمد أبو القاسم حاج محمد).

الفرع الثاني

أطروحة نقاء المعدن وصفاء الفطرة هما الذات الأمة العربية لرسالة النبأ العظيم

وليس اعتراضنا على اختيار اللّه تعالى للأمّة العربية بسبب موقعها الجغرافي والديموغرافي، ولا لأنه قصد من هذا الاختيار إعداد الحامل البشري لرسالته، ولكن اعتراضنا على الأخ محمد أبي القاسم حاج حمد أنه غضّ النظر عن القيمة الذاتية للعربي، وعن أصالة معدنهم وقيمتهم، كما استهان بالصفات والسمات التي يتصفون بها، ولعلّ معياره الجديد الذي يدلل به أنّ هذه الأمة العربية، ما دامت أمة من الدعاة، فالمعجزة الإلهية هي المعنية بسد هذا النقص وهاكم سمات العرب في الجاهلية التي رشحتهم للاضطلاع برسالة النبأ العظيم.

يقول الإمام الشيخ محمد الغزالي واصفاً العرب[1]: ((اصطفى اللّه العرب لأداء رسالته العظمى، وتبليغها للناس ما بقيت الحياة والأحياء، ومنحهم بهذا الاصطفاء فضلاً غير منكور، ونحن عندما نتأمل في أحوال هذه الأمة عند ترشيحها للبعثة نجدها أحقّ من غيرها بوراثة الكتاب الكريم، والقيام على هداياته.

[1] – الشيخ محمد الغزالي: حقيقة الأمّة العربية وأسطورة البعث العربي، القاهرة، ص26.

فقد كان العرب يانسون من أنفسهم نقاء المعدن وصفاء الطبيعة، ويرمقون غيرهم من إتباع الديانات والحضارات الأخرى، فلا يرون لديهم ما يبعث على الإعجاب أو الاحترام، أفكان هذا الشعور غروراً لا يستند إلى واقع؟)).

والذي نؤكده الآن أنّ العرب كانوا يرون أنفسهم أقوم طباعاً وأنفذ أفكاراً وأعصى على الضيم، وأنأى عن الدنية، وأقدر على عظائم الأمور ونيل الأمجاد، وقد نوّه الله جلّ شأنه بذلك الاعتداد العربي فقال يستثير الهمم لحمل رسالته: ﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿155﴾ أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴿156﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ **الأنعام/155-157**.

وقال وهو يوبخهم على تراخيهم في الإجابة ومكرهم بالداعية: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴿42﴾ اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ **فاطر/42-43**.

وهذه الآيات واضحة الدلالة في أن العرب كانوا يعتبرون كفتهم أرجح في ميزان المواهب والملكات من اليهود والنصارى والمجوس، أو بتعبير آخر من الروم والفرس ومن دخل في سلطانهم أو خرج عنهم ويصور الجاحظ نظرة العرب إلى أنفسهم فيقول:

((للعرب من صدق الحسن، وصواب الحَدْس، وجودة النظر، وصحّة الرأي، ما لا يعرف لغيرهم، ولهم العزم الذي لا يشبهه عزم، والصبر الذي لا يشبهه صبر، والجود والأنفة والحمية التي لا يدانيهم أحد فيها، ولا يتعلق بها رومي ولا هندي ولا فارسي)).

وفيهم أيضاً خصلة لا تصاب إلاّ فيهم:
((وذلك أن سفلة كل جيل، وغفلة كل صنف إذا اشتد تشاجيهم وطالت ملاحاتهم، وكثر مزاحهم، وشاعت لدعابة بينهم، وجدتهم يخرجون إلى ذكر الحرمات، وشتيمة الأمهات، واللفظ السيء والسفه الفاحش، ولست بسامع من هذا حرفاً في البادية، ولا في صغيرهم ولا في كبيرهم، ولا جاهلهم ولا عالمهم.
وليس في الأرض صبيان في عقول الرجال غير صبيانهم، وكل شيء تقوله العرب هو سهل عليها أو كطبيعة فيها، وكل شيء تقوله العجم فهو تكلف واستكراه.

والعرب شعب ذكي قوي، وقد استجمعوا على عهد البعثة كل الحلال التي تتجح بها رسالة عظمى، بل إن ما تتطلبه دعوة ضخمة كدعوة الإسلام لم يكن يتوفر إلاّ في هذه الجزيرة التي عبأتها الأقدار بشتى القوى والمواهب ولنتحدث عن أول هذه الموشحات)).

1- الناحية النفسية:
بلغت قوة الفرد مداها بين العرب، وشعر كل ساكن في هذه الصحراء أن له من العزة، وتمام الشخصية ما يجعله إنساناً يفرض نفسه على ما حوله، ويأخذ امتداده المطلق في كلّ ناحية، وقد جعلهم هذا الشعور أصحاب حساسية شديدة بأنفسهم، وبما عليهم من واجبات وما لهم من حقوق، وربما وصلوا في تلك العاطفة إلى حدّ التطرف على نحو ما قال شاعرهم:

لو كان في الألف منا واحد فدُعوا ... من فارس؟ خالهم إياه يعنونا

أو كما قال الآخر:

إذا القوم قالوا: من فتى خلت أنني عُنيت فلم أكسل ولم أتبلد

وهذه الخصلة تجعل صاحبها رجل صدق ووفاء، إذا قال كلمة وقف عندها، فلم يغلبه نسيان، ولم تزلّه رهبة، والدعوات تقوم أول ما تقوم على أمثال هؤلاء الرجال..

والبيئة العربية طبعت أبناءها على ألف الصعاب، وقلّة المبالاة بالشدائد ومواجهة الموت ببساطة ورضا، أو برغبة وابتسام، إنهم لا يعيدون الحياة أو يقبلونها على أي أحوالها كلا، إما لانت لهم أو بأنواعها، ولن يقبلوها على ضيم أو حرمان.

ومما يصور هذه القدرة على استقبال الموت قول دريد:

أبى القتل إلا آل صمة إنهم أبّوا غيره والقدر يجري إلى القدر

فإنا للحم السيف غير نكيرة ونلحمه حيناً وليس بذي نكر

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا فما ينقضي إلاّ ونحن على شطر

وقول الآخر:

شددنا شدة فقتلت منهم ثلاثة فتية وقتلت قَيْنا

وشدوا شدّة أخرى فجروا بأرجل مثلهم ورموا جوينا

وكان أخي جوين ذا حفاظ وكان القتل للفتيان زينا

وقود التضحية بالنفس مؤهل للسيادة، وباب إلى امتلاك الحياة كما قيل: ((اطلب الموت توهب لك الحياة)).

والرسالة التي تقوم أول عهدها على كفاح الطغاة، ولقاء كيدهم وسخطهم أحوج ما تكون إلى هذه الخليقة.

وكما كان العربي شجاعاً كان كريماً مسماحاً، يتهيأ لمقابلة أضيافه وهو متهلل الأسارير، وطيب النفس.

فقام أبو ضيف كريم كأنه ... وقد جدّ من فرط الفكاهة مازح

إلى جذم مال قد نهكنا سوامه ... وأعراضنا فيه بواق صحائح

والكرم طبيعة عمت العرب، وشاعت في أغنيائهم وفقرائهم:

فصبوا بمدرجة الطريق قدورهم ... يتسابقون إلى قرى الضيفان

ويكاد موقدهم يجود بنفسه ... حبُّ القرى حطباً على النيران

وبذل المال مع الاستعداد لبذل النفس عند أول نداء ضمان وثيق لنجاح أية نهضة.

ومن خلائق العرب غيرتهم الشديدة على الأعراض، وحرصهم البالغ على صيانة الحريم، وربط ذلك بكرامة الفرد والأسرة، وذهابهم في هذا المضمار إلى حدّ لا تعرفه أمة أخرى.

وقد بلغ الهوس بنفر منهم أن كره البنات، ووأدهنّ أطفالاً خشية العار، أو خشية العجز عن الارتزاق، وهذا طور من القسوة يخرج البشر إلى طور الحيوان.

وكم يقسو البشر بعضهم على بعض لنفخة كاذبة حتى ينسلخوا من ثيابهم ويلبسوا جلود الذئاب، من عصور مضت حتى عصرنا هذا...

على أن وأد البنات ظهر لماماً في بعض القبائل، وبرئت منه جملتها، وجوانب النفس العربية «على الإجمال» تقيض بكثير من معاني القوة والصراحة والصرامة والأنفة، وهي خصال إذا صلح توجيهها صنعت العجائب وذاك ما تولاه الإسلام.

2- الناحية الاجتماعية:

وامتياز العرب بالصفات السالفة يزيده التماعاً خلو بيئتهم من الفساد المعقد الذي زخرت به البيئات المجاورة، فليس في هذه البيئة العربية الكهنوت الديني، ولا النظام الإقطاعي، ولا الاستبداد السياسي، مما عرفته الشعوب الأخرى، وترك في كيانهما المادي عللا جساماً.

نعم خلت الجزيرة من الملوك المتوجين وكان نظامها السياسي أشبه بمجموعة من القيادات المحلية المتناثرة هنا وهناك.

ولم يكن سيد القبيلة جباراً فيها يهضم من حوله، بل كانت القبيلة تحمي كل امرئ فيها، وتضرب سياجاً منيعاً حول حرمانه.

ما الذي كان يحمي الدماء والأموال والأعراض في تلك الفجاج الفسيحة؟ مع العلم بأنّه لم تكن ثم سلطة مزهو به ولا قوانين مكتوبة!.

إن العصبية الهائلة التي شدت أفراد كل قبيلة بعضهم إلى بعض، وجعلت من الجماعة كياناً متماسكاً موصول الشعور، هذه العصبية القبلية، كانت محور النظام الذي شاع في تلك الأرجاء البدائية، فالجماعة مسؤولة عن الفرد، والفرد مسؤول عن الجماعة.

وفي الخير والشر والخطأ والصواب كانت هذه العصبيات تنطلق من مكامنها متلاحمة لا يردها شيء.

وقد أتاح هذا النظام لكلّ أحد من القبيلة قدراً من الأمان يحيا في ظلاله وافراً إذ أن العدوان عليه ليس عدواناً على امرئ فذ، بل على قبيلة بأسرها.

وامتدت هذه المنعة من الأفراد إلى أي غريب يدخل في جوار القبيلة ويلتمس حمايتها.

وإلى هذا النظام السائد يرجع ما ظفرت به دعوة الإسلام أول أمرها من محافظة وبقاء.

فإن بني هاشم رفضوا أن يخلّوا بين النبي وبين أعدائه، وتجمع مؤمنهم وكافرهم على سواء في الدفاع عنه والوقوف دونه.

ورأوا أن تسليمه لخصومه عار يلحق أهله كلهم، وإن كان فيهم من لا يؤمن برسالته ولا يستجيب لدعوته.

وقد رأينا العباس «عندما كان كافراً» يحدث الأنصار قبل انتقال الرسول ﷺ إلى بلدهم فيقول: ((إن محمداً هنا في عزوة تنافح عنه، فإذا لم يلق مثل هذه الحماية من أهل المدينة فلا معنى لخروجه)).

ورأينا أبا لهب، وقد نزل فيه قرآن يلعنه، يعرض على النبي ﷺ أن يقوم منه مقام أبي طالب بعد وفاته، فيتولى نصرته ومؤازرته ورأينا المطعم بن عدي «وهو مشترك» يقبل أن يدخل الرسول ﷺ في جواره وهو عائد من الطائف عودة محزنة متعبة.

ويخرج هو وبنوه في سلاح كامل ليقاتلوا من يحاول النيل من محمد، إن هذه النخوة الغريبة كفلت لوناً من الحرية السياسية والكرامة الفردية لم يعرف عصرئذٍ في أية دولة أخرى.

ولو أن داعية للتوحيد ظهر في ربوع الروم، أو أقطار الفرس لأصدر كسرى أو قيصر أمراً باعتقاله، أو ضرب عنقه، فانقضى، وانقضت دعوته دون أن يدري أحد.

ولو أنه نال فرصة الحياة أياماً ما استطاع أن يربى على مكث جيلاً من الرجال الذين رسا اليقين في صدورهم، وتلقوا دروساً في التربية والتشريع، كان العالم أحوج ما يكون إليها في مستقبله البعيد، ولم تعرف بطحاء مكّة ولا ما حولها الكهانة الدينية التي تقترن بالنصرانية وتسير أبداً في ركاب الكنيسة.

نعم توجد قبائل قد تنصرت في الشمال والجنوب، كما أن هناك فصائل يهودية تسربت إلى جوف الصحراء، وتهوّد في جوارها نفر من العرب، لكن الوثنية كانت الصبغة السائدة في أرجاء الصحراء.

ويمكننا القول بأنّ الطبيعة العربية غلبت على خلائق كثير من اليهود والمتهودين، والنصارى والمتنصرين، فلم تستطع هذه الديانات اجتذاب جمهرة العرب إليها، ولا هي حيث استقرت بقيت لها نظمها الكنسية المعروفة في بلاد الروم مثلاً.

وكانت أميّة الكتابة وأميّة التدين تستولي على تلك البقاع الشاسعة وتجعل قلوب أهليها وأذهانهم غفلاً.

والخبراء بعلل التدين الفاسد يعلمون أنّ الجماهير الساذجة أو المخرفة أيسر اقتياداً للحق من الجماهير التي اعتنقت أفكاراً فيها مزيج من حق وباطل فإنّ تعصبها لما تعرف من حق يجعلها تعتذر لما ورثت من باطل، فهي قلما تتحول عنه بسهولة.

إنّ الأرض الخالية أعون على سرعة البناء من الأرض المليئة بالأنقاض، والواقع أنّ تعصب اليهود لما لديهم من مواريث، وتعصب النصارى لما آل أليهم من تثاليث يجعل بدء الرسالة في غيرهم أحكم.

هل يعني ذلك أنّ الوثنية لفظت أنفاسها دون عناء؟ كلا، فإنّ عبدة الأصنام جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحقّ، وانتضوا السيف ليخرسوا به الحجّة؟ ولكنّ الإسلام الذي اكتسب أنصاره بالاقتناع واليقين تغلب على هذه الصعاب، واستمكن من مدّ رواقه على أنقاض الشرط المدبر واشتعل هذا الكفاح أمداً طويلاً حتى استقرت الأمور له.

بيد أنّ حرب الكلام والسنان مع أولئك الوثنيين كانت أبعد الدمس والالتواء من الحروب التي نشبت للأسف مع أهل الكتاب، سواء في الجزيرة أو ما وراءها، وكلفت الإسلام عناءً شاقاً.

وكان في عرب الجزيرة الغنى والفقر، شأن أي مجتمع إنساني، ولكن الصحراء الوسيعة خلت من نظام الإقطاع، وما يتبع الإقطاع من رق وهوان، ونزف وانتفاخ.

إنّ طبيعة العلائق بين السادة والأتباع في الجزيرة كانت أدنى إلى الكرامة الإنسانية من الأوضاع التي عرضت في أقطار أخرى!!

ومنطق العرب في هذا ما قاله الشاعر:

جفاني الأمير، والمغيرة قد جفا — وأمسى يزيد لي قد أزورّ جانبه

وكلهم قد نال شبعاً لبطنه — وشبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه

وجو الحرية الطليق في هذه الوهاد والنجاد، أتاح لصنوف الناس مستوى من الخلق المفعم بالإباء والحميّة لا نظير له في أقطار أخرى، قد يظنّ ظان أنّ ما نقلناه من شواهد التضحية والإيثار والاعتزاز، او من معالم الكرامة الاجتماعية والسياسية، ليس أكثر من صور جزئية، أو أحوال محلية لبعض الأفراد والقبائل، ولا يمكن الاستدلال بها على واقع المجتمع العربي في هذه الإعصار.

ونحن لا نزعم أن العرب كلهم في كرم حاتم، أو شجاعة عنترة، ولكنا نسوق الشواهد التي ذكرناها بياناً لوجهة الأخلاق في تلك البيئة البدائية.

فإنّ التقاليد في أمة ما تأخذ سمتها الكامل في سلوك نفر من أبنائها، وتبقى بعد ذلك مُثلاً عليا للجماهير التي تجاهد لبلوغها، وتحب أن تعرف بها.

وقد كان العرب في جملتهم من النواحي النفسية والاجتماعية على ما وصفنا من سخاء وإباء، واعتداد بالنفس والقبيلة.

ومن هبط منهم عن هذا عُرف بسوأته تلك، وسقطت حرمته عند نفسه وعند غيره...

3- صفاء الفطرة العربية وخلوها من التأثر بثقافات فلسفية مناهضة..!

قلنا أنّ العرب أمّة أميّة، لا تشيع فيها الكتابة، ولا تنظم فوق رقعتها للدارس، على عكس ما كان شائعاً بين الروم والفرس، ومع أنّ أميّة القراءة والتعليم غلبت على أكثر العرب، فغنهم امتازوا بشيءٍ كثير من حدة الفهم، وصفاء الذهن، وإحكام التعبير، وسرعة الإدراك، مع سهولة في العيش، وبساطة في البيئة، وبعد تام عن التصنع والمداجاة.

وتلك خلائق لم تعهد في غيرهم على النحو الذي ظهرت به فيهم، وإنّك لتجد أعرابياً مؤمناً يُسأل عن الله كيف عرفه؟ فيقول: البعرة تدلّ على البعير، والأثر يدل على المسير، فأرض ذات فجاج، وسماء ذات أبراج، أفلا تدلّ على الخبير البصير؟.

وهذا منطق السجية المستنيرة، والطبع المستقيم، وربما كان هذا الكلام أثر ظهور الإسلام، واهتداء البصائر بنهاره الساطع، لكن طبيعة العربي السهلة تتجلى فيه.

وإلى هذه الطبيعة السهلة، وإلى أنها لا تألف النقائض، ولا تسيغ الالتواء الفكري، نرجع بنجاح الإسلام في حجاجة مع أولئك العرب عندما كانوا مشركين ذلك أنّ

القرآن جاد لهم في شأن آلهتهم التي أشركوها مع الله، آلهاً تصيب في الخلق والرزق والتدبير؟ فكانت الإجابة المسددة: لا.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴿31﴾ فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ يونس/ **31-32**.

ولو كان غيرهم من أصحاب الفلسفات الأخرى لكانت إجابته مليئة بالعقد والأغاليظ والعجز والبجر.

إنّ فلسفة التثليث «وهي ضرب من التفكير البشري غلب على ديانة عيسى بن مريم» وجدت جماهير من الناس تسيفها، ولما كان إمرارها من الذهن العادي صعباً، فقد أجريت عدة فتوق في الذهن الإنساني حتى يسمع لهذه الفلسفة بالمرور.

ومع تلك الثغرات المصنوعة في الفكر كي يقبل ما لا يعقل، فإنّ أصحابها اختلفوا على أنفسهم اختلافاً دامياً.

كيف يتولد قديم من قديم، ويكون الاثنان واحداً؟ بل هم على ما زعموا ثلاثة قدماء! لأن ثمّ وسيطاً بين الأب والابن هو الروح القدس!.

ثمّ كيف بعد ذلك تتصور العلاقة بين تلك المختلفة، والتي هي أولاً وآخراً شيء واحد؟.

أهي طبيعة واحدة، ومشيئة واحدة للأب والابن، أم هما مشيئتان وطبيعتان، أم طبيعة واحدة ومشيئتان؟.

لقد ظهر الإسلام، والخلاف ناشب بين الرومان من ناحية، وجمهرة أهل الشام ومصر من ناحية أخرى في تلك المسائل المحيِّرة.

أمّا عرب الجزيرة فكانوا بعداء عن هذه المجادلات التي لا توائم أذهانهم، ولا تصاحب أمزجتهم، ولا طاقة لهم على الخوض فيها .

صحيح أنّ النصرانية وجدت لها بعض المعتنقين في اليمن، وأسفل الشام، ولكن هذا الاقتناع المحلي لم يتجاوز حدوده الضيقة، خصوصاً بعد ما فشلت حملة أبرهة على مكة، وبادت جيوشه قبل أن تهدم البيت الحرام.

على أن نصارى العرب فهموا التثليث بصورة تقارب وثنيتهم الشائعة فتصوروا العلاقة بين أطراف الأقانيم تشبه العلاقة بين أفراد أسرة مقدسة توصف مريم فيها بأنها أم الإله الابن وصاحبة الإله الأكبر!!.

وقد نفى القرآن هذا النسب المدعى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ **الأنعام/101**.

إنّ العقبات أمام التوحيد المطلق الذي دعا إليه محمد، كانت ميسورة التهشيم في الوثنية العربية، لأنّ طبائع العرب أسلس قياداً للحقّ، وأسرع عزوفاً عن الباطل، وذلك لأنّ سجاياهم النفسية والعقلية لم تعوج مع الفلسفات الدينية التي التاثت بها، واستنامت لها جماهير أخرى.

فإذا أولينا وجهنا شطر الفرس، وجدنا فلسفات دينية أخرى يستحيل أن يرتضيها العرب لأنفسهم، أو أن يحيوا وفق أسلوبها الشرود كان الفارسيون، ومن خضع لهم صرعى عدة نزعات مضطربة.

فهناك "الزرادشتية" المجوسية التي اعتنقتها السلطات الحاكمة، وشاعت فلسفتها الممسوخة بين كثيرين من الأعاجم.

وهذه الفلسفة الدينية لا تعتمد على إيمان حق، بل ليس فيها إثارة من إيمان، وقد بلغ الانحراف في تعاليمها أن أفتى طاغيتها بأمر عجيب، ذلك أنّه جعل زواج الرجل بأمه أفضل من زواجه بغيرها من النساء، وجعل أولاده منها آثر وأزكى...!!.

ألا ترى جهالة العرب أفضل من هذه الحضارة..؟.

وانتشرت "المزدكية" بين طوائف من المنحلين والصعاليك، وهي مذهب يجعل النساء والأموال شيوعاً بين الخلق، ويهدم كلّ الحدود التي تقوم بها المجتمعات.

ولعلّ هذا المذهب قريب في آثاره من الوجودية الغربية، ومن الشيوعية الشرقية، وهي مذاهب لها في عصرنا عشاق وأتباع.

والعرب في جاهليتهم كانوا أنظف نفوساً، وأنقى صحائف من أن يميلوا إلى تلك النحل الساقطة، أو يسمحوا لها بالتسرب إلى بيئتهم.

إنّ التدين الباطل قد يعز على العلاج، لأنّ صاحبه فاسد يعد نفسه صالحاً ومن ثمّ لا يعرض نفسه على طبيب، ولا يقبل من طبيب أن يسوق له شفاء، وقد ندد الحديث بأقوام يجيئون آخر الزمان "تتجارى بهم الأهواء، كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يدع منه عرقاً ولا مفصلاً" وهذا النوع من الناس قليل الصلاحية، أو عديم الصلاحية، لتحمل رسالات الخير والنهوض بتبعاتها، وتلك كانت أحوال كثير من الشعوب التي أضلتها التعاليم الخاطئة، والفلسفات المنحرفة.

أمّا العرب في صحرائهم، فإنّ دينهم الخرافي لم يملأ شعاب قلوبهم بالأهواء التي تطرد الحق، لقد كانت نفوسهم أشبه بثمرة لم تنضج.

أمّا الحضارات الأخرى فكانت أشبه بثمار ضرب فيها العفن والبلى وأمست لا مكان لها إلاّ بطن الثرى.

واختيار القدر للعرب كي يحملوا الرسالة العظمى جاء على سنن الحكمة الإلهية في اصطفاء الأفراد والشعوب.

وقد اعدّ اللّه محمداً، ليكون عميد الأنبياء، وليقدم للعالم أجمع خلاصة النصائح والشرائع التي تستطيع العيش بها آخر الدهر.

وهذا الاختيار الذي تهيأت له نفس عظيمة، تهيأت له كذلك أمّة تستطيع الحكم بانّها كانت يومئذٍ أجدر من غيرها بصحبة هذا الرسول والتبليغ عنه، ويمكن أن يشملها قوله جلّ شأنه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ **الأنعام/124**.

وقد يقال: ((المعروف أنّ أحوال العرب قبل البعثة دون ما وصفت إنهم كانوا في جاهلية طامسة بينة الضلال، فكيف ينسبون إلى هذه المواهب النفسية والاجتماعية؟)).

ونقول: إنّ الدّنيا كلها كانت غريقة في هذه الجاهلية الطامسة، وإن الليل الذي عمّ أرجاءها، جعلها كلها مسرحاً للفتن والشرور، لا فارق بين قارّة وأخرى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ **الروم/41**.

والسؤال الذي أجبنا عنه هو: أي هاتيك الشعوب أعصى على العلاج، وأيّها أدنى؟،

ثمّ أيّها «إذا شُفى من سقامه» أقدر على تكاليف النهضة الإسلامية؟ أو بتعبير أصرح أقدر على أعباء الثورة الإسلامية التي يطلب إليها أن تدرك عروشاً فاجرة، وأن تمحو مآثم طال عليها المدى؟؟.

السؤال الذي أجبنا عنه: أي البقاع يطلع فيها النور في أعماء هذه الظلمات؟.

ونحن نؤكد أنّ العرب وحدهم كانوا أولى من الفرس والروم بهذه الرسالة الضخمة..(انتهى كلام الشيخ محمد الغزالي).

تقويم وتقدير

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴿20﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ المرسلات/**20-21**، أي يختار الأمر المهين "بذرة الحياة البسيطة" يختار الحياة المتينة لتحميها وتصونها، فكيف الأمر بالنسبة للرسالة الخالدة، وهل الحامل سوى أمّة عظيمة الشأن والمقدار للقيام بهذا الدور الأجل الأعظم؟؟.

والخلاصة فالطور الذي دخل فيه العرب باحتضانهم الإسلام قد أنشأهم خلقاً آخر، وأدخلهم التاريخ من أبواب شتى، ثمّ استحكمت الوشائج بين العرب والإسلام، فأصبح يعرف بهم ويعرفون به.

ذلك أن العرب أدنى الناس إلى فقه الرسالة وإدراك مراميها[1]، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً﴾ الرعد/**36**.

وليس باستطاعتنا فصل الإسلام عن العروبة أو العروبة عن الإسلام فالرابطة التي تربطهما رابطة طبيعية كالرابطة بين نظام الأجرام السماوية وقوة الجاذبية[2].

وطبعاً فلا نعني هنا بالعروبة دماً مخصوصاً، بل نعني بها كل محيط بالعربية ضليع في آدابها، خبير بأسرار البلاغة وفنون الكتابة، يضاف إلى ذلك احتضانه في قلبه ووعيه وهمومه وهواجسه كل إسلام العرب وآمالهم.

ونحن بهذا المعيار نرى أبا حنيفة فقيهاً عربياً، وصلاح الدين قائداً عربياً، وسيبويه والزمخشري والرازي، علماء عرباً[1].

---

[1] – الشيخ محمد الغزالي: حقيقة الأمّة العربية وأسطورة البعث العربي، ص10 و11.

[2] – المرجع السابق، ص12.

ذلك أنه بظهور الإسلام، وباختيار العرب حمله له، واختيار لغتهم لساناً للوحي العلى وانتهاء صلة السماء بالأرض في هذه الرسالة الخاتمة، بهذا كلّه، أصبح للعروبة شأن آخر، شأن ضمان لها الكرامة والخلود[2].

---

[1] - الشيخ محمد الغزالي: حقيقة الأمّة العربية وأسطورة البعث العربي، ص15.

[2] - المرجع السابق، ص9.

سمات وخصائص العالمية الإسلامية الأولى

ويلاحظ أننا تكلمنا على انعكاس هذه العالمية على التكوين الشخصي والنفسي للأفراد، ثمّ صبغها المجتمع بطابعها الخاص المميز، وفي ذلك تحددت دراستنا فيما يلي:

- دراسة بعض النماذج الشخصية في العالمية الإسلامية الأولى.
- السمات العامّة للعالمية الإسلامية الأولى.

الفرع الأول

دراسة بعض النماذج الشخصية في العالمية الإسلامية الأولى

المطلب الأول:

عمير بن سعد أنموذجاً

أشرنا سابقاً إلى أن كلّ متر من أنفاق لندن وراء قصة أسرة من جامايكا دفن فيها حياً داخله، وكل عمود في قصورها من ورائها جراحات على مدى الإمبراطورية التي لم تكن تغيب عنها الشمس، مقابل ذلك كله بقيت حال يثرب كما هي مدينة الرسول ﷺ المتواضعة البناءات عند سفح أحد وبقيت مدينة مكة على حالها حتى أن عمر بن عبد العزيز رفض كساءها وقال لمن اقترح عليه ذلك: (البطون الجوعى أولى) بل لم يكن يرسل الولاة العرب شيئاً من عائدات الزكاة إلى خارج مناطقهم تقيداً بالقاعدة الإسلامية التي تقتضي بصرف الزكاة على فقراء المنطقة نفسها وأسوق هنا القصة نموذجية الآتية: ((استعمل "عمر بن الخطاب" "عمير بن سعد" على حمص والياً، ولما مضت السنة كتب إليه أن أقدم علينا، فلم يشعر إلا والرجل قد قدم عليه من حمص ماشياً حافياً عكازته بيده وأدواته ومزودته وقصعته على ظهره! فلما نظر إليه عمر قال: يا عميرا! أمرضت أم البلاد بلاد سوء؟! فقال: يا أمير المؤمنين! أما نهاك اللّه أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن، وقد جئت إليك بالدّنيا أجرها بقرابها، فقال له: وما معك من الدّنيا؟ قال: عكازة

أتوكأ عليها وأدفع بها عدواً إن لقيته.. ومزوداً أحمل فيه طعامي، وأدواة أحمل فيها ماء لشرابي ولطهوري، وقصعة أتوضأ فيها وأغسل فيها رأسي وآكل فيها طعامي فو اللّه يا أمير المؤمنين والدنيا بعد إلا تبع لما معي، فقام عمرﷺ محله إلى قبر رسول اللّه ﷺ، وبكى بكاءً شديداً ثمّ قال: اللهمّ ألحقني بصاحبي —الرسول وأبو بكر- غير مفتضح ولا مبدل.

وبعد هذا كلّه جلس ليحاسب عمير، قال له: ما صنعت في عملك يا عمير؟ قال: أخذت الإبل من أهل الإبل، والجزية من أهل الذمّة عن يد وهم صاغرون، ثمّ قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل فو اللّه يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأتيتك به، فقال عمر: عد إلى عملك يا عمير)) [1] .

بمثل هؤلاء الإسلام فتح حوض الحضارات وبمثل هؤلاء حكم فلم يحدث ذلك التطور القسري الذي انتهجته الحضارة العربية في تشييد هياكلها من عرق المستعمرات.. ولم يبنِ ابن العاص في مصر هرماً يخلد كمعجزة رابعة إلى جانب خوفو بعد أن يسحق شحنه الآلاف المستعبدين.. ولم يشيد "هارون الرشيد" برجاً يظاهر به برج بابل أو ينافس به برج إيفل، ولم يفكر أحدهم في مثل حماقة "تاج محل"[2].

كل ما يقال الآن عن أن الحضارة العربية الإسلامية لم تتواصل جدلياً حضارتنا كالحضارة الأوروبية للفارق بين طبيعة الحضارتين فقد جاءت تلك الحضارة

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص463.

[2] – محمد أبو القاسم حاج حمد: عمير بن سعد وجدلية التاريخ الاقتصادي والاجتماعي العربي.

إنسانية الاتجاه بحكم محتواها القرآني، فأبقت نفسها في حدود التطور الطبيعي «غير القسري» لقواعدها .

المطلب الثاني:

المقارنة بين خطاب الإمام أبي حنيفة وخطاب هنتنجتون

وحتى تتبين قيمة هذه العولمة التي تدعو إليها الولايات المتحدة وأذنابها، سنجري مقارنة بين خطاب الإمام أبي حنيفة وخطاب هنتنجتون مع الإشارة إلى موضوع الخطاب واحد، وسنرى بأم أعيننا الفارق بين الدعوتين والنظريتين في سلم القيم والاعتبار.

البند الأول:

خطاب الإمام أبو حنيفة

لا حاجة للقول بأنّ أبا حنيفة هو الفقيه المشهور صاحب المدرسة الفقهية التاريخية المشهورة، وقد أبرز رأيه حول وظيفة الإسلام في العالم، وذلك في رسالته **العالم والمتعلم في العالم**، قال المذكور: ((إنّ اللّه ﷻ إنما بعث رسوله رحمةً ليجمع به الفرقة، وليزيد الألفة، ولم يبعثه ليفرِّق الكلمة ويحرِّض الناس بعضهم على بعض))[1] .

---

[1] – النعمان بن ثابت **الامام أبو حنيفة**: العالم والمتعلم، نشر الكوثري، القاهرة 1368هـ، ص9، ووردت هذه الرسالة عند د. رضوان السيد: مفاهيم الجماعات في الإسلام، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، ط1، 1984، ص121.

إنّ هذه الوظيفة التوحيدية الإسلام هي التي تعطي لكل أمر آخر معناه المنطقي وسط المنظومة الشاملة، منظومة الاستيعاب والوحدة والتوحيد، وكان طبيعياً بعد هذا أن يزيل أبو حنيفة كل أسباب سوء الفهم فيما يتصل بعلاقة الإسلام، بالشرائع الأخرى، يقول أبو حنيفة[1]: ((إن رسل الله لم يكونوا على أديانٍ مختلفة، ولم يكن كلّ رسولٍ منهم يأمر قومه بترك دين الرسول الذي كان قبله لأن دينهم كان واحداً، وكمان كل رسول يدعو إلى شريعة نفسه، وينهي عن شريعة الرسول الذي قبله لأن شرائعهم كثيرة مختلفة))، ولذلك قال الله تعالى[2]: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً﴾ المائدة/**48**، ولو شاء الله لجعلكم أمّةً واحدةً (أي في الشريعة) وأوصاهم جميعاً بإقامة الدين «وهو التوحيد» وأن لا يتفرقوا لأنه جعل دينهم واحداً[3]: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الشورى/**13**.

فالدين لم يُبدّل ولم يُحوّل ولم يُغيّر، والشرائع قد غُيرت وبُدّلت لأنه ربّ شيء قد كان حلالاً لأناسٍ قد حرّمه الله ﷻ على آخرين.

هنا تأتي مهمة الإسلام التوحيدية لبني البشر والمؤمنين منهم على الخصوص، لقد رأى أبو حنيفة أنّ الدين واحد «هو التوحيد» والشرائع مختلفة، فإن اتفق آخرون مع المسلمين في الأصل فإن اختلافات الشرائع جزئية وعلى الفقيه أن يفهم هذا المعنى الوحدوي للإسلام المستوعب الذي يريد جمع الناس، وتوحيد المجتمع في الداخل من

---

[1] – النعمان بن ثابت **الامام أبو حنيفة**: العالم والمتعلم، 10- 11.

[2] – المرجع السابق، 11.

[3] – المرجع السابق، 11- 12.

مبدأ الاعتراف باختلاف الشرائع أي إمكان وجود شريعة اجتماعية أخرى غير الشريعة الإسلامية لفئات اجتماعية تعيش مع المسلمين في مجتمع واحد.

بل إنّ أتباع الإمام أبي حنيفة «سيراً مع فلسفة إمامهم حول معنى الإسلام» مضوا قدماً في هذا السبيل فقالوا إنّ أهل الكتاب الذين تحدث عنهم القرآن ليسوا النصارى واليهود فقط بل[1]: (كلّ من اعتقد ديناً سماوياً وله كتاب منزّل مثل التوراة وصحف إبراهيم وشيث وزبور داود..) هذا على الرغم من أنّ هناك آية في القرآن تُشعر بأنّ المقصود بأهل الكتاب اليهود والنصارى فقط[2].

هذا ونشير إلى أنّ أبا حنيفة ليبرالي عقلاني[3]، حسب تكييف الدكتور حنفي له، لكنه شتان بين ليبراليته وليبرالية هنتنجتون وغيره من الغربيين الملتصقين بحمأة الأرض وأدرانها.

---

[1] – محمد بن علي الحِصْني المعروف بعلاء الدين **الحصكفي** الحنفي: الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار، 3/370، عثمان بن علي، فخر الدين **الزيلعي**: تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، 2/110، منتهى الإرادات في جمع المقنع مع التنقيح وزيادات محمد بن أحمد الفتوحي تقي الدين **ابن النجار**، 1/329: ((ولا تعقد إلاّ لأهل الكتاب واليهود والنصارى، ومن يدين بالتوراة كالسامرة، أو الإنجيل: كالفرنج والصابئين، أو من له شبه كتاب كالمجوس))،

[2] – ﴿أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ **الأنعام/156**.

[3] – د. حسن حنفي ود. محمد الجابري: حوار المشرق والمغرب –نحو إعادة بناء الفكر القومي العربي، دار رؤية للتوزيع والنشر، القاهرة، ط4، 2005، ص9.

البند الثاني:

خطاب هنتنجتون

نود أن نركز على نقطة أساسية هي أن الإنسان أي إنسان لا يختلف سلباً أم إيجاباً عن سواه من البشر في محتده وأصله وجوهره وطبيعته الذاتية البشرية، وبالتالي فالحقيقة الإنسانية واحدة مردها ومرجعها أبوه آدم، قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: ﴿كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ﴾، وهكذا قد عادى العنصرية الفتو والاستكبار والتفوق التي سمعناها ونسمعها في التاريخ ليس لها ما يبررها من المنطق والعقل والدين والأخلاق، اللهمّ إلا الفضيلة والعمل الصالح الذي يقدم للإنسانية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ **الحجرات/13**.

وفي نظرنا إنّ خطاب "هنتنجتون" ليس إلاّ استمرار لخطاب النازية والفاشية بشكل آخر، والغرب يطالعنا بها بين حين وآخر ليبرر عنوه واستكباره ونهبه للشعوب.

يرى المذكور أنّ الصراع الذي يسود العالم حاضراً ومستقبلاً[1]، ليس بصراع إيديولوجي أو اقتصادي، وإنما هو صراع ثقافي، وربما كان الدين في العالم الحديث يمثل القوة المركزية التي تحرك البشر، وبالمقابل فما الحضارات إلا قبائل إنسانية كبرى، وبالتالي فالصراع الحضاري هو صراع قبائلي على النطاق العالمي والثقافي هي التي تمثل الأساس والمركز.

---

[1] – صامويل هنتنجتون: صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، سطور، ط2، عام 1996، ترجمة عام 1999، نيويورك NY، سيمون سوستر، مركز روكفللر، انظر تقديم الدكتور صلاح قانصوه للكتاب، ص10.

لكن كيف نفسر أن العالم قاطبة يسير في دروب التمدن ويأخذ بأسباب التقدم والحضارة، وأن قطار البشرية جمعاء يشق طريقه عبر كافة ضروب وأنواع الحضارات؟.

الجواب سهل وبسيط عند "هنتغجتون"، فهو يميز بين التحديث والتغريب، فالتحديث عام عند كلّ الشعوب رغم أنه غرس في تربة الغرب وانطلق من دياره[1].

ويبرز "هنتنجتون" العوامل التي أدّت إلى بروز وتميز الحضارات العربية في الآتي[2]:

1- التراث الكلاسيكي الإغريقي الروماني.
2- المسيحية العربية الكاثوليكية البروتستانتية.
3- اللغات الأوروبية.
4- الفصل بين السلطتين الروحية والزمنية.
5- حكم القانون.
6- التعددية والمجتمع المدني.
7- الهيئات التمثيلية.
8- النزعة الفردية.

[1] – صامويل هنتنجتون: صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ص11، ونقد الدكتور صلاح قانصوه لذلك.

[2] – المرجع السابق، ص12، ونقد الدكتور صلاح قانصوه لذلك.

الفرع الثاني

السمات العامة للعالمية الإسلامية الأولى

وسنتكلم في هذا الفرع عن المواضيع الآتية:

- الحق سمة أساسية في الحضارة العربية.
- البعد العالمي في الشخصية العربية.
- الأمّة العربية أمة غير قومية.

البند الأول:

الحق سمة أساسية في الحضارة العربية الإسلامية

محاضرة "الدكتور قسطنطين زريق":

إنّ الموضوع الذي أقوم ببحثه[1] واسع الأطراف معقد النواحي لأنه موضوع يتناول حياة جزء كبير من البشرية وما قدّمه هذا الجزء من خدمات إلى الحضارة الإنسانية خلال أعصر جديدة، وهذا الجزء من البشرية عريق في القدم، وهاهم علماء الآثار والمؤرخون يكشفون النقاب يوماً بعد يوم عن المآثر العظيمة التي قام بها العرب القدماء، وبفضل أبحاثهم أخذت الحجب الكثيفة التي حجبت شبه

---

[1] – د. قسطنطين زريق: محاضرة وسمت بالعنوان "الحضارة العربية" نشرت في الأبحاث، السنة 2، الجزء 1،آذار/مارس 1949، ص3- 221، وهي المحاضرة القيمة التي ألقاها بالإنكليزية في مؤتمر اليونسكو الذي انعقد في بيروت، وقد كنا حريصين على إفراغ المحاضرة بحرفيتها نظراً لأهميتها.

الجزيرة العربية أعصراً تنقشع، فظهر لنا أن بلاد العرب كانت في ما مضى إحدى المراكز الرئيسية للحضارة في العصور القديمة.

إنّ البذور التي بذرت في القدم السحيق، والتي أينعت في العصور القديمة والمتوسطة في المراكز العربية المختلفة، والتأثيرات التي كانت الجزيرة العربية عرضة لها من كل صوب، جميع هذه مهدت السبيل للنهضة العربية العجيبة في القرن السابع الميلادي، ففي هذا القرن خرج العرب من جزيرتهم وبوحي من تعاليم نبيهم محمد، ليؤسسوا إمبراطورية من أعظم إمبراطوريات العالم، ولينشئوا حضارة من أمجد الحضارات التي عرفها التاريخ.

كانت الحدود الجغرافية لهذه الحضارة تمتد من غربي الصين إلى المحيط الأطلسي ومن بحر قزوين إلى أواسط إفريقيا، وكانت اللغة العربية التي تعبّر عن روح هذه الحضارة اللغة المعترف بها كأداة لنشر الثقافة والعلم، وكان طلاب العلم والنور من جميع أنحاء المعمور يغدون زرافات إلى مراكز هذه الحضارة في سوريا والعراق وفارس ومصر والأندلس وغيرها وقد سرى أثرها شرقاً إلى بقاع شاسعة، وغرباً في مجارٍ مختلفة إلى أوروبا في العصور المتوسطة ممهداً السبيل، بالاشتراك مع عوامل أخرى، لعصر الأحياء ولقيام الحضارة الغربية الحديثة، وهذه الحضارة هي أس الحضارة التي تقوم عليها الحياة العربية الحديثة والتي تبنى عليها الشعوب العربية من إيران إلى الأطلسي، شعوب تحتل بقاعاً من أهم المراكز الاستراتيجية في العالم وطابع هذه الحضارة ظاهر في الشعوب الإسلامية في كلّ قطر.

ولا شكّ في أنكم تشعرون معي أنه لا يمكن أن نأتي خلال ساعة من الزمن على ذكر جميع النواحي لهذه الحضارة الغنية بثمارها، العريقة في قدميتها، الشاسعة في رقعتها الجغرافية، ولو أن لدينا من الوقت متسعاً لكان من الخير أن نساير مجرى هذه الحضارة مبتدئين من الينابيع المختلفة التي غذتها عبر الأقطار التي

جرت فيها فأحيتها وانهضتها إلى أن نصل إلى التيارات المتقاطعة والتشعبات المختلفة التي آلت إليها هذه الحضارة.

وفي رحلتنا هذه عبر الزمان والمكان نجد عند كل خطوة وعند كل منعطف ما يثير فينا حبّ الاستطلاع والبحث ولكن يستحيل علينا هذا، فإننا وإن قصرنا البحث على ما قدمته هذه الحضارة فعلياً إلى الحضارة العالمية، نجد أنفسنا أمام مجموعة من الحقائق المثبتة التي لا تحتاج إلى جدل، كما وإننا نجد أمامنا جملة من القضايا التي لا تزال عرضة للأخذ والردّ، فلا يمكن والحالة هذه أن نأخذ بالموضوع من جميع أطرافه، ولن نحاول في هذه المحاضرة أن نسرد بإسهاب قصة الحضارة العربية أو أن نأتي على ذكر خدماتها المتنوعة في حقل الفكر الإنساني.

الواقع أننا لا نرى لهذا ضرورة، فقد انقضى ذلك الزمن الذي كان فيه تاريخ الحضارة العربية محاطاً بالغموض، فقد هتكت بحوث العلماء المؤرخين من جميع الشعوب في القرن الأخير حجب الظلمة عن كثير من نواحي هذه الحضارة، فأصبحت بفضل جهودهم تحتل مكانتها السامية في تاريخ التطور الإنساني.

واليوم وقد أخذت معالم هذه الحضارة بالبروز إلى العيان، بدأ العالم، أو على الأقل العالم المتأدب المستنير يقرّ بما كان لهذه الحضارة من فضل، وإني أحيل منكم من يود الاطلاع على سير هذه الحضارة عبر التاريخ، بشيء من الإسهاب والإجمال إلى هذه الدراسات التي قام بها هؤلاء الأفاضل من العلماء، أمّا هدفي فهو النظر إلى الحضارة العربية في ضوء الأهداف التي جمعتنا معاً، بمنظار الرجل العصري الذي يسعى إلى توطيد السلام عن طريق التعاون الثقافي، لأنّ هذه هي الطريقة المجدية لمعالجة هذا الموضوع في الظرف الحاضر، وإني أسأل نفسي: ما هي رسالة الحضارة العربية لعالم اليوم؟ وما هي رسالتها بصورة خاصة لنا نحن ولحكوماتنا في سعينا الحثيث بواسطة اليونسكو لتوطيد السلم والتفاهم؟ هل في

تاريخ نمو هذه الحضارة وازدهارها ثمّ تقهقرها من العبر والعظات ما يسدّد خطانا فنأمن معها شرّ العثار في سيرنا في هذه المغامرة؟.

سأحاول الإجابة عن أسئلة كهذه، وأول حقيقة هي أن نهضة روحية رافقت إن لم نقل سبّبت نشوء الحضارة العربية، وقد بدت تباشير هذه النهضة في النصف الأخير من القرن السادس الميلادي، أو ربما قبل هذا الزمن، ولكن كان للنبي محمدﷺ أن يجمع تيارات هذا الوعي الروحي إلى تيار واحد، وكان جوهر رسالته وحدانية اللّه والإيمان برسله وأنبيائه الذين كان محمد خاتمهم، وكان وحي اللّه له خاتمة الوحي، وقد أذكت شخصيته في نفوس أتباعه ناراً وجعلت من أولئك الأشخاص العاديين قادة رجال، وبقيادتهم الحكيمة خرج العرب من جزيرتهم لينشئوا إمبراطورية من أعظم إمبراطوريات العالم وحملوا مشعل حركة دينية إلى شعوب مختلفة ينضم تحت لوائهم اليوم أكثر من 250 مليوناً من البشر.

إنّ جهود بعض العلماء الذين حاولوا أن يعللوا نشوء الحضارة العربية على أساس مادي محض، هي في نظري، جهود فاشلة، فقد نظروا إلى الفتوحات العربية التي قام بها العرب بعد خروجهم من الجزيرة بأنها لا تختلف بكثير أو قليل عن تلك الهجرات السامية من الجزيرة العربية التي كانت تفرضها الأحوال الجوية والعوامل الاقتصادية الخانقة، وقد بالغوا في وضع أهمية على عوامل الضعف والتفكك التي تميزت بها الإمبراطورية البيزنطية والفارسية آنذاك.

وهم إنما يريدون بذلك الانتقاص من مآتي العرب بوجه عام والتقليل من قيمة العوامل الروحية بوجه خاص، وفي رأيهم أن الفتوحات العربية ليست سوى مجرد حملات عسكرية اقتضتها العوامل الاقتصادية أو العوامل السياسية أو كلاهما معاً.

إن جميع هذه التفاسير التي قد يكون فيها ضمن نطاق معين، بعض الحقيقة لا يمكن أن تفسر الأسس الروحية التي قامت عليها النهضة العربية، ولا يمكن لتفاسير كهذه أن تطمس الحقيقة الناصعة وهي أن الحكم العربي والتصرّف العربي، والعلوم العربية والخلق العربي، جميع هذه كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالدين الإسلامي، وكانت جميع هذه المظاهر الروحية والفكرية تقدّمية خلاّقة منسجمة مع سير الروح العربية نحو مثل من الحياة أسمى وأشرق.

وقد كانت هذه المثل، هذه الرؤى خلال القرنين أو الثلاثة بعد موت النبي محمدﷺ قوة حيّة، وكانت حيوية الحضارة وقوة الإبداع في الإمبراطورية العربية على أشدهما، ولكن عندما خفتت الرؤى وعندما اكتنف المثل ما حجبها عن الأنظار أصبحت الحياة السياسية عند العرب كفاحاً مريراً بين دولة إسلامية وأخرى، أو بين الأحزاب والشيع والأعراق البشرية للوصول إلى الحكم والسيطرة، وكان هذا فاتحة عصر التجزؤ والتفكك.

وهذا يصدق على الدين الإسلامي نفسه، الذي كما أسلفنا سابقاً كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة العربية، وبالثقافة العربية، فقد كان الدين الإسلامي عندما كان محتفظاً بدوافعه وحوافزه الأصيلة، أشبه بخميرة تؤثر في النظام السياسي، وكان الدين يفتح أمام عيون الناس آفاقاً جديدة واسعة في الحياة العملية والتأملية، ولكن عندما اقتصر الدين الإسلامي فيما بعد على مجموعة المعتقدات التي يجب أن يتقبلها الناس عن طريق الإيمان الأعمى، وعندما استحال إلى مجموعة شرائع وقوانين أخلاقية تفرض على الناس لتطبق عن عماية وبقسوة فقد أصبح «كما يصبح أي دين آخر في ظروف كهذه» وقراً بدلاً من أن يكون وحياً، وقيداً يشل بدلاً من أن يكون قوة تُعتق، هذا التقيد الحرفي يقتل في المرء كل سعي وتقدم.

لا أرغب في مثل هذا الوقت أن أسلك مسلكاً شائكاً في التعليل التاريخي فأحاول أن أزيل ما علق من الأوهام في هذه الناحية من التاريخ العربي، وأعني بها العوامل

الروحية والمادية في الحياة العربية والحضارة العربية، فنحن نعلم اليوم أنّ الحياة الإنسانية كثيرة التعقيد وكثيرة العوامل، عامل يؤثر بالآخر، ونعلم أيضاً أنه لا يمكن لعامل واحد فقط «مهما كان ذلك العامل قوياً نشيطاً» أن يعلل ظاهرة الحياة بكاملها، ولكني أود أن أبين بجلاء «واعتقد أنني على صواب في ما أذهب إليه» أنّ الحضارة العربية، كأية ظاهرة تاريخية مشابهة لها، استمدت قوتها وإبداعها من إحياء روحي داخل في صدور الناس، وقد تجلى هذا الإحياء في مفاهيم جديدة للكون وللإنسان، في إيمان أرسخ، وفي آفاق أوسع، وفي ولادة ثانية للشخصية، الشخصية التي تحلم وتفكر وتنشئ حياة جديدة، ولكن ما إن نضب معين هذه الحيوية، ما إن جفّ نبع هذه القوة حتى أخذت هذه الحضارة بالأفول، وظلت قروناً هذه عدّتها في حالة سبات، وبكلام آخر إنّ قصة الحضارة العربية شاهد على تلك الحقيقة البسيطة الأساسية وهي أنّ الأمة إنما تحيا وتعيش بالرؤى (بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى) وبدونها تموت.

هل في درس تاريخ الحضارة العربية من عبرة لنا اليوم؟ ألسنا جميعاً نبدي اهتماماً بمستقبل المدنية الحديثة؟ مشكلة اليوم، لا بل مشكلة الساعة، هي هل بالإمكان إنقاذ المدنية من الدمار؟ أو بالأحرى إنقاذ الحياة الإنسانية نفسها؟ وهل يمكن حفظ القيم الإنسانية وضمان البقاء والاطراد لها؟ إن خطورة هذه المشكلة يجب أن تستحوذ على نشاط اليونسكو ومنظمة الأمم المتحدة، هل هذه المدنية الحديثة في حالة تقدم أم تأخر؟ في حالة نمو وازدهار أم تفسخ وتقهقر؟ هل نجد في الرجل العصري حافزاً روحياً؟ هل يؤمن بالقيم الفكرية والروحية ويحرص عليها؟ هل يترفع عن الشره والنهم للقوة وعن كلّ ما من شأنه أن يحطّ من قدر الكرامة الإنسانية؟.

اعتقد أنه يمكن أن نحصل على أجوبة أسئلة كهذه إذا تتبعنا بروية قصة الحضارة العربية.

إن خلاص المدنية الحديثة يتوقف على هذه الولادة الروحية، إذ يمكنا أن نوطد أركان السلم، ونضمن للبشرية وسائل الخير والتقدم ونستطيع أن نحتفظ بمثلنا العليا فقط عندما تتغير قلوبنا جميعاً رجالاً ونساءً، وإننا إذا عجزنا عن إحداث هذا التغيير في نفوسنا، فلا نفع للاتفاقات السياسية والمعاهدات العسكرية حتى والمؤسسات الشريفة التي نقيمها، كمؤسسات الأمم المتحدة، وأجرؤ أن أقول منظمة اليونسكو هذه، فإنها لا تجدي نفعاً.

قد تستطيع هذه المؤسسات أن تزيل أخطار الحروب ولو إلى فترة، ولكن لا يمكن أن تقضي على أسبابها، وكما أن الحضارة العربية في العصور المتوسطة ولدت أثر رؤى روحية جديدة، وعادت القهقري عندما فقدت هذه الرؤى، كذلك ازدهار المدنية الحديثة «بل كنه وجودها» يتوقف على مدى فعالية هذه الرؤى وأثرها في بعث النشاط ورفع الحياة الإنسانية إلى مراتب سامية.

لم تكن حوافز المدنية العربية وعواملها الخلاقة روحية فحسب، بل كانت عالمية في واقعها وفي غاياتها، أو ربما كان الصواب أن نقول إنها كانت عالمية النزعة بفضل صفتها الروحية، ففي نطاق المعتقدات نجد أن نقطة البدء فكرة وحدانية الله مبدع الكون ومالئه، الحاكم الذي يدين الناس حسب أعمالهم، وبيده أقدار الناس، كل شيء من صنعه وكل شيء رهن إرادته، هو مبدأ النظام والثبوت والنمو في الكون وفي الحياة الإنسانية، وقد يختلف الناس في أعراقهم وبلدانهم، ولكن يجمع بينهم ولاؤهم إلى الله الذي يربط بينهم ويجعل منهم أخوّة واحدة في الإسلام، فهنالك وحدة أساسية في البشرية، وحدة مصدرها وحدانية الله، مصدر كلّ شيءٍ.

نعم إنّ هذه الرابطة اقتصرت على أتباع الدين الإسلامي، ولكن هذا يصدق أيضاً على العالم المسيحي في العصور المتوسطة، فإن كلاً من هاتين الديانتين كانت نظاماً تاماً بنفسه، وكان أتباع الدين الواحد ينظرون إلى أتباع الدين الآخر أنهم

خارج الحظيرة، وكان هؤلاء يعتقدون أن من واجبهم تبشير أولئك وردهم إلى حظيرة الإيمان أو أن الواحد منهما كان يعتقد أن أقطار الآخر نهب له يفتتحها أنّى شاء، وهكذا نرى أنّ البشرية لم تكن موحدة لا في الواقع ولا في المعتقد، وبكلام آخر كانت النظرة إلى هذه الوحدة العالمية، أو الوحدة البشرية في العصور المتوسطة تختلف الواحدة عن الأخرى اختلافاً ظاهراً، ولكنني أودّ هنا أن ألفت أنظاركم إلى أنّ النظرة العالمية في هذين النظامين، الإسلام والمسيحية، كانت رغم الفروقات، واحدة في جوهرها، أو على الأقل كان التشابه بينهما أقرب بكثير مما كان بينهما وبين نظرتنا الفلسفية العصرية المادية في تعليل الكون.

ورغم المشاحنات التي وقعت بينهم، ورغم الجدل العنيف الذي وجدوا أنفسهم فيه، فإن المسلمين والنصارى كانوا يتفاهمون، أو قل كانوا أقرب إلى التفاهم مما يستطيع الواحد منا، نحن الذين اعتنقنا النظرة العصرية المادية أن يفهم أيّاً من هذين النظامين، وذلك لأنهم كانوا يصدرون عن المبادئ الأساسية نفسها وعن الذهنية نفسها.

فالحضارة العربية إذاً ضمن الإطار الذي حددناه، كانت تعكس نظرة فلسفية عالمية في جوهرها، وما دامت هذه النظرة مسيطرة، وما دام أبناء هذه الحضارة يشعرون أنهم مرتبطون بأواصر من الولاء المشترك الذي يرتكز على وحدانية الله وبالتالي على وحدانية الكون والإنسان.

أقول ما دام الواقع هكذا فإن الإمبراطورية التي أنشأها العرب ظلت محافظة على قواها الداخلية وعلى دوافعها التقدمية، وظلت الحضارة العربية تنمو وتبدع، غير أن أثر هذه النظرة العالمية الأساسية في الحياة الواقعية أخذ بالتقلص رويداً كما حدث لحضارات أخرى قبل الإسلام وبعده، فنشأ خصام مميت داخل الإمبراطورية العربية، فقام العربي ضد الفارسي والفارسي ضد العربي، وقل هذا عن بقية العناصر من تركية وبربرية ومغولية، وكان كلّ يحاول أن يستقلّ بالحكم

والسيطرة السياسية، وأخذت الأفراد والدويلات تناضل في سبيل الحصول على القوة والحكم وقامت المنافسات الحزبية والطائفية تحز في أسس الدولة.

وإني لا أرى ضرورة في سرد أسماء وتواريخ خيفة أن يثقل هذا على مسامعكم ولكن الحقيقة الأساسية التي أرغب إليكم أن تعيروها انتباهكم هي أنّ هذا الولاء الشامل العام، هذه النظرة العالمية تقلص ظلّها ليحل محلها نظرة ضيقة كان من نتائجها أن الحوافز الروحية أصبحت حوافز مادية تنشد الحكم والسيطرة بدلاً من أن تنشد أهدافاً سامية.

ولكن ينبغي أن أذكر أن هذا التراخي في النظرة العالمية وزوالها أخيراً من الحياة الواقعية، أثّر في النطاق السياسي أكثر مما أثّر في النطاق الثقافي، لأنه بعد أن دبّ الانقسام بين مختلف الأعراق والأحزاب والطوائف ظلّ ولاة الأمر على شيءٍ من التعاون الثقافي، والذي كانت السياسة تفسدهُ كانت الثقافة تُصلحه، وتطوّر الحضارة العربية يرينا أنّ هنالك وحدة أساسية في النشاط الفكري كانت تفوق وتسمو على الفروقات السياسية.

كان الرحالة الذي يطوف في الوطن العربي يمر في دويلات عديدة، وكان يأتي على وحدات سياسية عدّة «أحياناً في حالة حرب» ولكن أنّى ذهب، من أواسط آسيا إلى إسبانيا، كان يجد وحدة في الثقافة، ثقافة ذات لغة واحدة مشتركة هي العربية، وكان يشعر أن هنالك نظرة عالمية واحدة توحد بينهم، وإننا سنعود إلى بحث هذه الوحدة الثقافية فيما بعد.

أمّا النقطة التي أريد أن أجملها الآن وهي الحقيقة الأساسية الثانية عن الحضارة العربية والتي لها مغزاها البعيد في هذه الآونة هي أن صمود الحضارة العربية وإبداعها مرتبطان بنظرتها العالمية، وكان هذا الصمود والإبداع يتناسبان وفعالية هذه النظرة وقوتها في نطاقي السياسة والثقافة، فهل لهذه النتيجة التي توصلنا

إليها علاقة أو صلة بالمدنية الحاضرة؟ هل المدنية العصرية عالمية في روحها حقاً؟ في بعض نواحي الحياة، مدنيتنا العصرية عالمية موحدة، فهاك التقدم العجيب في الآلة والتغلب على المسافات الشاسعة، وتعميم وسائل النقل والإذاعة، ونواحي أخرى عديدة من تقدمنا الآلي العجيب، جميع هذه عوامل فعالة تعمل معاً لتوحيد الحياة والثقافة، ولوضع مقاييس موحدة مشتركة، ولكن هذا التوحيد في الحياة وفي المقاييس يعمل في المستوى الخارجي المادي الوضيع للحياة، ففي الوقت ذاته نرى أنّ المصالح القومية والعنصرية والطبقية لا تزال قوية، إن لم نقل أقوى مما كانت عليه، ونجد أن الشعوب تستغل هذه القوى الآلية لتوسيع الفجوة بين البشر ولزيادة التوتر بين العناصر المختلفة، وبذا ينقادون إلى حروب أشد هولاً ويجرّون البشر معهم إلى شفير الخراب والهلاك المحقق.

إنّ النظرة العالمية التي نحن بحاجة إليها يجب أن تكون على مرتبة فكرية روحية أسمى، يجب أن تكون نظرة عالمية واحدة في جوهرها تتغلغل غايتها إلى صميم وعي الشعوب في العالم وتكون الحافز في حياتهم السياسية وتصرفاتهم العادية، هذه في نظري هي العبرة التي يمكن أن نعتبرها من دراسة الحضارة العربية أو أية حضارة أخرى من حضارات العصور المتوسطة، وإذا كانت النظرة العالمية لتلك العصور الخوالي لا تروق للفكر الحديث، فحريّ بنا أن نبذل قصارى الجهد في إيجاد الأسس لنظرة عالمية جديدة عصرية وأن نتبناها، ونعمل على رقيها ونشرها في العالم كله، هذا في نظري الوضيع شرط من شروط الرقي الأساسية، الرقي الذي هو حياة الحضارة، وهذا هو المقياس الذي به يجب أن نحكم على قيمة الجهود التي نبذلها كأفراد وأمم وعلى مدى الخدمات التي تسديها مؤسساتنا من العائلة إلى منظمة الأمم، وأخص بالذكر منظمة اليونسكو التي أخذت على عاتقها مهمة توجيه النشاط القوي في حقل التربية والعلم والثقافة، لتوطيد السلم ورفع شأن الحرية والكرامة الإنسانية.

لم تكن هذه النظرة العالمية التي تميزت بها الحضارة العربية ترتكز على وحدانية اللّه وأخوّة الأفراد الذين اعتنقوا الإسلام وحسب، بل على وحدانية الحق، لم يكن الحق في نظر فلاسفة العرب ذاتياً ونسبياً بل كان موضوعياً ومطلقاً، وواجب الإنسان أن يعرف الحق ويسير مع الحق ويبقى مع الحق والمعرفة، الحق عند مفكري العرب سبيلان:

السبيل الأول الوحي، بواسطة كلام اللّه الموحى به إلى النبي محمد كما هو في القرآن، والسبيل الثاني الحكمة والفلسفة التي وضعها القدماء ولا سيما أفلاطون وأرسطو، والحق في نظرهم واحد سواء عرفه الإنسان من طريق الوحي أو من طريق الفلسفة، وواجب الإنسان أن يعرف الحق معرفة تامّة، وهذا هو السبب الذي دفع العرب إلى إبداء ذلك النشاط العجيب في طلب العلم والتعليق عليه ومحاولة التوفيق بين السبيلين، وطبيعي أن يكون هنالك متصرفون من أبتاع هذه الطريقة أو تلك لم يتبعوا هذه الطريقة المثلى في معرفة الحقّ.

فقد كان هنالك فلاسفة حاولوا أن يفسروا النصوص الدينية تفسيراً مجازياً، وكان هنالك محدّثون ورجعيون يقولون أنّ الفلسفة وثنية في جوهرها مفسدة للمعتقدات، ولكن رغم وجود هذه الطغمة فقد كان الفكر العربي الفلسفي واللاهوتي يرتكز إلى وحدة الحق الجوهرية سواء كان التوصل إليه عن طريق الوحي أو عن طريق الفلسفة، وقد حاول مفكرو العرب أن يظهروا هذه الوحدة الأساسية للحق.

وهكذا نجد أن الفلسفة العربية كاللاتينية، كانت تهدف إلى التوفيق وإلى التركيب Synthesis وقد عكف فلاسفة العرب ولاهوت يوهم على طلب الحق المطلق العام في مظاهره المختلفة، وبما أن الحقيقة واحدة فالحق يجب أن يكون واحداً.

ما أحوج عالم اليوم المجزأ فكرياً وخلقياً، العالم الضائع بين النظرات والمتقدات المختلفة المتضادة إلى أن يعتبر بهذه العبرة، هذا الانقسام، هذا التجزؤ الذي نشهده

في العالم اليوم سببه محاولتنا معرفة الحق عن طريق الذاتية الخاطئة وتجزئة الحق الذي لا يتجزأ وفضلاً عن الفلاسفة وعلماء الدين كان هنالك جماعة من المتصوفة التي كانت تؤكد وحدانية الله والبشرية والحق، كان أولئك المتصوفون يحلقون في عوالم الروح، وكانوا يمثلون أعلى ما توصل إليه الإبداع في الدين، كانوا في تفكيرهم يرتفعون عن حرفية المعتقدات والشرائع وكانوا يرون في الشخصية الإنسانية وحدة تامة، كانوا يضعون الحب في مرتبة أعلى من الإيمان، وكانوا عالمين في تشوقهم إلى الحياة الفضلى، كانوا يرون في هذا العالم المتعدد المظاهر حقيقة واحدة هي الله.

قال أحدهم: ((اللّهمّ أني لا أنصت إلى صراخ الحيوان أو حفيف الأشجار أو هدير الماء أو زقزقة العصافير أو إلى هبوب الريح أو قصف الرعد دون أن أشعر أنها شاهد على وحدانيتك وبرهان على أنك أنت لا شبيه لك)).

كانوا يؤثرون الاختبار الروحي ويفضلونه على الشرائع والمعتقدات، فكانوا يتقبلون الحق من أي مصدر جاءهم وكانوا بعملهم هذا يؤكدون وحدانية البشرية بقطع النظر عن الأديان والحدود التي تفرق بينهما، قال ابن العربي:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعىً لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف	وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجّهت	ركائبه فالحب ديني وإيماني

إننا نجد في هذا التشوّف الصوفي صفة من أجمل ما تتصف به الحضارة العربية أو بالأحرى الإسلامية أو أية حضارة خلاقة أخرى.

ونجد فيه أيضاً أفضل شاهد على أن ثماراً كهذه لا يمكن أن تنمو إلا في تربة مشبعة بالنظرة العالمية، بالإيمان الراسخ في وحدانية الله والبشرية والحق.

وهنا أيضاً نجد أن لنتائج الحضارة العربية مغزىً عميقاً في حياتنا الحاضرة، فإن تاريخ هذه الحضارة يُظهر لنا بجلاء حقيقة الينبوع الذي كانت تستمد منه الحياة والقوة والمتعة، فتحاول، إن كنا جادين، أن ننهل من هذا الينبوع فتعيش بمائه ما كاد يذوي كان لهذه النواحي في الحضارة العربية التي جئت على ذكرها باقتضاب «أعني الدوافع الروحية والنظرة العالمية والإيمان الراسخ بوحدانية الحق» أثر بعيد الغور في واقع الحياة، وأبلغ أثر هو الروح التعاونية التي اتصفت بها الثقافة العربية فإنه عندما خرج العرب من جزيرتهم إلى البلدان وريثة الحضارة المتتابعة التي نشأت في تلك البلدان، والتي تعود بتاريخها إلى فجر التاريخ، واستقروا فيها، لم يقضوا على تلك المدنيات، ولم يستأصلوا شأفتها كما فعل غيرهم من الفاتحين قديماً وحديثاً، بل على عكس هذا فإنهم بعقل نير وروح سمحاء شجعوا على استمرار نمو تلك المدنيات وهيأوا أوضاعاً من شأنها توحيد هذه المدنيات في مدينة واحدة.

والواقع أن الحضارة العربية ليست من نتاج شعب واحد بل هي مشروع تعاوني اشتركت فيه مختلف الأعراق البشرية ذات الحضارة والديانات المختلفة، نصارى ويهود، عرب وآراميون، فرس وأتراك، بربر وغيرهم كثير، وجميعهم اشتركوا في هذا المجهود المشترك، وكل أمّة قدمت ما تميزت به حضارتها، فكانت خدمات العرب تنحصر في الناحية الدينية، في الحافز الروحي الذي يتجسم في الدين الإسلامي، وكذلك في الناحية اللغوية، فإن عبقرية اللسان العربي استطاعت أن تجعل من نفسها أداةً للتعبير عن هذه الحضارة، وأخيراً تميزت خدمات العرب لهذه الحضارة في الذوق الأدبي المرهف، أما الفرس فإنهم قدموا نظام الإدارة والفنون الأدبية والفن، وكانت خدمات الهند في حقل الحكمة والفلسفة وعلم الفلك والرياضيات،

أما الشعوب النصرانية التي كانت تتكلم السريانية والقبطية في سوريا والعراق ومصر، والتي كانت تأثرت بالروح الهلينية إلى حدٍ بعيد، فقد خدمت هذه الحضارة العربية في حقل الفلسفة واللاهوت والعلوم الطبيعية، وكذلك البربر واليهود والإسبانيون والمستعربون تعاونوا مع العرب وتحت رعايتهم أنشأوا تلك المدينة العظيمة في الأندلس، وهذا يصدق أيضاً على صقلية، وجنوبي إيطاليا وأواسط آسيا وعلى جميع الأصقاع التي وقعت ضمن حيّز الحياة العربية، وهكذا نرى أن الإقليمية والانكفاء الذاتي ليسا على شيء في التقليد العربي، ولو أنّ العرب كانوا على شيء من هذا لما نشأت حضارة عربية، ويجب أن نضيف إلى قائمة الخدمات الملموسة التي قدمها كل شعب من هذه الشعوب عناصراً أخرى فعالة هي الحياة الاجتماعية عند كل مجتمع والأساليب التفكيرية والمبادئ الخلفية والتباين في طبائعهم وأمزجتهم، مما أغنى الحياة العربية وجملها واشتراك هذه الشعوب في كل نشاط ثقافي، وفي كل ناحية من نواحي الحياة العادية اليومية، حتى وإن كانوا مختلفين سياسياً، يظهر جلياً في طبيعة العلوم العربية في الفلسفة وفي العلوم الدينية، وفي فن البناء وفي الفنون اليدوية وفي كل مظهر من مظاهر الثقافة والحضارة.

وهنا أرى نفسي مجبراً أن أدحض صحّة انتقادين يوجهان إلى الحضارة العربية ويستهدفان الانتقاص من مفاخر هذه الحضارة.

الانتقاد الأول: هو أن هذه الحضارة مزيج مزعج من عناصر مختلفة جُمعت معاً دون أي ترتيب أو نظام، وإني آسف أن ليس لدي من الوقت متسع لرد هذا الادعاء بإسهاب، ولكن نكتفي بالقول إنه لو كان هذا الادعاء على شيءٍ من الصواب، لاستحال أن تكون الحضارة العربية خلاقة مبدعة.

ولما كان بالإمكان لهذه الحضارة أن تؤدي خدمات، لا ينكرها إلا كل مكابر، في العلوم والفلسفة والفنون، خدمات يقرّ بفضلها علماء العرب أنفسهم، لو لم تكن

هـذه الحضـارة علـى أسـاس مـن الوحـدة في النظريـة وفي المجهـود وفي النتـائج، فالحضارة العربية أشبه بنسيج تام الصنع حيكت خيوطه من ألـوان مختلفـة، فهـي ليست مزيجاً بل مركباً فيها وحدة، والوحدة هي أس القوة والإبداع في الحضارات كما هي في حياة الأفراد والجماعات.

أما **الانتقاد الثاني**: فموجه إلى العـرب أنفسـهم، يقولـون مـا هـي الخدمات التي أداها العرب أنفسهم في إنشاء هذه الحضارة؟ إنها تكاد تكون من صنع شعوب أخرى، ورداً على هذا أقول أننا لو تغاضينا، ولو إلى برهة، عن خدمات العـرب في إنشاء هـذه الحضارة أعني الإحياء الروحي الذي هـم بدأوا بـه، وعبقرية اللسـان العربي، والمقدرة على التعبير عن مُختـر الاختبـارات بلغـة نثريـة أو شـعرية واضحـة محبوكة.

وخدمات أفـراد مـن العنصـر العربـي، في مختلـف الصـنائع والفنـون، أقـول أننـا لـو تركنـا هـذا جانبـاً فـإنني لا أتـردد عـن القـول هنـا، وفي جـو اليونسـكو، أنـه وإن يكـن العرب لم يقدموا شيئاً واحداً لإنشـاء هـذه الحضـارة العربيـة، فكفـاهم فخـراً أنهـم هـم الـذين أحيـوا الـروح الـتي خلقـت هـذه الحضـارة، وهـم الـذين هيـأوا الظـروف والأحـوال الملائمـة لجمـع هـذه الشـعوب معـاً لتشـترك في مجهـود روحـي فكـري مشترك، فـالعرب أنفسـهم هـم الـذين شـيدوا إمبراطوريـة علـى أسـس مـن التسـامح وهم الذين فتحوا أبواب دمشق وقرطبة، وبغداد وغيرها مـن المدن في وجه العلمـاء مـن جميـع الأعـراق والملـل، وهـم الـذين استحضـروا العلمـاء مـن أقاصـي المعمـور وتنافسوا في اقتناء الكتب وإدخالها إلى بلدانهم، وهم الذين فاخروا برعاية الصنائع والفنون والأنفاق عليها بـدون تمييـز أو محاباة، هـذا وحده في نظـري خدمـة جلـى أسـداها العـرب، خدمـة أسمـى مرتبـة ممـا يسـتطيع أمـرؤ أن يسـدي إن في حقـل الفلسفة أو العلوم أو الفنون، ويحسن بنا اليوم أن نقتدي في جهودنـا الثقافيـة بهـذه الروح النبيلة التي اتصف بها العرب، واسمحوا لي أن أضيف شـيئاً آخـر باقتضـاب كلـي «إذ لـيس لـدينا مـن الوقـت متسـع للإسـهاب في هـذا الظـرف» وهـو أن أولئـك

الذين يتهمون العرب سفهاً بالتعصب الذميم يجهلون حقيقة الروح العربية تمام الجهل، أو أدهى من ذلك أنهم يحاولون إخفاء تعصبهم باتهام غيرهم به.

في بدء محاضرتي قلت لكم إني لن أوقر أسماعكم بالإسهاب أو التفصيل الممل في ما يتعلق بخدمات الشعوب العربية وتقدماتها للحضارة، ولكن استميحكم عذراً إن عدت فذكرت لكم لماماً بعض ما أسدوه، وهدفي في ذلك أولاً أن ألفت أنظاركم إلى المرتبة التي يجب أن تتبوأها الحضارة العربية في تاريخ الفكر الإنساني، وثانياً لأتخذ شاهداً من هذه الحضارة العربية نفسها على ما يمكن جنيه من الفوائد الجمة إذا ما بُعث في قلوب الناس إحياء روحي، ونظرة عالمية وإيمان بوحدانية الحق، ونزعة للتعاون الصادق.

ولنبدأ بالحياة العادية اليومية، ولنعتبر ما أسدته الحضارة العربية لرفع المستوى المادي في العالم في حقلي الزراعة والصناعة قبل أن استطاع الغرب أن يحدث ثورته الآلية، في اللغة شواهد عدة فاعتبروا مثلاً الكلمات الأوروبية التي ترجع بأصلها إلى العربية، وإن لم يكن بعضها عربي الأصل، فإن للعرب الفضل بتعميمها ونشرها، فكلمة الأرز والقطن والسكر والنارنج والليمون والسمسم جميعها ترد إلى كلمات عربية أو معربة، فكلمة (Apricot) دخلت أوروبا عن طريق إسبانيا من كلمة عربية البرقوق(وهذه دخلت العربية من اليونانية) وغيرها كثير وإن دلت هذه على شيءٍ فعلى مدى أثر الزراعة العربية ونتاجها في العالم الغربي، ويصدق هذا على حقل الصناعة فكلمة (Muslin) نسبة إلى نسيج موصلي، و(Damask) نسيج ينسب إلى دمشق، و(Atlas) نسيج ناعم أصلاً طيلسان، و(Sofa) مأخوذة عن صفة، وغيرها كثير من مختلف أنواع الأقمشة والأصبغة والعطور والمعادن والزجاج والحاجات المصنوعة من الجلد المدبوغ والأثاث وأدوات الزينة.

وفي تجاربهم وأسفارهم الاستكشافية أوغل العرب وإخوانهم المسلمون من غير العرب في أقطار نائية فكانت قوافلهم تجتاز صحارى آسيا وإفريقيا وجبالهما، وكانت تمر في شرقي أوروبا وجنوبها الغربي حاملة البضائع من قطر إلى قطر آخر في العالم المعروف آنذاك، وكانت سفنهم تمخر مياه شواطئ بحر الروم وشواطئ القارة الإفريقية والأوقيانوس الهندي إلى موانئ الصين شرقاً ناقلة البضائع بين بلد وآخر، وكان في هذا التبادل التجاري تبادل في الفكر والثقافة وكانت هذه الأسفار تزيد في المعلومات الجغرافية والبحرية في تلك الحقب، والعثور على قطع من النقود العربية في أقطار بعيدة كالبلاد الاسكندنافية شاهد على مدى النشاط التجاري الذي قام به العرب.

وقد أبقى لنا العرب في الفنون الجميلة آثاراً خالدة، جوامع ومدارس وقصوراً وبنايات مختلفة منتشرة بين فارس والأندلس، وخلقوا لنا ذخيرة ثمينة في حقل الزخرف الدقيق وفي نواح أخرى من فن البناء الشرقي الذي ترك أثراً بعيداً في البناء الغربي كما يظهر في بقاء كلمات كهذه (Arabesque) نقوش عربية دقيقة، (Alcove) القبة، (Ogive) الأوج وهذه كلمة فارسية الأصل وغيرها في اللغات الأوروبية.

ويجب أن نضيف إلى هذه جميعها ما أظهروه من مقدرة فنية في الصنائع اليدوية، وفي المعادن والجلد، والعاج والزجاج، قال أحد أدباء العرب: "إنها لم تكن إرثاً بل كانت أشبه بمعين منه الفن الغربي سنة بعد أخرى[1]".

أما في حقل الموسيقى فقد أثبتت الدراسات التي قام بها كل من "ريبيرا Ribera وفارمر Farmer"، إن خدمات العرب في حقل الموسيقى سواء من الوجهة النظرية

---

[1] - A.H. Chrstie,The Legacy of Islam, P151.

أو العملية بعيدة الأثر، فإنه فضلاً عن الموسيقى الخاضعة للمقاييس التي يعتبرها "فارمر": ((أعظم إرث خلفه العرب لأوروبا))[1]، لدينا كلمات تعود بأصلها إلى كلمات عربية أشباه lute (العود)، وQuitar (القيثارة)، وRebec (الربابة)، تشهد بما للعرب من فضل في هذا الحقل، ومعلوم أن الشعر الغنائي يتمشى جنباً إلى جنب. والبحوث الأخيرة في حقل الشعر أظهرت ما كان للموشح العربي من أثر في شعر جماعة التروبادور (Troubadours) خاصةً، وفي تحرير الخيال الغربي من ربقة العصور المظلمة عامةً، وأخيراً ما كان له من أثر في ازدهار الشعر الأوروبي الشعبي والموسيقى الشعبية في العصور المتوسطة.

وأخيراً تُذكّر بخدمات العرب في المعارف الإيجابية: في العلوم الطبيعية والفلسفة وعلوم الدين، وإن نظرة عجلى في مؤلف "جورج سرطون" **القيّم المدخل في تاريخ العلوم** تكفي لحملنا على إبداء إعجابنا بفضل هذه الخدمات وإحلالها المحل اللائق بها في تاريخ الفكر البشري، ويكفينا هنا أن تُذكّر بحقيقة لم تعد مجهولة وهي أن العرب حفظوا ونقلوا إلى الشعوب اللاتينية، التي كانت قد انقطعت صلاتها الفكرية بالعالم الإغريقي القديم، الجزء الأكبر من العلوم الطبيعية والفلسفية عند الإغريق، ولم يقتصر عملهم على حفظ ونقل العلوم الإغريقية وحسب بل أضافوا إليها ما اكتسبوه من معارف الشعوب الآرامية النصرانية والوثنية ومن الفرس ومن اليهود.

وحسب العرب فضلاً أنهم درسوا هذه الذخيرة من المعارف وشرحوها وعملوا عليها (وقد عدت الشعوب اللاتينية الغربية أحد هؤلاء الشراح، ابن رشد أعظم مفسر وشارح لأرسطو)، وإنهم أضافوا إلى جميع هذه المعارف والعلوم ما قاموا به أنفسهم من بحوث ودراسات، ففي حقل العلوم نجد أن بدء علم الجبر وعلم

---

[1] - H. Farmer, The Legacy of Islam, P 372.

الكيمياء يعود الفضل الأكبر فيه للعرب، وكلمتا "جبر" و"كيمياء" تشهدان على صحّة هذا، والعرب هم الذين عرّفوا الغرب إلى الأرقام الهندية التي أصبحت عندهم معروفة بالأرقام العربية اقراراً بفضلهم، وأرصادهم الفلكية أثر خالدٌ، يشهد بذلك أسماء نجوم عديدة دخلت اللغات الغربية عن طريق العربية مثل "Acrab" (العقرب)، "Algedi" (الجدي)، "Altair" (الطائر)، "Demeb" (الذنب) وغيرها كثير، ومصطلحات تشكل القسم الأعظم من منهاج الدراسة الطبية في جامعات العصور المتوسطة فإن كتاب القانون لابن سينا ظل، كما يقول أوسلر: "توراة الطب إلى مدة أطول مما ظلّ أي كتاب طبي آخر"، كثير من المعلومات الطبية ومعلومات علمية أخرى انتقلت من العرب إلى الغرب اللاتيني وكان لها أثرها في مجموع المعارف الإيجابية التي هي المقياس الأول والأخير للتقدم البشري، والتي تشكل جوهر التاريخ الإنساني، وأخيراً في حقلي التاريخ والاجتماع لدينا مقدمة ابن خلدون المشهورة التي ضمنها هذا العالم الكبير، الذي عاش في القرن الرابع عشر، ولأول مرّة في التاريخ، مبادئ النقد التاريخي الصحيحة وطريقة تفهم التاريخ تفهماً صحيحاً، أمّا المرتبة التي يحتلها ابن خلدون في تاريخ الفكر فيقول فيها الأديب الإسباني التمير "Altamira": ((كان يجب أن يكتب في القرن الرابع عشر، عندما كان علم التاريخ في أوروبا بدائياً يتسكع وراء نظريات ابن خلدون في التاريخ، كتاباً كالمقدمة التي حاول فيها مؤلفها أن يحدد القضايا التاريخية ويعالجها بطريقة أصبحت في ما بعد الأسلوب الذي يتبعه مؤرخو العصر الحديث)).

وأثمن الخدمات العلمية الملموسة روح البحث والاعتماد على العقل، الميزتان اللتان تميز بهما الفكر العربي في طوره الإنشائي الخلاق، واللتان كان لهما بعيد الأثر في بعث الفكر العربي، لنُصغِ إلى "أدلارد Adelard of Bath"، أديب انكليزي من أدباء القرن الثاني عشر تثقف على أيدي أدباء العرب في إسبانيا وسوريا، يخاطب

ابـن أخ لـه درس في جامعـات فرنسـا : ((إنـني، والعقـل رائـدي، تعلمـت شـيئاً مـن أساتذتي العرب بينهما أنت تعلمت شيئاً آخر، فغن مظاهر السلطة الدينية بهرت عينيك وقيدت رأسك بعنان، وهل يمكن أن نسمي هذه السلطة بغير عنان؟ إن اللّه أعطى الناس العقل ليكون هادياً فيتميز الحقّ عن الباطل))[1] .

هـذه خدمات العـرب للتقدم والرقـي الإنسـاني، استعرضـها باقتضـاب، أمّا أولئك الذين يقرون بوجود شيء اسمه الحضارة العربية، فإنهم ينظرون إليها كما نظرت أنا في محاضرتي هذه، من جهة أثرها في العصور المتوسطة في الغرب وبالتالي في مجمل الثقافة الإنسانية، ولكنني أبعد أكثر من هذا فأقول حتى وإن لم يكن للحضارة العربية من أثر في ثقافة العصور المتوسطة والحديثة، فغن هذا لا ينتقص من قيمتها إذ ستبقى هذه الحضارة غنية بمعناها، إذ أنها تمثل جهود شعوب عديدة مختلفة الأعراق والديانات والذهنيات في تشوفهم إلى حياة فضلى وفي سعيهم لمعرفة كنه الكون والإنسان، تلك الفكرية الروحية التي سعوا إلى حلّها هي القضايا نفسها التي تجابهها كل حضارة وكل ثقافة، وما قاموا به من مفاخر، وما ارتكبوه من هفوات، وما سموا به إلى العلاء، وما انحدروا به إلى الحضيض، في كل هذا تذكرة لمن يذكر، وعبرة لمن يعتبر، إذ في تاريخ العرب تتجلى لنا الطبيعة الإنسانية بما تتصف به من صفات وبما يلابسها من نقائض، ومن هذه الناحية يمكن اعتبار الحضارة العربية شاهدٌ على وحدانية البشر ووحدانية الفكر الإنساني والروح الإنسانية هذه هي حقيقة الحضارة العربية، وهذا هو مغزاها، حاولت أن استعرضها لديكم، وهي أمور على غاية البساطة ولكن في الوقت ذاته على كثير من الأهمية، ولكن بساطة هذه الحقائق يجب ألا تثير فينا الشك في

[1] – Bernard Leris: British contributions to Arabic studies, London, British, 1941,P4.

صحّتها لأن الحقيقة، عند التحليل الأخير بسيطة جداً، هذا إذا استطاع المرء أن ينظر إلى الحقيقة خلل ما يكتنفها من سحب الجهل والفوضى.

حاولت أن أبيّن أنّ الإبداع الذي اتصفت به الحضارة العربية كان نتيجة دافع روحي، ونظرة عالمية شاملة، وإيمان راسخ بوحدانية الحقّ وروح تعاونية سمحاء، وحاولت بطريقة سطحية أن أرى أنّ ثمرات هذا الإبداع ظهرت بشكل خدمات معيّنة للثقافة الإنسانية، وبشكل أعمال واختبارات فكرية روحية، آملاً بعملي هذا أن نستمد من دراستنا الحضارة العربية درساً يفيدنا نحن الذين نُعْنى بأمر مدنيتنا الحديثة ونسعى لإيجاد سبيل لإنقاذها من مصير محتم.

ولا بدّ لي الآن من كلمة أقولها في الحاضر والمتوقع: كان للحضارة العربية دور نمو وإبداع وفخار، ثمّ إنها كسائر الحضارات اعتراها الوهن فالتفكك، إذ بعد قرنين من الاتحاد والتوسع تجزأت الإمبراطورية إلى دول مختلفة وإمارات مستقلة، وأخذت المصالح الفردية والدولية والعنصرية، والإقليمية تنخر في عظم الأمّة فتقضي على الأهداف المشتركة والمثل العليا.

فلم ينقضِ وقت طويل حتى انقضت عليهم جحافل بربرية من الشرق، جحافل تعقب أخرى «جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك وغيرهم» موغلة في التقدم إلى قلب الدولة للقضاء على حياة الأمة واستئصال طابعها، وكان الغرب في هذه الأثناء يتمخض عن إحياء روحي جديد، وعن ثورة فكرية إصلاحية جديدة بسبب التحرير الفكري وبسبب الرجوع إلى التراث الهليني القديم، والفضل في هذا الإحياء والإصلاح يرجع إلى حدّ بعيد إلى العرب أنفسهم، وكان من نتائج النجاح الذي حالت الشعوب الغربية في تسلطها على قوى الطبيعة وتسخيرها، أنّ هذه الحضارة الغربية اتسعت فشملت «على الأقل في نواحي حقل العلوم الطبيعية وفي السياسة والاقتصاد» العالم بأسره تقريباً، وبعد سبات كانت مدته 400 سنة أخذ

الشرق العربي في القرن الأخير يستيقظ من جرّاء وقع هذه الحضارة الغربية وراح ينشد الاستقرار والتقدم في هذا العالم الحديث الزاخر.

وإني لن أتعرض في هذا المقام لذكر ما يجابه الوطن العربي الآن من مشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، مع علمي أنها جميعها على غاية من الخطورة ليس للعرب وحدهم بل للمجتمع أجمع، ولكني أرغب في أن أحصر همي في مشكلة هي أعمق وأشمل أعني الحضارة بمعناها المطلق، إذ يبدو لي أنّ المشكلة الأساسية التي نجابهها اليوم والتي تشمل كل مشكلة أخرى هي: أي مكان تحتله حضارة عربية جديدة في عالم اليوم أو عالم الغد؟ أو قد نسأل سؤالاً يجب أن يسبق هذا وهو: هل يمكن قيام حضارة عربية في عالمنا الحديث؟.

الجواب سهل، إن إمكانية قيام حضارة عربية، أو أيّة حضارة أخرى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الحضارة بأجمعها، فإن التقدم الآلي العظيم قد وحّد الأقاليم وجمع بين الشعوب فمصيرها من الآن وصاعداً واحداً، وسيكون هنالك إما عالم واحد أو لا يكون عالم، وستكون هنالك حضارة واحدة أو لا تكون هنالك حضارة.

تقوم الحضارة على ما قامت عليه الحضارة العربية

أولاً: الدافع الروحي، فإن هذا العالم الحديث الذي وصل إلى هذا الرقي الآلي والذي تسيطر عليه فلسفة القوة وليس فلسفة الحقّ والشرع، والذي تسود فيه المصالح الفردية لا المبادئ العامة، الشهوة والحرص لا المحبة والسخاء، أقول إنّ عالماً كهذا يسير إلى الهلاك حتماً، عالم كهذا لا يكون فيه للعرب نصيب ولا لأي شعب آخر عظم أم صغر.

ثانياً: النظرة العالمية، نحن بحاجة اليوم إلى نظرة عالمية جديدة في الفكر والتصرف، لا إلى نظرة عالمية مسطحة خطرة تظهر بصورة اتحاد أو تحالف لا

يتعدى المستوى المادي سواءً في السياسة أو الاقتصاد، نحن بحاجة إلى نظرة عالمية توحد الفكر والروح.

ثالثاً: الإيمان الراسخ بوحدانية الحق، على أن هذا مظهر آخر لوحدانية الطبيعة والفكر.

رابعاً: وأخيراً الروح التعاونية والسعي المشترك للتركيب والخلق، ويحق لكم أن تسألوا هنا: هل من مكان لقيام ثقافة عربية، أو غير عربية، في حضارة هي حقاً عالمية؟ وجوابي على هذا، نعم لأنه إذا كانت الحضارة عالمية حقاً فغنها تكون في روحها على كثير من الرحابة وتستطيع أن تتفتح لتسع الكثير من أي النواحي كان مصدرها، الحضارة العالمية تشجع كلّ أمة على المضي فيما اختطت تلم الأمّة لنفسها وتفاخر في أنها تتسع لتبني كل حضارة وصهرها جميعاً لتجعل منها حضارة عالمية واحدة منسجمة، وعلى العكس من هذا كل حضارة لا تشتمل على القيم الإنسانية العالمية لا تستحق أن تسمى حضارة.

هذه هي الشروط الضرورية لقيام الحضارة، والحضارة العربية والعالمية أيضاً تقومان الآن بفضل توفر هذه الشروط، اعني عندما تستطيع النظرة العالمية الشاملة أن تحتوي النظرة الخاصة الفردية، وعندما تستطيع النظرة الفردية الخاصة أن تعكس النظرة العالمية الشاملة العرب اليوم. كالشعوب الأخرى التي تسعى إلى تنظيم حياتها الجديدة تحت ضغط الحضارة الغربية، يجدون أنفسهم أمام معضلة فإنهم يخشون بعض نواحي الحضارة الغربية كروحها الاستعمارية وحبها للتوسع، ولكن مع هذا يدركون الإدراك كله أنهم لا يستطيعون أن يتقدموا أو أن يساهموا في تقديم خدمات إلى الحضارة العالمية ما لم يأخذوا بهذه المدنية، فتراهم ينشدون خلاص أنفسهم عن طريق اعتناق الفلسفات القومية ذات الألوان المختلفة والنزعات المتباينة، وهذه القوميات مهما اختلفت ألوانها، هي في نشأتها، من جهة، رد فعل لأخطار خارجية، ومن جهة أخرى، حركة لتوحيد إيجابي داخلي،

ولإحياء أمجاد الماضي، ولتهيئة الأسباب للمساهمة مرة أخرى في بناء الحضارة العالمية، إن تطور هذه القوميات لتصبح قوميات رحبة لا ضيقة، سمحاء لا متشددة، منكمشة، تقدمية لا رجعية، وبكلام آخر إذا أسفرت هذه القوميات عن كونها مظهراً من مظاهر روح الحضارة أو أنها تنكمش على ذاتها فتختنق لعدم وجود الهواء والنور، جميع هذه الأمور تتوقف على مدى تكيّف العرب وتماشيهم مع الزمن، ويتوقف أيضاً على مدى أثر سياسة الشعوب الباقية وتصرفها في سير المدنية العصرية بصورة عامة، ولا نقصد بهذا الأثر السياسي والاقتصادي بل بالأحرى الأثر الخلقي والروحي، ولكن هذا لا يعني أننا ننقص من قيمة الأثر الاقتصادي والسياسي سيما في هذا العالم الحديث الذي أصبحت فيه القوة حسنة التركيز والتنظيم، فإننا نكون مخادعين لأنفسنا إذا ظننا أننا نستطيع أن ننشئ تعاوناً ثقافياً مشتركاً إذا كنا في الوقت ذاته نتبع خطة اقتصادية سياسية تنمّ عن أنانية ضيقة، يقولون لنا إن السلم واحد لا يتجزأ وكذلك الأخلاق والروح والطريقة الوحيدة الممكنة لتوطيد سلم واحد لا يتجزأ هي ولادة ثانية للأخلاق والروح يكون لها الأثر الفعال في قراراتنا السياسية، ونشاطنا الاقتصادي، وجهودنا الثقافية.

جاء في كتابات "بلوطينس" الفيلسوف الذي كان ينتمي إلى المدرسة الأفلاطونية الجديدة والذي كان لكتاباته بعيد الأثر في العرب، الفقرة التالية: ((كل شيء له كيان، وكل شيء في حيّز الحقيقة إنما يكون بفضل الاتحاد، إذ أي شيء يمكن أن يكون له وجود إن لم يكن وحدة؟ بدون الاتحاد لا يمكن أن يكون للأشياء وجود، فالجيش بوحداته، والجوقة بأفرادها، والقطيع بمفرداته، ولا يمكن أن يكون لها كيان بدون الوحدة، وكذلك صحة الجسد فإنها تتوفر إذا كان الجسد منسجماً في وحدة تامّة، ويحصل الجمال إذا كان لدينا وحدة تامة تتألف من الأجزاء، وتظهر فضائل النفس إذا توحدت واستحالت إلى وحدة منسجمة تامة)).

وهذا ينطبق على العرب وعلى أية أمة أخرى، لا بل على البشرية بأجمعها، فإنه بدون اتحاد بين العرب، لن يكون هنالك حضارة عربية، وبدون اتحاد شعوب العالم لن يكون هنالك حضارة، وإنني آمل أن يتم الاتحاد بين الأفراد ليشمل الجماعات فيتوفر لدينا، كما يقول "بلوطينس"، الصحّة والجمال والفضيلة، وعلينا جميعاً أن نسعى لهذه الغاية بكلّ ما أوتينا من نشاط وقوة، إذ في نظر التاريخ ليس هنالك من مهمة أخطر شأناً ولا أنبل قصداً.

البند الثاني:

البعد العالمي في الشخصية العربية

ذكرنا سابقاً أنه حين بدأت العالمية الإسلامية الأولى بفقدان تماسكها الكياني التاريخي وارتباطها بالمنهج الذي شكلت ضمنه تاريخية، حين ذلك بدأت الانهيارات المتتابعة في كيانها، وأخذ الانحسار في هذه الأمّة فاعليته وتمركزه حول ذاته وحدوده الجغرافية في تلك المرحلة تحددت صورة الأنا القومي باعتبارها انجذاباً نحو مركزية داخلية من المحيط إلى الخليج، وبالتالي، فالبعد القومي المعاصر هو بُعد توجه نحو العمق، بعد انحسار، يعكس البعد التاريخي، فهو بُعد توجه نحو الأطراف، بعد انتشار وامتداد لا انكفاء وانحسار، ويظل البعدان المذكوران فاعلين ومؤثرين ودافعين الشخصية العربية وموجهين سلوكها وتطلعاتها.

وبغض النظر عن إعطاء حكم قيمه لحضور النشاط الشعبي العربي في أفغانستان أو تعاطفه مع الشيشان، فهذا الحضور والشعور تعبير عن جدلية الانتشار المشار إليها ولعلّ الإنسان العربي يعيش أخطر ظاهرة في تاريخه، هي ظاهرة الإقليمية التي تعمد إلى إلغاء البعدين السابقين بعد تجريدهما وعزلهما نظرياً عن التفاعل، فهي من ناحية العزل النظري توظف البعد العالمي للتأكيد على اختلاف مقومات العربي في السودان ضمن تفاعلاته الإفريقية عن العربي في المغرب الكبير، حيث

يتموضع العربي ما بين أوروبا والصحراء، ثمّ تعميم النظرية على الكيان الجزائري العربي، وعلى المصري وعلى السوري الكبير، وبهذا ترد الإقليمية على العروبية المعاصرة بالاستخدام غير الموضوعي وغير العلمي للبعد العالمي[1]، هذا الارتداد نحو "خوفو وخفرع ومنقرع" في مصر، والارتداد نحو إله السحر في السودان، والارتداد نحو "أدونيس" إله الخصب في لبنان، هو أثر لنفي الإقليمية بعد العالمية بعد أن نقب به القومية، وهكذا تعبر هذه الإقليمية في النهاية عن مفهومية سكونية جامدة وانكفائية وعطالة، فهي تعمد لإلغاء جدلية البعدين في صورة التاريخ العربي وتكون نمطه الإنساني، وباسم الخصائص المحلية التي تفاعل بها الإنسان العربي في مرحلة الانتشار، تعارض المركزية، ثمّ تعود لتنقص من الانتشار بحبسه وزجه في الما وراء الحضاري.

إن مهمة دراساتنا العلمية المعاصرة حول تكوين الشخصية العربية أن تجرد الإقليمية من سلاحها النظري في مفاهيم التاريخ العربي المشترك، وهذا التجريد لا يتم برؤية رومانسية، وإنما باستيعاب جدلية التاريخ العربي ضمن بعدي الانتشار والانحسار، وخارج منطق التركيب السلفي الميكانيكي الذي يستلب الوجود العربي استلاباً سلبياً، كما أن من مهمة الفكر العربي المعاصر أن يكتشف من خلال الجدلية الخاصة بالتاريخ العربي أوضاعاً مفارقة في تكوننا العربي عن تلك التي كونت شعوباً أخرى وحددت همتها لمعنى القومية.

فالإنسان العربي قد تكون ضمن أبعاد شتى في مسيرته التاريخية الطويلة والغنية واستقطب شعوباً أميّة دمجها في تجربته، وهكذا الحق به المغول والأتراك والأكراد

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد : جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص514.

والسلاجقة والبربر، فاستوت العالمية الأولى التي قوامها معظم الشعوب الأمية «غير الكتابية» في النصف الجنوبي في العالم القديم[1].

وهذا الاستيعاب لم يكن من طرف واحد، فقد استوعبت هذه الشعوب العرب أيضاً في إطار الانتماء المركزية العالمية الإسلامية الأولى.

ونتيجة لهذه التفاعلات فتاريخنا أغنى تاريخ في العالم وكيف لا يكون مثل هذا التاريخ غنياً، وقد امتد العرب في فترة وجيزة لا تزيد على القرن عبر محاور مختلفة، حيث توغلوا شرقاً إلى السند، وإلى الأطلسي غرباً، بعد أن اعتلوا سطح كل الحضارات التقليدية في العالم، ومكنوا لأنفسهم في بقعة التماس التاريخية بين أفلاطون وزرادشت[2].

لقد مكن هذا الاتساع العالمية الإسلامية الأولى من الدفاع المتواصل والمتجدد عن نفسها بوجه الأعداء، فأمام الدورة التاريخية للنشوء والسقوط التي تحدث عنها ابن خلدون كانت هذه العالمية تنتقل إلى مراكز مناوبة مختلفة، إذا سقط الأمويون في دمشق نهض العباسيون في بغداد والفاطميون في القاهرة ثمّ الأتراك في اسطنبول، وبالرغم من تعدد الوجوه التاريخية لهذه المراكز المتناوبة في حراسة العالمية الإسلامية الأولى، إلا أنّ واجب الحماية كان يطغى على كلّ الاعتبارات الأخرى وحفظ (البيضة)، وضمن خصائص هذه الحماية وموجباتها في كل ظرف تاريخي.

في البدء جاءت عصبية بني أميّة كمظهر من مظاهر (الأحكام العرفية) الملازمة لتأمين الفتح والمضي به قدماً، وجاء العباسيون بانفتاحهم الثقافي على كلّ الشعوب التي تمّ ربطها (أموياً) بالعالمية الجديدة ثمّ جاء الفاطميون كجسر بين

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص516.

[2] – المرجع السابق، ص 516.

تفاعلات المغرب والمشرق بعد أن باعدت بينهما الأيام، ثمّ الأتراك بعسكريتهم التي مدت حزام الأمن بوجه الغزو الأوربي إلى فيينا غرباً وإلى تعز جنوباً، فالتاريخ العربي في كلّيته متفاعل بهذه العالمية، فقد صيغ في أحضانها وتكيف معها، حماها وحمته، قادها وقادته، من هنا تتميز الشخصية العربية بحياة وخصائص خاصة ومميزة، فنحن نقارب لكلّ التيارات القومية.

فهي ليست تمحوراً حول المركز، ولكن استباقاً تاريخياً له لاندماج البشر في عالمية شاملة، وهكذا تحمل الشخصية العربية بعدها العالمي في تكوينها، ولا تستطيع الانفصال عنه، إلا باختصار وجودها إلى تقبضها، أي الإقليمية، إنها جدلية معقدة وصعبة، وتعقيدها وصعوبتها يظهر في إمكانيات الإنسان العربي ودوره، فالفكر الساذج هو الفكر السهل، والسهل ليس في طبيعته المهمات الصعبة، وعلى هذا ففي سبيل أن تحيط بتجربتنا يجب أن تكون بمستوى تعقيدها ورقتها، أو كما قال الشاعر المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم

البند الثالث:

النزاع العالمي سمة جوهرية في ذات أمتنا

الأمّة العربية أمّة غير قومية تبنا على العالمية الإسلامية الأولى عدة نتائج وآثار أهمها :

- التدامج «على السواء» مع كافة الشعوب.
- التفتيت الطبيعي وانعدام التركز الإقطاعي أو الرأسمالي.
- خلو التجربة المحمدية من المعجزات.
- الرحمة الإلهية الخير العربي "كنتم خير أمّة أخرجت للناس".

- معنى الخروج وشروطه وتزكية وتعليم العرب الكتاب والحكمة ووراثة الكتاب: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ فاطر/ **31**.

كانت هذه أهم خصائص وسمات العالمية الإسلامية التي اضطلع بمسؤوليتها الرسول الأعظم، وهذه المسؤولية «الموضوعية في جوهرها وتكوينها» لا تضطلع بها وتحكمها في الوقت الحاضر والظروف الحالية إلاّ الأمّة التي بلغت قدراً من معارج الرقي والتقدم.

لذلك فنظرية التأليف والخروج "التي كانت أساساً للعالمية الإسلامية الأولى لا تصلح للعالمية الجديدة وأن على العقل والعلم والحكمة والإنسانية وحقوق الإنسان والمساواة بين الشعوب وغير ذلك من الشروط المستوحاة من ظروف العصر لا سيما الشرط الإنساني الذي يعرض حركته على كل سلوك موضوعي لتجاربنا وخبرتنا فالله سبحانه وتعالى، إذ جرد شخصية العربي من التركيزين الذاتي والطبقي وألقى عليه مسؤولية الذكر ﴿ذكر لك ولقومك﴾، أي الدفع بالحق في مواجهة الباطل، وجعل الأمر من بعد محمد توريثاً موضوعياً يقوم على وراثة الكتاب، وعلى الشروط الإنسانية العادلة، وهو الأمر الذي لا يضطلع بذلك إلا أداة موضوعية لا ذاتية، أي أمة تسودها وتسوسها نظرية سيادة الشعب، حيث السيادة لكل ذرة فيه، أي لكل فرد فيه، وليس حسب سيادة الأمة، حيث يدعي فئة من الناس أنهما تكلما باسم الأمة ونيابة عنها، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ..﴾ النساء/**59**، نقول منكم وليس عليكم أو فيكم.

لقد استطاع الإسلام أن يفجر ذلك النزوع العالمي والكوني في الأمة، بل ما كان من الممكن ولادة هذه الأمة وتطورها لولا ذلك المشروع الكوني الذي دفعها إلى تجاوز نفسها.

ماذا نطلق على أمتنا البعيدة عن التقوقع والانغلاق والكآبة، والنزاعة أبداً إلى الانفتاح على الغير والاندماج معه وبه؟.

هل نسميها أمة غير قومية أو أمة قومية أو أمة غير عرقية، أو تسمى هذا النزوع بالخروج، خروج المسلمين إلى رحاب الغير إلى الرسالة المحمدية لعلنا لا نتردد في إطلاق عبارة أمة غير قومية "لا تعود إلى إطلاقات الذات" لولا المقال الهام والموضوعي والعميق الذي سطرته براعة "الأستاذ الفضل شلق" والذي تحرص على نشرة بحرينية وفيما يلي المقال المذكور[1]، يقول "الأستاذ شلق":

((تقف أمتنا اليوم موقف الحيرة والتشكك أمام ما يسمى بالنظام العالمي الجديد، وموقف الحيرة هذا تكرر كثيراً طوال القرن العشرين، فأمتنا ما شاركت في النظام العالمي القديم «بل كانت موضوعاً له» وما شاركت في نظام الاستقطاب الذي أعقب الحرب العالمية الثانية، وتوشك اليوم أن تبقى أسيرة الحيرة والتشكك والتوجس والانكماش إلى أن تستتبّ أواليات نظام ما بعد حقبة الاستقطاب، ونبقى نحن في الخارج في أحضان التبعية الدافئة فيكتمل خروجنا من التاريخ حسب تعبير بعض الدارسين.
لقد اعتقدنا دوماً أنّ هناك مؤامرة علينا هدفها ضرب كرامتنا ومقومات وجودنا وتقزيمنا، وبالتالي إخضاعنا واستتباعنا، وكنا نجد دائماً الشواهد على ذلك في فلسطين والباكستان والبوسنة والآن الشيشان وما أدراكم ما بعد الشيشان.

هذا الإحساس بالغربة في عالم اليوم دفع ويدفع نخبةً من دارسينا إلى الحنين للماضي الماجد والقويّ، ومن ضمنه الماضي القريب: ماضي الدولة والخلافة العثمانية العظيمة.

---

[1] – الفضل شلق: المقال منشور في مجلة الاجتهاد، بيروت عدد موسوم بعنوان: الانخراط في العالم، مشروع لأمة غير قومية، ص 9 - 18.

بيد أن هذا الحنين للعثمانيين يتناقض والتقوقع الذي يفرضه علينا القوميون والإسلاميون في الوطن العربي على حدٍّ سواء.

فالعثمانيون «أيّاً يكن الرأي فيهم اليوم» كانوا آخر المشاريع العالمية الإسلامية، والحنينُ إليهم جنينٌ لا للقوة والمجد وحسب، بل هو قبل ذلك وبعده: حنينٌ للنزوع الكوني والعالمي الذي ميّز أمتنا منذ بزوغها في القرن السابع الميلادي، فهذا هو معنى الفكرة الاستراتيجية العربية في مطالع هذا القرن: فكرة الوحدة، وهذا هو معنى الالتفاف حول جمال عبد الناصر بعد مؤتمر باندونغ، فالفكرة العربية عند روّادها «فيما قبل ساطع الحصري» فكرةً عالمية ومؤتمر باندونغ، وعدم الانحياز معناهما عودة أمتنا للمشاركة في حضارة العالم ومصائره.

منذ البداية كان لهذه الأمة مشروعها الكوني، وهو الإسلام، وكان هو مسوّغ نشأتها، وعلى الأرجح، ما كان ممكناً ولادة هذه الأمّة وتطورها لولا ذلك المشروع الكوني الذي دفعها على الدوام إلى تجاوز نفسها، إذ لم يكن هذا المشروع برنامج عمل بقدر ما كان دعوةً تعتمد الدمج الاجتماعي (لا الفتح) وسيلةً لها، وتعطي الأولويّة للإنسان (المجتمع) على الدولة (المؤسسات).

لم يكن الفتح هو الغاية ولا حيازة أشياء الدنيا (وغنائم الفتح)، بل كانت الغاية حيازة الدنيا برمتها، لما كما اتفق، بل لتحقيق حياة تستند إلى مصدرٍ إلهيٍ يعطيها معنىً ومغزىً يصعب نَيْلُها بالأشياء المادية وحدها، ففي المشروع المحمدي للعالم، لم تهمل الدّنيا ولا كان للمقدّس كيانٌ مستقلٌ على حسابها.

هذا التوازن بين الدّنيا والمقدس في وعي الفاتحين جعلهم يتخذون الفتح وسيلةً لا غاية، وبالتالي استطاعوا إقامة مجتمع جديد ذي ثقافة موحّدة اندمجت فيه مجتمعات وثقافات متعددة، ولم يكن هذا الدمج ممكناً إلاّ لأنّ العملية ساهمت فيها مساهمة كبرى الشعوب المغلوبة، ولم تُفرض على تلك الشعوب ثقافة العرب

التي حملوها معهم من شبه الجزيرة العربية، بل تكوّنت ثقافة جديدة وحضارة جديدة أسهم فيها الجميع، كأطراف لقضية واحدة دون أن يفرض الغالب نفسه ليشعر الآخرون بأنهم مغلوبون، ودون أن يكون بينهما حاجزٌ ماديٌّ أو نفسي كما يكون الأمر عادةً عند حصول غلبةٍ لشعبٍ على شعبٍ آخر.

ما كان ممكناً للعرب أن يكونوا أصحاب دعوة وأن يستأثروا في الوقت نفسه بالأمر لأنفسهم دون غيرهم، وبالتالي ما كان ممكناً استبعاد الشعوب الأخرى أو جعلها دونهم مرتبة، فقد حتّم عليهم منطق الدعوة أن يندمجوا مع الآخرين وأن يدمجوا الآخرين في مجتمع موحّد هو الأمّة، كانت أولى خطوات الدمج هي جعل المسلمين الجدد موالي للقبائل، وحلفاء بل أخوة، علماً بأن رابطة القرابة لا ترتكز دائماً على النسب البيولوجي، والقبائل هي في معظمها أحلافٌ من أشتات تقاربت، وادّعت لاحقاً التحدّر النسبي من أبٍ واحد.

في هذا المجتمع كان ممكناً للعبد أن يصبح سيداً أو أميراً أو سلطاناً، ليس أصل الفرد هو الذي يقرر مصيره أو يتحكم فيه، بل يرتبط مصير كلّ فرد وارتقاؤه السلم الاجتماعي بالقدر الذي يندمج فيه بالمجتمع ويخدم أهدافه ويساهم في الدعوة التي ترفع الأمّة لواءها، لم يحدث في أمة أخرى أن حكم العبيد (المماليك) فترة طويلة من الزمن، بل كان العبيد أنفسهم ينعتقون تلقائياً عندما ينتهي تدريبهم (العسكري والثقافي)، ويصبحون صالحين لتأدية مهمّتهم التي اختصّهم المجتمع بها.

وبسبب الدعوة التي حملها العرب حققوا مجتمعاً كان نتيجة لعملية دمج واسعة النطاق ما شهد تاريخ البشرية مثيلاً لها، وما تزال هذه الدعوة حيّة متوهّجة تستوعب جماعات بشرية جديدة رغم فقدان الشعوب الإسلامية سيطرتها على مصيرها وخضوعها للغرب بشكل أو بآخر.

منذ قرون حقق الغرب فتوحات واسعة واكتشافات جديدة، ورفع راية دعوة تمدينية وتحديثية، لكن الغرب الذي تشكل في الوقت نفسه من أممٍ قومية، والذي انقسم إلى دول تحتلّ كل منها إطاراً جغرافياً محدداً، ما استطاع أن يستوعب الشعوب الأخرى وأن يستميلها إليه، بل في اللحظة التي تمت فيها هيمنته الكاملة على الكرة الأرضية، انفجر في حربين عالميتين انفجاراً سمح للشعوب المغلوبة أن تأخذ المبادرة لمحاولة التحرر من سيطرته والاستقلال عنه، وما العنصرية العرقية التي ظهرت في الغرب غير جانبٍ واحدٍ من جوانب الاستكبار الذي تحكم بالعقل الغربي في لحظة اكتمال انتصاره على الآخرين.

في خضم هذا العالم تحاول أمتنا العربية المرة تلو الأخرى التوحد والنهوض كي تحقق لنفسها القدرة على الاستمرار والبقاء، وهذا إن لم نقل، التحرر والمساهمة في تقرير مصيرها كجزءٍ من العالم، وقد مُنيت جميع محاولاتها بالفشل وأصيبت بالعديد من الهزائم التي أدّت بالكثيرين إلى اليأس، ولم يعد السؤال المطروح أمام الأمّة هو "ما العلم؟" بل هناك دائماً الجواب الجاهز لكل سؤال وهو أن المستقبل مجهول والأمل معدوم، ولا يُرجى الكثير من التفكير في الشأن العام، وعلى كلّ فردٍ أن يَحلّ مشكلته الذاتية والآنية بمفرده، والكثيرون يعتقدون أنّ تلك هي الواقعية.

لكنّ الأرجح هو أنّ الأمل بالنهوض لن يكون ممكناً دون الخروج من هذه الواقعية القاتلة إلى سبر الحقائق التاريخية التي يمكن أن تكون قاعدةً لاستشراق المستقبل بما يتفق مع إمكانيات الأمة وآمالها، ولن يكون التقدّم ممكناً دون التفتيش في حنايا الهوية التاريخية ما يمكن أن يعطينا دفعاً إلى الأمام وعمّا يمكن أن يجعلنا نأخذ بزمام المبادرة لنتجاوز وضعية الهزيمة، ونحقق لأنفسنا وللآخرين ما يُغيّر صورة هذا العالم.

منذ أن بدأت الأقطار العربية تحقق استقلالها، بل قبل ذلك طرحت النخب العربية التي كانت تقود الأمّة برنامجاً يتمحور حول القومية بمعناها الغربي،

فالقوميات الغربية تيارات أيديولوجية انتشرت في إطار أمم ذات حدود جغرافية ثابتة، وعندما كانت هذه الحدود الجغرافية تتغير بفعل التحوّلات في موازين القوى، كان الجزء من الأمّة الذي ينضم إلى امةٍ أخرى يشكل إضافةً كميّة دون حدوث اندماج فوري أو تدريجي.

لا يتفق هذا المفهوم القومي للأمة العربية مع تراثها التاريخي إلاّ جزئياً، فالأمة العربية تكوّنت حصيلة عملية تاريخية لعبت فيها الدعوة واللغة الدور الأكبر، ولم تكن الجغرافيا (مفهوم دار الإسلام ودار الحرب) غير أداة تقنية لتحديد العلاقات أي الإيديولوجيا الدولية ولتمييز حقوق وواجبات أهل "دار الحرب" الذين يقيمون مؤقتاً في دار الإسلام.

لقد كانت الأمة خلال مختلف مراحل تاريخها، مجتمعاً مفتوحاً يستوعب غير المسلمين (ممن كانوا يعتبرون أهل ذمّة أو مستأمنين)، كما يستوعب الشعوب الوافدة (نتيجة الغزو أو غيره)، وكان هذا المجتمع على استعداد دائم للتوسع خارج حدوده الجغرافية، وغالباً ما كان هذا التوسع يتم بتأثير الدعوة لا بالغزو والسلاح، ومن ينظر نظرةً إجمالية إلى العالم الإسلامي اليوم يجد أن جزءاً كبيراً منه تحوّل إلى الإسلام في فترات الضعف والتراجع لا في مرحلة القوة والغزو.

منذ البداية كانت هناك علاقة جدلية بين العروبة والإسلام، وما استطاع دعاة الفصل بينهما تحقيق مبتغاهم، كما أن المحاولات التي بُذلت من أجل إلغاء واحدهما لصالح الآخر في ذهن العرب والمسلمين لم تكن مجدية في الوقت ذاته لا يمكن اعتبار العروبة والإسلام شيئاً واحداً، وأسباب ذلك واضحة، لكن مفهوم الأمة عند العرب يحتمل المعنيين، ويعود الالتباس إلى مكانة الإسلام لدى العرب وإلى أهمية العرب في نشر الإسلام وتطوره، وعلى الرغم من عدم إمكانية التفكير في أن يوجد أي من العروبة والإسلام دون الآخر، إلا أنه لا يصعب على العربي أن

ينتقل من مرحلة يعتبر فيها العروبة محور تفكيره إلى مرحلة أخرى يعتبر فيها الإسلام محور وجوده، وتكون العروبة آنذاك شيئاً ثانوياً بالنسبة إليه.

وعندما أصيبت الأمة بهزائم ونكسات متتالية على يد الكيانات العربية القطرية، في وقتٍ كانت فيه الحركات القومية تسيطر على وعي جمهور الأمة، اعتبرت هذه الحركات القومية بين أسباب التراجع وتمّ التحوّل عن أفكارها إلى أفكارٍ وبرامج أخرى ترتكز إلى الإسلام ومفاهيمه، ولم يكن ذلك تجديداً بمقدار ما كان عودةً إلى الجذور.

حاولت الحركات القومية توحيد الأمة وفشلت، فأتت حركات الإسلام السياسي لتعطي "شعار تطبيق الشريعة" الأولوية على كلّ ما عداه مُغفلةً شعار توحيد الأمة سواء اعتبرتها إسلامية أم عربية، وغالباً ما يكون شعار تطبيق الشريعة، بالطريقة التي يتم فيها طرحه، مبعثاً للتناحر والاقتتال الداخليين حتى ليكاد المرء يحسب أنّ شعاره "تطبيق الشريعة" هو شعار حرب أهلية، معلنة أو كامنة، داخل كل قطر عربي.

وإذا كانت الحركات القومية العربية قد طرحت مفاهيم غربية عن الأمة، دون ان تعترف بالكيانات القطرية التي اعتبرتها صيغة الغرب الإمبريالي، فإن حركات الإسلام السياسي تعترف بهذه الكيانات ولا ترفضها، بل تطلب من حكوماتها تطبيق الشريعة، لقد أغرقت هذه الحركات نفسها في المحلي الراهن مثلما فعلت الحركات القومية العربية من قبل حين طرحت على الأمة برنامجاً قومياً يحصرها في إطار جغرافي محدود يوقف تطورها التاريخي.

إن المأزق الذي تواجهه الحركات الإسلامية يشبه مأزق الحركات القومية، ولذلك تتشابه التكتيكات والممارسات النضالية، ويتكرر خطف الرهائن، وخطف الطائرات، وقتل العزل، وزرع المتفجرات في أماكن مأهولة، وكلٌ من الفريقين يعتبر نفسه طليعةً أكثر فهماً وتقدماً من عامة الناس، وعلى هذا الأساس يبرّر الوسائل

التي يستخدمها مهما كانت، فما داموا يرون أنهم يمتلكون الحقيقة، فإن الوسائل التي يستخدمونها لا توضع على محك العقل والأخلاق.

تمتلك أمتنا إمكانيات إنسانية ومادية هائلة، لكنها لا تستطيع الاستمرار في تبديد هذه الإمكانيات على يد نُخب (قومية أو إسلامية) تكرّر التجارب الخاسرة، ولا تستطيع الأمة تحقيق نهوضها وتحرّرها دون نخبة جديدة تبني نفسها على قاعدة من التجديد الفكري والأيديولوجي والمقصود بالنخبة مفهوماً غير الطليعة التي تضع نفسها مكان عامة الناس لتقاتل بهم وتفكر عنهم وتلغي دورهم، بل النخبة هي ذلك القطاع من الأمة الأكثر قدرة على التجديد الفكري تجديداً يتواصل مع السيرورة التاريخية ويتجاوز الماضي في آنٍ معاً.

لقد بدأت النخبة بدايات حسنة في القرن التاسع عشر في هذا الاتجاه، ثمّ تخلّت عن ذلك عندما اتجهت إلى النضال العملي معتبرة أنّ المسائل النظرية هي مجرد تفلسف لا طائل له، فكان النضال على روعته وعظمته وصلابة أصحابه في أحيانٍ كثيرة يصل دائماً إلى طريق مسدود ويرتد على أصحابه وعلى الأمة، أو يؤدي إلى عكس المراد تحقيقه.

الأرجح أن التجديد الفكري لن يكون ممكناً عندما نعزل أنفسنا عن العالم ونشغل أنفسنا بمشاكلنا الداخلية (القومية) البحتة، فعلينا أن ننخرط في العالم، نتعرّف على المشاكل الإنسانية المطروحة ونتصدى لحلّها ولن يكون مجدياً نمط التفكير الذي يحتار بين الدجاجة والبيضة وأيّهما كانت أولاً.

فالعالم إشكاليتنا، ونحن في الوقت نفسه إشكالية عالمية، ولم يكن لنا في التاريخ العلمي دور إلا عندما كنا حملة رسالة للعالم، أي عندما كان العالم مجالاً لنا، ولا نعني بذلك إلغاء الآخرين بل التواصل معهم.

في الزمن الراهن نبالغ إذا اعتبرنا أنّ عندنا الشيء الكثير لنعطيه للعالم، لذلك فإن الدعوة للانخراط في العالم هي دعوة لإنقاذ أنفسنا، لن العزلة عن العالم هي

استسلامٌ قبل كلّ شيءٍ، وهي تعود إلى مزيد من الكوارث والهزائم التي نجرّها على أنفسنا.

لا نستطيع الانخراط في العالم دون استعادة الثقة بأنفسنا، الثقة بتاريخنا، وضخامة إمكانياتنا الراهنة، وقدرتنا على تجاوز الماضي والحاضر، والثقة بالذات تستدعي المزيد من العمل الذهني والمادي، كما تستدعي المزيد من الجهد على طريق التنمية والتقدّم، والتنمية بالاعتماد على الذات تختلف عن التنمية المستقلة بما تعنيه هذه الأخيرة من انعزال عن العالم وتجاهل لآلية عمل السوق الرأسمالية العالمية، وقد برهنت تجارب العديد من الدول في شرقي آسيا أنه يمكن التنمية في إطار تلك السوق العالمية، كما برهنت تجارب دول أخرى إنّ الانعزال عن العالم أدّى إلى مزيد من التأخر والتراجع على الصعيدين المادي والذهني.

ما عاد باستطاعتنا تكرار تجارب الماضي والادعاء بحمل الرسالة أو الدعوة، فالتاريخ نفسه إلا كاريكاتورياً، وعلينا أن نتجاوز أنفسنا، وأن نبذل الجهد لإعطاء العالم تجربة جديدة، ونحن نستطيع التجديد وإعطاء العالم شيئاً دون الانخراط فيه، والتعاطي مع المشاكل الإنسانية بجدية، وحتى الآن كان التقليد للمفاهيم والأساليب الغربية كما التقليد لتجاربنا التاريخية مؤشراً على العجز عن ولوج باب تجارب جديدة وتجديدية، كما كان دليلاً على عدم الجديّة، والجدية عمل مثابرة ودأب وإتقان.

وليس النظام العالمي جديداً بمعنى أنّه عالم تقلّص فيه التناقض وصار التعامل فيه بين مختلف الأمم والمجتمعات على قدم المساواة والحرية دون تبعية واستغلال، بل هو نظام قديم إذا أخذ على أساس هذه المقاييس، لكنه جديد بما حدث فيه من تطورات على صعيد سرعة الاتصال والربط بين مختلف أطرافه، وعلى صعيد التطور التقني والمعرفي الذي خلّف إمكانياتٍ هائلةٍ لحلّ المشاكل التي يعاني منها

البشـر، كمـا خلـق في الوقـت ذاتـه إمكانيـات هائلـة لتـدمير البشـر ونظـام الكـرة الأرضية.

ويتمحـور النظـام العـالمي الـراهن حـول مراكـز في أمـاكن معلومـة، ونحـن لا نشكل سوى طرفٍ لها، ولن نصبح مركزاً من مراكز النظام العالمي إلاّ متى أصبحنا قادرين على استخدام الإمكانيات المتاحة لدينا، وهي كثيرة وعندنا كل القدرة على استخدام هـذه الإمكانيـات، الأمـر يعتمـد علـى القـرار الـذي نتخـذه جماعيـاً بهـذا الشأن ولن يؤخذ هذا القرار دون تعبئة روحية ومعرفية.

تشير الدراسات التاريخية الحديثة إلى النظام الموجود من قرون عديدة، وهو لـيس اختراعاً لنظام رأسمـالي أو غيرهـا، وعنـدما كانـت أمتنـا مركـزاً أساسـياً في النظـام العالمي في بعض مراحل تطوره كان ذلك نتيجة انفتاح الأمة ومستوى المعرفة لـديها ومبلـغ الجهـد والعمـل في مجتمعهـا، ولم يكـن الأمـر مـؤامرة حاكتـها الأمـة ضـد أعدائها.

وفي النظام العالمي الراهن ليس وضع الأمة نتيجة مؤامرة حبكت ضدها، بل هناك موازين قـوى تـتغير باسـتمرار، والسياسـة الدوليـة، أي العلاقـات الدوليـة، هـي علـم ومعرفة وتقدّم أكثر مما هـي مناورات ومُؤامرات.

إنّ الانخراط في العالم يستدعي بلورة مفهوم الأمـة غـير القوميـة، الأمّـة الـتي تبقـى منفتحة على العالم وترفض أن يتحدّد تطورها في إطار جغرافي محدد، أو حتى في إطار ذهـني وفكـري مغلـق، ومـا حققـت هـذه الأمـة بقاءهـا خـلال مختلـف مراحـل تاريخها إلا لأنّها كانت مجتمعاً مفتوحاً قادراً على الدمج والاستيعاب والتجاوز.

إن مفهوم الأمّة غير القومية لا يعني التخلي عن مبدأ الوحدة، بـل إن توحيـد الأمـة شـرط ضـروريٌ كـي نسـتطيع اسـتخدام الإمكانيـات المتاحـة، وفي حـين اعتـبرت الإيـديولوجيا القوميـة أنّ التكامـل الاقتصـادي شـرط لتحقيـق الوحـدة، نعتـبر أنّ

العكس هو الصحيح، وأنّ وحدة الأمة هي التي تقود إلى التكامل، بل التقدم الاقتصادي، وغير الاقتصادي.

ليست هذه الأمة عِرقاً ولا إثنية ولا قوماً ولا قبيلة (أو تجمع قبائل)، بل هي سيرورة تاريخية، وكانت على الدوام، في مختلف مراحل التاريخ مجتمعاً مفتوحاً يستوعب ويدمج في إطاره الشعوب والأقوام والقبائل الوافدة المنضوية تحت لوائه.

وعندما كانت تواجه إشكالية المواجهة بين الانفلات القومي والمشروع الكوني، كانت تختار هذا الأخير حتى ولو كان على حساب موقع العرب في السلطة، وهي أمة عربية لارتباطها باللغة لا بالعِرق العربي أو القبائل العربية، واللغة العربية كمكون أساسي للأمة هي الدلالة على كون هذه الأمة تشكيلاً ثقافياً تاريخياً قبل كل شيءٍ آخر.

بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية (وانسحاب الأتراك من إطار الجماعة) اعتنق العرب أيديولوجيا القومية العربية، وربما كانوا مضطرين لذلك إذ وجدوا أنفسهم لوحدهم.

في نفس الوقت كانت فكرة الوحدة والجماعة هي الفكرة التي تلقى أوسع الولاء بين جماهير الأمة، لكن الأيديولوجيا القومية لم تؤدّ إلى قيام الدولة العربية الواحدة، بل ثبتت الأقطار وجودها وتحوّلت إلى كيانات تؤيد نفسها، ولم يكن ذلك نتيجة مؤامرة وحسب، بل حدث ذلك لأنّ تلك الأيديولوجيا القومية كانت على تناقض مع تراث الأمة وتاريخها، وقد فهمت الجماهير العربية ذلك وكانت تتعاطف مع عبد الناصر صاحب فكرة الدوائر الثلاث (العربية والإفريقية الإسلامية) أكثر بكثير مما كانت تتعاطف مع الحركات القومية.

هذه أمةٌ عظيمةٌ تحقق نفسها عندما تتجاوز نفسها، لذلك فهي قادرة على أن تكون صاحبة مشروع كوني وعلى أن تنخرط في العالم بكل ثقة ومنطق الحركات القومية الذي يقول للغرب نحن نسعى لأن نكون مثلكم لكنكم تتآمرون علينا هو منطق دفاعي، كذلك منطق الإسلاميين الذين يعادون العالم ويسعون لانغلاق الأمة على نفسها، إنه منطق يعلن سلفاً أن لا قدرة لنا على تجديد المشروع الكوني وعلى التعاطي بثقة مع العالم، فقد آن لنا أن ننقذ أنفسنا بأن نجدد مشروع الأمة ونقتحم العالم لا أن ننعزل عنهما، (انتهى مقال الأستاذ شلق).

سقوط العالمية الإسلامية الأولى

لا شك أن العربي اندفع إلى خارج الصحراء الوسطى (الجزيرة العربية) متفاعلاً بروح إنسانية موروث الحضارات التقليدية في العالم الوسيط لينفتح من روحه في جماع هذا التلقي والحال وليعجنه بإرادته وذاته مكوناً بالتعاون مع الشعوب الأخرى الحضارة العربية الإسلامية وبمعنى آخر لقد اقتحم العربي في ربع قرن المجال الحضاري العالمي بأقصى ما أعطته مرحلة التحول القرآني عن مزايا سلوكية جديدة، وهي بطبيعتها ليست مزايا منهجية كاملة، وإن أخذت عن ذلك المنهج معاني السلوك الإنساني وتجنب الفردية والاستعلاء، لقد نجحت المهمة العربية نجاحاً كاملاً إلا أن الاستمرارية في ذلك كان لا بدّ له أن يخضع لما يلي:

1- الاستمرار بالمدى الذي استوعب به العربي المنهجية القرآنية في شموليتها الحضارية الكونية.

2- المدى الذي تتفاعل قوى الحضارات في ذلك الحوض مع البديل الحضاري الجديد هنا بالتحديد أعطى الإنسان العربي لهذه الحضارات بالمدى الذي استوعب به المنهج الذي يحمله على أكتافه، ولم يكن ذلك الاستيعاب لتخرج عن إمكانياته الذاتية وظرفه التاريخي وتكونه في مرحلة التحول القرآني.

لقد كان نهج البناء الحضاري العربي الإسلامي مختلفاً، إذ خرجت أقوام ما كان لها أن تنطلق بهذا الشكل لولا النبأ العظيم، وما كان لها أن تخرج ولم تأت علاقاتها بالطبيعة وبالإنسان عبر القهر والصراع، وما يؤدي إليه ذلك من قهر طبيعي، وتراكم للثروات وتوظيف للميزات العلمية، فقد ظلت علاقات الإنتاج

وأشكال الإنتاج محكومة بما يفتت الثروة عبر تطبيق منهج الزكاة، كما وقف الإسلام حائلاً دون القهر الطبيعي، فلم يمنح طبقة محددة «كالرأسمالية التجارية ثمّ الصناعية في الغرب» مميزات تكثيف رأس المال وقوة العمل وفائض القيمة لتركز عمليات نهب اجتماعي تدخل بها مراحل الثورة الصناعية، يضاف إلى ذلك أنّ النظام الإسلامي حفظ لهذه المناطق ثرواتها، فلم تصادر كما فعلت أوروبا، أليس كل قبر من أنفاق لندن وراءه قصة أسرة من جامايكا دفن بعضها حياً داخله، وكل عمود في قصورها وراءه جراحات لم تكن لتغيب عنها الشمس.

لقد بقيت حالة يثرب على حالها كما هي مدينة الرسول ﷺ المتواضعة التيارات عند سفح أحد كما بقيت مكة ليس بها سوى حجارة الكعبة، حتى أن عمر بن عبد العزيز وقض كسادها وقال لمن اقترح عليه ذلك: البطون الجوعى أولى، بل لم يرسل الولاة شيئاً من عائدات الزكاة إلى خارج مناطقهم تقيداً بالقاعدة الإسلامية التي تقرر ذلك[1].

يمثل ذلك فتح الإسلام حوض الحضارات، وعلى مثل هؤلاء اعتمد في حكمه، فلم يحدث ذلك التطور القسري الذي انتهجته الحضارة الغربية نهباً من دماء الشعوب، وبالتالي لم يبنِ ابن العاص هرماً في مصر يخلد كمعجزة رابطة إلى جانب هرم خوفو وخفرع، ولم يشيد هارون الرشيد برجاً ينافس برج بابل.

كلّ ما هنالك أن الحضارة العربية الإسلامية لم تتواصل جدلياً كالحضارة الأوروبية، فقد تميزت بنزعتها الإنسانية مبقية نفسها في حدود التطور الطبيعي عند القسري على مستوى الإنجازات العلمية وعلى صعيد التطور الزراعي والصناعي[2].

---

[1] – د. محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص462 و463.

[2] – المرجع السابق، ص465.

لقد حلّ لهذه الحضارة «مثلها مثل أية حضارة» الوهن تدريجياً بحكم انفصالها عن قوى حركتها التي أعطتها الحيوية والنشاط وعن منهج عملها الذي سودها وأعلى بها. ونحن لا يمكن أن نستهين بالدور الذي لعبه العنصر الخارجي في هذا السقوط.

فالشرق الآسيوي يثور في وجوهنا، ويجتاحنا بكل ما امتلأ وترعرع في سهوله من تدفق بشري، والغرب يتغلغل فينا شمالاً وشرقاً ويركز أعلامه في قلاع فلسطين، واليهودية العالمية التي سكنت الأرض تستخدم كل حيلها وكل ما تعطيها مناهج الأرض الوضيعة لنفسنا من الخارج والداخل.

ومع ذلك كلّه نبقى، وحين يحكم العالم تطويقنا، وتأتي كل فئة حاملة لقائمة الحساب الحضاري الطويل ضدّنا يتحرك الغيب كما لنا وبنا طول تاريخنا ليتصدى وبنفس أسلوب الإنجاز الإلهي غير المباشر الذي هو أساس تجربتنا، يتفجر النفط ونسبح في بركته[1].

وإن كنا لم نعرف بعد حكمة وجوده التقدير الزمني في خروجه وحكمه لرعاية الربانية، وكان من اللازم أن نحسن استثماره وإنفاقه في حدود الله والحق والإنسان.

وفي الحقيقة ليس هنالك مصادفة جيولوجية وليس هنالك مصادفة زمانية: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ **الفرقان/2**.

وكلّ شيءٍ أنزله الله بقدر معلوم: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ **الحجر/21**.

[1] – د. محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص 448.

ليس ثمة مصادفة في الكون، وليس ثمة حادث عرضي، لكل موضعه وتقديره، وحكمته، فالكون كلّه آية واحدة متماسكة النسق والتكوين والذي لا يرى الأمور إلاّ في عوارضها ومصادفتها يغيب عنه المنهج الإلهي في الحركة الكونية، ولا يستطيع بالتالي أن ينفذ إلى علاقات الأمور.

لم يكن الاتساع الجغرافي الذي وجدت فيه القبائل العربية نفسها حال الخروج عبثاً، ولم يكن استمرار وجود هذه الأمّة رغماً عن التحدي التاريخي والحضاري الهائل عبثاً، ولم تكن سيطرة هذه الأمّة بحكم موقعها على مداخل العالم التقليدية ومخارجه عبثاً وصداقة، بل أمر إلهي وبشر تحركوا ويتحركون ويعملون وينصرفون وفق منهج اللّه وناموسه، وحسب قانون السببية لأنه «على حدّ قول الشيخ محمد عبده» من عطل السببية فقد ألغى العقل ومن ألغى العقل فقد كفر باللّه.

وهنالك ملاحظة جديرة بالتنويه هي أنّ التدهور الذي أصاب العالمية الإسلامية الأولى لم يأتِ «كما هو الحال في الإمبراطوريات العالمية» في شكل تغييب لمركبات الكيان وقضاء على تواصله التاريخي، فلم ترتد أي من البلاد التي شملتها هذه العالمية إلى عناصر تكوينها الحضاري قبل الفتح الإسلامي، بل ظلت كلّ الأمصار وفية لانتمائها الحضاري الإسلامي[1].

إضافةً إلى ذلك فالعالمية الإسلامية الأولى استمرت في مراحل تجديد ذاتي متعاقبة تبادلت فيها مواقعه الجغرافية الهامة والتناوب في الحفاظ على الاستمرار وبقي الأمر على حاله حتى الحرب العالمية الأولى، حيث دخلت هذه العالمية مرحلة الانهيار النهائي ليفسح المجال أمام العالمية الإسلامية الثانية.
هذا ونلخص ما قلناه في الآتي بيانه:

---

[1] – د. محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص466.

1- لم تبحث هذه العالمية عن بديل خارج الإسلام ولم ترتد بالعودة إلى الأصول الحضارية السابقة للإسلام، فالشريعة الإسلامية بقيت مطلقة.

2- لم يتقلص المدى الكياني للعالمية الإسلامية إلى الأسوار العربية في الجزيرة حيث كان المنشأ والمنطلق.

3- ظلت قوى التجديد متواصلة ومتناوبة –عبر تاريخنا الطويل وحتى الحرب العالمية الأولى.

إنّ محاولات الارتداد إلى الأصول –كالفرعونية في مصر والفارسية في إيران والطورانية في تركيا والفينيقية في لبنان –هذه المحاولات قد فشلت، ونحن نرى بأم أعيننا زوالها وانهيارها، ولعلنا لا نستهين بعودة إيران وتركيا الأخيرة مع التنويه بأن العودة للأصول الحضارية السابقة على الإسلام ظهرت خارج الجزيرة، وفي الحقيقة وبياناً وتوضيحاً لذلك نقول إن هنالك تجاذب بعدين في توجهات الإنسان العربي: بُعد العالمية الأولى التي انتشر على سطحها الإنسان العربي طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة مما يكرّس تفاعلاً حضارياً ودينياً بين العرب والامتدادات التي عاشوها وتفاعلوا معها، وهذا هو بعد (الانفراج) أو (بُعد الانتشار) التاريخي، وهنالك البعد الثاني، وهو (بُعد الانحسار) حين اتجه العرب نحو التمركز حول ذاتهم القومية والالتفاف حول مركزية الأنا العربي.. وقد تضخم الشعور التاريخي بهذا (الأنا) القومي عبر مراحل التحدّي البطولي التي خاضها الشعب العربي في عدّة مجابهات، أبرزها المجابهة الناصرية لقوى التحالف الغربي- الإسرائيلي عام 1956.

في تلك المرحلة وما بعدها تحدّدت صورة الأنا القومي باعتبارها انجذاباً نحو مركزية داخلية من المحيط إلى الخليج، فالبعد القومي المعاصر هو بُعد توجه نحو

العمق، بُعد انحسار، أمّا البعد التاريخي فهو بُعد توجه نحو الأطراف، فهو بُعد انتشار وامتداد.

ويظلّ البعدان فاعلين في توجهات الشخصية العربية متى مزجت بين التاريخ والتطور[1].

في العلاقة بين البعدين نكتشف مشكلة الكثير من الدراسات العلمية المعاصرة حول تركيب الشخصية العربية وتطوّر مفاهيمها السياسية، فالملاحظ تاريخياً أنّ الإنسان العربي لم ينحسر تاريخياً عن كامل الحدود الجغرافية التي انتشر فيها، وهي حدود تشمل كلّ النصف الجنوبي «تقريباً» من العالم القديم، وإنما استوعب منها (قومياً) حدود ما بين المحيط والخليج، وما بين المحيط والخليج هو جغرافياً أوسع من رقعة الوجود العربي السابقة على الانتشار، فالإطار العربي الراهن هو موقع وسط ما بين الانتشار والانحسار، ما بين العالمية الإسلامية الأولى والقومية العربية المعاصرة ويحمل بحكم هذا (التركيب) البعدين معاً.. العالمي والقومي.

غير أن الإنسان لا يعيش في (التركيب) ولا به «على طريقة الميكانيك» وإنما يعيش جدلية مستوعبة لكل مقومات الوحدة التي تعطيه معنى ذاته وشخصيته، فكيف تنعكس جدلية الانتشار والانحسار في تكوين الشخصية العربية؟.

وهذا هو الواقع الذي كانت عليه تلك العالمية وهو نفس الواقع الذي اكتشفه "د. أدمون رباط" حين ذكر بأنه: ((لأول مرة في التاريخ انطلقت دولة هي دينية في مبدئها، ودينية في سبب وجودها، ودينية في هدفها، وهو نشر الإسلام عن طريق الجهاد بأشكاله المختلفة من عسكرية وتبشيرية مع الاقرار في الوقت نفسه بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانها أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وطراز حياتها وذلك في زمن كان يقضي المبدأ السائد بإكراه الرعايا على اعتناق دين

[1] – د. محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص513.

ملوكهم، بل وحتى على الانتماء إلى الشكل الخاص الذي يرتديه هذا الدين كما كان عليه الأمر في المملكتين العظيمتين اللتين كان يتألف منهما العالم القديم))[1] .

ونذّكر أنه، في ظل بدايات مرحلة الانحسار تلك حدثت مفارقة تاريخية انتهت إلى تمدد عربي إسلامي اتخذ أشكالاً حضارية وثقافية واجتماعية مختلفة باتجاه القارة الإفريقية، ففي غرب إفريقيا حملت سفن الصحراء وعبر محيط الرمال تلك الثقافة إلى الحزام الجغرافي والبشري ما بين النيل والسنغال مؤدية إلى نشوء ممالك إسلامية إفريقية عديدة اتخذت من اللغة العربية مرجعاً، وحدث الأمر نفسه على طول الساحل الشرقي لإفريقيا من باب المندب إلى زنجبار حيث وصلت الثقافة العربية الإسلامية عبر سفن البحار وعبر أمواج المحيط أيضاً، وكذلك التفاعل بأرجاء آسيا الجنوبية.

كما نذكر بأن المرحلة الأولى بدأت بانحسار العرب عن الأطراف تحت ضغوط هذه الأطراف نفسها، ولكن صحب ذلك توجه عربي نحو الداخل أيضاً، فكل حركية التاريخ تتجه من بعد ذلك إلى التوجه نحو القلب الداخلي حتى من الأطراف العربية، أي أن بداية التشكل الذاتي للتاريخ العربي الخاص قد جمعت بين الانحسار عن العالمية والتوجه نحو الذات الداخلية بنفس الوقت.

وهنا نجد بدايات توجه (المغرب العربي) نحو مصر وذلك بإخضاع الفاطميين لها عام 1969م ثمّ توجه الحركات الدينية في المشرق العربي والجزيرة نحو مصر أيضاً، هكذا كان حال القرامطة والموحدين وقد تنامى دور مصر بالمدى الذي كانت

[1] – المسيحيون العرب– دراسات ومناقشات: تأليف جورج خضر – طريف الخالدي – د. ادمون رباط –د. قسطنطين زريق – د. رضوان السيد –د. وجيه كوثراني، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، وكذلك د. جورج قرم– تعدد الأديان وأنظمة الحكم– دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة، مع مقدمة د. أدمون رباط، دار النهار للنشر، بيروت، 1979.

تضعف معه مركزية الخلافة في بغداد حتى أجهز المغول على بناءات الأخيرة في عام 1258م.

منذ العهد الفاطمي ومصر تتخذ موقع المركز الجاذب للمشرق والمغرب معاً، هذا ما ظهر على أيام صلاح الدين الأيوبي الذي وحد مصر مع سوريا بادئاً بعد ذلك بطرد الصليبيين من الأرض المقدسة (فلسطين) عام 1187م بعد أن ظلوا فيها تسعين عاماً أي منذ 1099م، ثمّ تصدت مصر بعد قرن من ذلك أي في عام 1277 للاجتياح المغولي.

التناغم التاريخي بين فقدان الأطراف والاتجاه نحو الداخل كان هو السمة المسيطرة على تفاعلات أحداث المنظمة وقتها.

قد رأينا كيف انحسر العرب عن تلك العالمية الأمية تحت ضغط محاولات غيرهم للتميز عنهم، وبالتالي فإن مشاعر الاتجاه نحو الذات كان يمكن أن تكيف وفق انكفاء نفسي سلبي كرد فعل عام.

الفصل الثالث

العالمية الإسلامية الثانية

وسنفتتح في هذا الفصل عدة أبحاث نستهلها ببحث يدور حول الدراسات المستقبلة ثم نقضي ذلك بحيث يتكلم على القوة وضرورة قيامها على الحق، وتردف ذلك بأبحاث عدة يتساءل أحدها عن وجود راهنياً عالمية إسلامية، وهل العالمية الثانية تكرار للأولى، وغير ذلك من الأبحاث.

الرنو للمستقبل واحتضانه

وسمنا البحث بكلمة (رنو) باعتبار هذه الكلمة مترعة بالأمل البعيد والشوق المدبر والرجاء الكبير والأماني العراض الحالمة، التي تملأ صدر العربي وقلبه ولبه شوقاً وثاباً نحو أمة ممتلئة بالفوز والنجاح وتحقيق الأمنيات.

هذه هي الظلال النفسية لكلمة رنو، ولعل اقترانها بكلمة احتضان «بالروح والرؤيا» يفسر هذا الشوق المستكن في قلب كلّ عربي نحو تحقيق أشواق ومتطلبات ومطالب أمنه، وهذا مغزى كلامنا عن البعد العالمي في الشخصية العربية، مغزى التفاف الجماهير العربية حول هذا البعد الجاذب في شخص الراحل عبد الناصر، لقد أخذ وعلم المستقبل يتبوأ مكانةً مرموقة في الدراسات والمقاربات العلمية وأخذ المفكرون والعلماء يقاربونه ويسبرون أغواره ويتعاملون مع مبادئه المختلفة وفي الواقع فلقد أثمر هذا العلم قطوفاً دانية ونتائج طبيعية وأعطى مكاسب مرموقة وهامة، وإن كانت أمتنا لا تزال تتعامل ظهرياً مع هذا العلم، وإذا ما استثنينا جهود بعض الأفراد المحدودين عدداً فأمتنا ما فتئت لا تعتبر هذا العلم أي بال واهتمام ولا عجب فالأمم الحيّة تحسب الحسابات الهامّة من أجل المستقبل البعيد، ونحن نسمع بالمخططين يضعون الخطط لما يزيد عن خمسين سنة، فكيف إذاً الحال بالنسبة للتعامل مع المقاربات المستقبلية؟.

إذاً لا غرابة في الأمر أن نتعامل مع العالمية الإسلامية الثانية كظاهرة تدخل في مضمون الدراسات المستقبلية واحتمالاتها لا سيما هذه الظاهرة ظاهرة إرادة «كما سنحدد» تعانق حقوق الشعوب الإسلامية وآمالها وعطشها من أجل تحقيق المصير والحرية والفوز والمستقبل، ولا تدخل بالحريات الرقمية، وإنما بمعطيات الإرادة وأماني الجماهير إذاً لن تجد أية غرابة في أن نفكر لما أبعد من خمسين سنة، وأن نقتحم المستقبل ونقرع أبوابه ونسير مواضيعه المليئة بالدهشة والذهول والعجائب أملاً في التحكم بهذه الظاهرة.

وفيما يلي بعض مواضيع البحث:

الفرع الأول

أعاصير المتغيرات ومفاجآتها وصدمة المستقبل

دخل العالم القرن الحادي والعشرين، فأدخل معه الاهتمام بالدراسات المستقبلية، استشرافاً واستعداداً وتحضيراً، الأمر الذي حدا الكثيرين إلى وصف هذه الظاهرة بالثورة الشاملة.

وبيان ذلك فالعالم اليوم يشهد موجة متسارعة من المتغيرات هي الأسرع في التاريخ كلّه وقد أطلق عليها بعض المشتغلين في الدراسات المستقبلية بالموجة الثالثة، بعد الموجة الأولى التي حصلت في العالم مع اكتشاف الزراعة منذ عشرة آلاف سنة. ثمّ الموجة الثانية التي بدأت منذ ما يقارب ثلاثمائة عام مع انتقال الحياة من الزراعة إلى المصنع.

ولقد تحدث بشكل موسع عن هذه الموجات الثلاث وتحولاتها وتغيراتها الباحث المعروف في حقل الدراسات المستقبلية "ألفين توفلر" في كتابه الصادر عام 1980م بعنوان "الموجة الثالثة".

وفي الحقيقة، فالتغيير المفاجئ مذهل ومربك ومثير للدهشة والمعرفة المعاصرة ترداد الضعف كل سبع سنوات، ويكفي للتدليل على ذلك أنه يوضع سنوياً 40 ألف مصطلح جديد في مختلف ميادين العلوم، بل وفي كل دقيقتين يصدر مقال علمي

في جهة ما من العالم[1]، وهذه التحولات والتغيرات التي تحدث في العالم لا تتحرك بوتيرة واحدة من حيث التسارع والاتساع، بل تختلف من مجتمع لآخر ومن حضارة لأخرى، فهي تتسارع بنشاط كبير في أمريكا الشمالية وأوروبا واليابان وبعض دول جنوب شرق آسيا مثل كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وغيرها، وبصورة أقل في المجتمعات السائرة في اتجاه النمو، وتكاد تكون هذه التغيرات معدومة في بعض المجتمعات في إفريقيا وأمريكا اللاتينية وفي أماكن متفرقة من العالم.

وفي الحقيقة فمنذ الحرب العالمية الثانية تجاوزت الاختراعات والاكتشافات في كلّ ميدان، تجاوزاً كبيراً، إنجازات العصور السابقة، ومنها النقل التلفزيوني بواسطة الأقمار الصناعية، وموانع الحمل عن طريق الفم، والحاسوبات الإلكترونية، وآلات النسخ، ولقاح سولك Salk ضد شلل الأطفال وعمليات زراعة القلب.

فمنذ سنة 1945م تسلق الإنسان أعلى الجبال، واكتشف أعماق المحيطات – خندق ماريناس-Marianas- وعاش أسابيع في مساكن أقيمت على عمق مئات الأقدام تحت سطح البحر، وأنزل أناساً على القمر، وأرسل مجسمات إلى الكواكب التي تبعد عن الأرض، وأقام مراصد رادارية للاستماع إلى إشارات من حضارات خارج الأرض، وخلال هذه الفترة نفسها 1945- 1976م ظهرت 8 دول جديدة ليصبح مجموع الدول نحو 160 دولة، وتزايد عدد سكان العالم بحوالي مليار وسبعمائة مليون نسمة ليتجاوز الأربعة مليارات سنة 1976م، كما تزايد الناتج

---

[1] – د. المهدي المنجرة: الحرب الحضارية الأولى، مستقبل الماضي وماضي المستقبل، الدار البيضاء، دار عيون، 1994م، ص355.

العالمي تزايداً سريعاً جداً، فارتفع من 700 مليار سنة 1950 إلى 3,2 تريليون دولار بالأسعار الراهنة[1] لسنة 1972م.

وفي تعليق هذه الدراسة التي جرى إعدادها بعد سنة 1975م: ((يمر العنصر البشري الآن بأسرع تغيير في تاريخه، وإن إعصاراً من التغيير يجتاح المؤسسات الإنسانية كافة، فيقلب ويدمر ويتجنب خلال جيل واحد، أكثر مما أنجز خلال قرون أو حتى خلال آلاف السنين، وليس ثمة من قوة معروفة نستطيع إيقاف التجول العام الشامل، وقد تنقضي أجيال قبل أن يصبح ممكناً الهيمنة على العمليات التقنية والاجتماعية القوية الحالية أو تبديدها[2])).

وتنتقل الموارد العلمية تصوير عالم الإنسانيات "جون بلات Johan Platt" لهذه التغييرات فيقول: ((إن التحول الحالي ضخم جداً ويكاد أن يساوي عشراً من الثورات الصناعية وعشراً من حركات الإصلاح البروتستنتية، وهذه جميعاً ضمت في ثورة واحدة، وخلال جيل واحد))[3] .

والكتاب الذي ساهم بدرجة كبيرة في إحساس الناس بما يصاحب العالم من تغيرات شديدة وسريعة، هو كتاب **صدمة المستقبل**[4]، الصادر سنة 1972م لمؤلفه "آلفين توفلر"، إذ تربع هذا الكتاب على قوائم الكتب الأكثر مبيعاً في العالم، فقد

---

[1] إدوارد كورنيش: المستقبلية- مقدمة في فن وعلم فهم وبناء عالم الغد، ترجمة: محمود فلاحة، دمشق، وزارة الثقافة، 1994م، ص11.

[2] - المرجع السابق، ص11.

[3] - المرجع السابق، ص12.

[4] - آلفين توفلر: صدمة المستقبل، نقل الترجمة العربية للكتاب، محمد علي ناصيف، القاهرة، دار نهضة مصر، 1984م، علماً أن هناك أكثر من ترجمة عربية في أكثر من بلد عربي.

بيع منه أكثر من سنة ملايين نسخة بعشرين لغة ولقد تعرض لهذا المصطلح بالنقد "إدوارد كورنيش" الذي أشرف على أضخم عمل تناول الدراسات المستقبلية بالبحث والمتابعة والتحليل، حيث ذهب إلى أن "صدمة المستقبل" مصطلح اخترعه "آلفين توفلر" وانتشر انتشاراً واسعاً، من خلال كتاب رائج حمل نفس العنوان، فهذا المصطلح حي وتصويري، ولكنه مغلوط لأن الصدمة لم يحدثها المستقبل، بل التغيير الاجتماعي السريع، وربما يكون المصطلح الأدق هو "صدمة التغيير[1]".

وهذا ما تؤسس له فلسفة (ما بعد الحداثة) التي أرادت أن تخرج العقل الغربي من اليقينيات والعلم المطلق إلى النسبية والتطور اللامحدود، فليس هناك ثبات وجزم ويقين ونهاية في العلم والعقل حسب هذه الفلسفة والمعترضون على فلسفة "ما بعد الحداثة"، وجدوا أن خطورتها تكمن في تحطيم العقلانية وتسلب منها اليقين، وتجعل العقل الإنساني في حالة اهتزاز وعدم ثبات.

ولقد نسبه الغرب والبلاد المتقدمة لما يمكن أن تتركه هذه التغييرات السريعة من مضاعفات شاملة، نفسياً واجتماعياً وتربوياً واقتصادياً، في الوقت الذي كانت فيه تلك المجتمعات هي مسرح تلك التغييرات، والطرف المؤثر فيها، لكن ما هو حال مجتمعات العالم الإسلامي التي هي في حالة دوار بين أن تصمد وبين أن تسقط على الأرض.

لقد كان من المتوقع أن يكون لهذه التغييرات مضاعفات خطيرة على أوضاعنا، بسبب عدم الاستعداد لاستقبالها، وبسبب الضعف العام في البنى التحتية والهياكل الأساسية في هذه المجتمعات، وعدم قدرتها على الممانعة والسيطرة عليها وضبطها في مسارات مخططة، ومع هذه المتغيرات التي سوف تتعاظم وتيرتها مع مرور الوقت، تشكلت أكبر الحوافز في النظر إلى المستقبل، والاهتمام بالدراسات

[1] – إدوارد كورنيش: المستقبلية– مقدمة في فن وعلم فهم وبناء عالم الغد، ص31.

المستقبلية لمعرفة ما يمكن أن تتركه التغييرات من تأثيرات وآثار على تطورات الحياة العامة، ولاستكشاف ما يحمله المستقبل من تحولات، والاستعداد لها، وأخذ الحذر منها، خوفاً من أن تكون على هيئة أعاصير شديدة من التغييرات[1].

[1] - زكي الميلاد: المسألة الحضارية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1999، ص108.

الفرع الثاني

الدراسات المستقبلية.. الامتلاء والتراكم

بدأت التساؤلات عميقة الأغوار حول المستقبل، ومفاجآته المتعددة، والمتنوعة، هل للمستقبل وجود؟، وهل يمكن التنبؤ به؟، وهل التعامل معه وتعامل مع الحقائق أم مع الخيال؟.

والدراسات والمؤلفات التي صدرت حول هذا الموضوع كشفت عن أهمية الأفكار والمعلومات والبيانات التي جاءت بها، وعن التطور والتقدم الذي حصل في هذا الحقل، كما أنّ الكيفية التي استقبل بها الناس هذه النوعية من الدراسات والمؤلفات أكدت على أهمية ما يمكن أن تضيفه هذه الأعمال في الارتقاء بوعي الناس تجاه المستقبل.

وكتاب **صدمة المستقبل** كأنموذج لهذه الدراسات استطاع أن يلفت أنظار الناس إلى ما هو قادم على حياتهم، وكيف أن هذا الحقل فتح عليهم منافذ جديدة للمعرفة، وأثار أذهانهم بالخيال والتنبؤ والنظر البعيد..

كما أن كتاب **المستقبلية –مقدمة في فن وعلم فهم وبناء عالم الغد**، الذي أشرف عليه "إدوارد كورنيش" مع أعضاء جمعية مستقبل العالم في الولايات المتحدة الأمريكية وبمشاركة 500 باحث ومتخصص في ميادين العلوم المختلفة- يكشف عن مدى التوسع الكمي والكيفي في هذا الحقل- فالكتاب يرصد كل ما له علاقة بقضية المستقبل من كتب وتقارير ونشرات ومجلات ودوريات ومؤتمرات

وندوات وورشات عمل وجمعيات ومنظمات متخصصة في هذا الحقل، وقد صمم ليكون دليلاً لمصادر المعلومات، وقاعدة لعمل جديد يتأسس على هذه التراكمات ومع هذا الكتاب نقف على التطورات المهمة التي مرّت على هذا الحقل الذي شهد نمواً متصاعداً مع عقد الستينات وبالذات مع النصف الثاني منه، وازدهاراً ملموساً مع السبعينيات، وتواصلاً في النمو حتى تاريخه ويذكر الدكتور "مهدي المنجرة" أحد أبرز المهتمين بالدراسات المستقبلية في العالم العربي أنه: ((يوجد اليوم في العالم ما يناهز 300 مؤسسة أو منظمة وطنية أو دولية، تعبئ أكثر من (5000) باحث في ميدان علم المستقبليات، وأنّ عدد الدوريات التي تعالج المستقبل يتعدى المائة، أمّا عدد الأفلام فهو يتجاوز خمسمائة، ولقد شرع في تدريس مناهج علم المستقبل وتقنياته فقدم أكثر من 300 درس على المستوى الجامعي، ويوجد في السوق أكثر من مائة لعبة تتعلق بالمستقبل))[1] .

وتوضح هذه الأرقام كما يقول د. المنجرة: ((إلى أي حدّ تطور علم المستقبل نظراً لسلسلة الأسباب الموضوعية التي لا يتعين علينا أن نرجعها إلى الخوف المستشعر على مشارف قرن جديد، ولا إلى التأثير السحري الذي يمارسه رقم 2000، ولا إلى موضة مستقبلية عارضة، بل الأمر يتعلق بطفرة فرضها إيقاع التطور العلمي والتكنولوجي ونتائجه السياسية والسوسيو-ثقافية))[2].

والملاحظ أن كثيراً ما يتردد في كلام د. المنجرة تسمية هذا الميدان بعلم المستقبل، مع أن التسمية كانت موضع جدل علمي وكان هذا الجدل يدور حول تحديد التسمية الأكثر تناسباً مع هذا الحقل، وقد خصص كتاب **المستقبلية** ملحقاً حول

---

[1] - د. المهدي المنجرة: الحرب الحضارية الأولى، مستقبل الماضي وماضي المستقبل، ص181.

[2] - المرجع السابق، ص181.

هذا الجدل حمل عنوان "حقل يبحث عن تسمية" جاء فيه: ((لا يعرف المستقبليون ماذا سيطلقون على موضوعهم، بل حتى أنهم لم يتفقوا على ماهيته، وهل هو علم أم فن أم فلسفة أم شيء يختلف عن أي من هذه الموضوعات)).

ومن الأسماء التي أطلقت على هذا الحقل، بحث الأمور المستقبلية أو المستقبلات، ودراسة المستقبل، والريادات المستقبلية Futurities، وعلم المستقبلFuturology .

وليس ثمة من نقض في البدائل فهناك: النذُر أو التكهنات Prognostics، والاستقباليات Futureless-وتحليلات المستقبل..إلخ.

وتقبل عدد من المستقبلين مصطلح "علم المستقبل"، ولكن آخرين عارضوه معارضة قوية، على خلفية أن المصطلح يوحي أنّ المستقبل يمكن أن يعرف علمياً .

فقد رفضت أمانة الحكومة السويدية لدراسة المستقبل مصطلح علم المستقبل Futurology في تقريرها لينة 1974م عن (دراسات المستقبل في السويد)، وفضلت استخدام مصطلح (دراسات المستقبل) Future studies واستفتت "جمعية المستقبل العالمية" أعضاءها سنة 1975م حول المصطلح المفضل لديهم لهذا الحقل، وقد كان الرد الإيجابي على مصطلحين أولهما (دراسات المستقبل studies Future) و(بحث الأمور المستقبلية أو المستقبلاتFuturesearch) أما المصطلحات الأخرى، فهي تحليل الأمور المستقبلية، والريادات المستقبلية والتنبؤ[1] .

ويستدرك الدكتور "المنجرة" ما سبق وأشار إليه حين يقول: ((المستقبلية ليست علماً قائماً بذاته، وإن استعانت مناهجها بالعلوم الحقة والعلوم الاجتماعية، أما موضوعها فهو الدراسة لوضع معين بشكل مفتوح على البدائل والخيارات لتفحص

---

[1] – د. المهدي المنجرة: الحرب الحضارية الأولى، مستقبل الماضي وماضي المستقبل، ص485.

جميع التطورات، واستقراء النتائج الممكنة المترتبة عن هذا القرار أو ذاك على هذه التطورات، ولهذا يتكلم عن مستقبلات بصيغة الجمع في ميدان الدراسات وليس عن المستقبل بصيغة المفرد، والغاية الأساسية من هذه الدراسات هي تحديد الأهداف المتوخاة وإمعان النظر في جعلها ممكنة في المدى المتوسط أو البعيد من خلال التأثير على الحاضر ومجراه))[1].

ويستطرد د. المنجرة فيقول: ((المستقبلية هي مجموعة من الأبحاث حول التطور المستقبلي للإنسانية تمكن من استخلاص عناصر التوقع، ولا يتعلق الأمر هنا بتقمص نبوءة زائفة، أو إصدار تكهنات أو أحلام حول المصير المقبل للإنسانية، كما أنه لا يتعلق الأمر كذلك بعلم حقيقي، ومن هنا جاء الرفض لمصطلح Futurology عند خبراء المستقبلية، فالمستقبلية منهج يسمح بدراسة التطورات المختلفة والمحتملة لوضع معين، في وقت محدد، وتطويق نتائج هذا القرار أو ذاك على هذه التطورات، ويتميز منهجها بالشمولية وتعدد التخصص، والسلوك الدائم لسبيل مفتوح يعتمد التفكير فيه على دراسة خيارات وبدائل))[2].

وتعود إلى سنة 1902 فكرة أنّ عالم المستقبل قد يصبح حقلاً لدراسة جدية، كما يذهب إلى ذلك كتاب **المستقبلية** حين تصور "هـ. ج. ويلز" مجموعات من العلماء يشتغلون لصالح المستقبل.

ولهذا الحقل سابقات لفترة أبعد من ذلك، فعلى سبيل المثال تصور "فرانسيس بيكون" في مؤلفه **أطلنطيس الجديد** صدر في سنة 1620م، تعهد بحوث مكرس لحل المشاكل الإنسانية، وربما يكون أول من اقترح اسماً لدراسة المستقبل هو عالم

[1] – د. المهدي المنجرة: الحرب الحضارية الأولى، مستقبل الماضي وماضي المستقبل، ص276.

[2] – المرجع السابق، ص276.

الاجتماع "س. سي غيلفيلان" الذي اقترح سنة 1907 التسمية على علم المستقبل[1].

أما اليوم فقد تطور هذا الحقل إلى أن أصبح سمة من سمات المجتمعات المتقدمة يرمز إلى تفكير واهتمام متحضر ويلبي حاجة هي في غاية الأهمية، ويرصد لها مبالغ وميزانيات ضخمة تقديراً لأهمية النتائج والفرضيات والبدائل والخيارات التي تتبلور من هذا الحقل الحيوي، أما عن واقع هذه الدراسات في العالم العربي والإسلامي، فهي في تراجع كبير، ولا يكاد يكون لها وجود يذكر، ولا زال الإحساس بالنهوض بهذا النوع من الدراسات يعد محدوداً.

وعن واقع هذه الدراسات في العالم العربي يقول الدكتور "المنجرة": ((قد بدأنا في العالم العربي إجراء بعض الدراسات المستقبلية منذ العقد الماضي، وانتهينا إلى أهميتها، إلا أنها لم تصل إلى ما نرجوه، وقد أدى غياب الدراسات المستقبلية في الفترة الماضية إلى تعاملنا مع الأحداث كردة فعل، في حين أن العالم الغربي يعد الاحتمالات المختلفة لكيفية التصرف تجاه الكوارث الطبيعية لتجنب آثارها المدمرة اقتصادياً وبشرياً واجتماعياً)).

في حين أن العالم العربي يتغلب على المشاكل بتأجيلها إلى المستقبل[2]، ويتحدث "المنجرة" عن أول دراسة مستقبلية شملت العالم العربي قامت بها "منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية" في باريس، وكلفت أكثر من ستة ملايين دولار، وقد خرجت هذه الدراسة بنماذج وسيناريوهات خاصة بالقرن الواحد والعشرين بما فيها ما

---

[1] - إدوارد كورنيش: المستقبلية- مقدمة في فن وعلم فهم وبناء عالم الغد، ص481- 482.

[2] - د. المهدي المنجرة: الحرب الحضارية الأولى، مستقبل الماضي وماضي المستقبل، ص33.

يخص العالم العربي، وتمت هذه الدراسة بدون أية مشاركة عربية[1]، ومنذ سنة 1979م تأسست بعض الجمعيات المستقبلية في بعض الأقطار العربية، كالجمعية المغربية للدراسات المستقبلية، وفي الجزائر وتونس وبعض الدول العربية الأخرى.

وبصورة عامة فالدراسات المستقبلية في العالم العربي الإسلامي لن يتأتى لها النهوض والتقدم إلا بشرطين أساسيين ومتلازمين هما :

أولاً : أن يخطو العالم العربي والإسلامي خطوات نحو التقدم العلمي، لأن الدراسات المستقبلية هي من ثمرات هذا التقدم، ولا تزدهر وتتطور وتعطي نتائجها الحيوية إلا في ظل أجواء علمية مناسبة.
فالبلدان العربية والإسلامية ما لم تشهد تقدماً ملحوظاً في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية وحتى الطبيعية والتطبيقية، لا تجد التقدم الملموس في الدراسات المستقبلية هذه العلوم.
ثانياً: إن مجالات البحث العلمي والدراسات المستقبلية بحاجة إلى دعم مالي يلبي حاجات ومستلزمات البحث والباحثين، وهذا يتطلب مبالغ كبيرة، والاستعداد في العالم العربي والإسلامي لهذا الدعم لا زال ضئيلاً ومحدوداً، ولا يوفر أرضية لنهوض هذه الدراسات.
وعلينا أن ندرك أن ما يصرف على هذه المجالات لا يعتبر من حيث النتيجة خسارة، بل إن المكاسب التي نحققها من هذه الدراسات لا تقدر بثمن.

[1] – د. المهدي المنجرة: الحرب الحضارية الأولى، مستقبل الماضي وماضي المستقبل، ص33.

الفرع الثالث

الدراسات المستقبلية في الأدبيات الإسلامية

لعل مراجعة بعض الأعمال الإسلامية في حقل الببليوغرافيا لمعرفة المستوى الكمي الذي أخذته قضية المستقبل في الأدبيات الإسلامية، تجربتنا جمة ومحدودة النتائج.

ومعلوم أن الغرب ما استطاع أن ينجز هذا التقدم في هذا الحقل إلا بعد التراكم المتواصل والمتضاعف، ويكفي الاطلاع على كتاب **المستقبلية** لمعرفة مستوى التراكم الكمي والكيفي الذي لحق هذا العلم.

وبعض الكتابات الإسلامية التي تطرقت إلى موضوع المستقبل، انطلقت من حتميات دينية من غير أن تؤسس لهذه الحتميات أسبابها الموضوعية، حيث استندت إلى ما جاء في القرآن الكريم من آيات تبشر بسيادة الدين، وبانتصار المؤمنين في نهاية التاريخ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ **الأنبياء/105**.

وقوله تعالى: ﴿ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ **الأنفال/7**، و﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴿32﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ **التوبة/32 – 33**، لكن السؤال الذي نطرحه هو: هل تجري

الأمور بدون فواعلها وأسبابها؟، ومن النقد الذي يوجهه في هذا المجال هو أن بعض الكتابات الإسلامية التي تحدثت عن المستقبل نظرت إليه بعموم وإطلاق، دون تشخيص دقيق للمراحل والخطوات ودون الاستناد إلى خطط وبرامج تستمد معطياتها وأسسها من مسح شامل يستوعب حقائق العالم الإسلامي في الميادين كافة، إلى حقائق رقمية.

ومن هذه الكتابات ما ربط مستقبل الإسلام بزوال الغرب وحضارته، وبالطبع فهذا الربط ليس دقيقاً وموضوعياً، إذ لا المستقبل الإسلامي يتوقف على زوال الغرب وحضارته، والعكس صحيح.

هذا ما ذهب إليه "الأستاذ محسن الموسوي" في مقدمة كتابه **آفاق المستقبل في العالم الإسلامي** قال المذكور: ((وهل انتهت زوبعة الغرب؟ وهل على الحضارة الغربية أن تحزم حقائبها وترحل من على هذا الكوكب؟ أصبح واضحاً للجميع متى سيصدر الزمن حكمه بالإعدام على حضارة سادت فسيطرت، تحكمت، وظلمت، استغلت، واحتكرت، وعليها أن تنتظر يومها الأخير))[1] .

واضح وجلي أن هذه الكتابات تنظر إلى زوال الغرب من خلال حتمية مطلقة، لكن السؤال المطروح هو: كيف سمحت لأن ينهض الغرب بحضارته إذا كان القصد بهذه الحتمية المشكلة الأخلاقية، والقيمية؟ فهذه المشكلة، في الأساس كانت موجودة منذ القديم في هذه المجتمعات.

فالغرب ليس كله سواء، وهناك من يقدس العلم ويحترم العلماء وأصحاب الكفاءات ويقدر العمل والإتقان والانجاز والفاعلية والتعاون والتطور.

---

[1] – محسن الموسوي: آفاق المستقبل في العالم الإسلامي، بيروت، دار المنهل، 1987، ص3.

ونحن بحاجة أن نناقش هل من صالح الإنسانية أن تسقط الحضارة الغربية؟ لا نعتقد ذلك، لأن هذا الانهيار سوف يخلف وراءه دمار العالم لا تعرف عواقبه، وما نريده من هذه الحضارة هو أن تهذب نفسها مع نفسها ومع العالم.

والسؤال المطروح حالياً هو: كيف نطرح أنفسنا كبديل حضاري للعالم؟ ونحن لا نستطيع أن نحرر أنفسنا من هذا الواقع المرّ الذي لا يطاق[1]؟.

لقد اعتمدت هذه الكتابات على بعض ما كان يصدر في الغرب من كتاب تنذر بصيحات الخطر لما ينتظر الحضارة في الغرب وفي مقدمة هذه المؤلفات كتاب **تدهور الغرب** الذي صدر في سنة 1917م، للكاتب الألماني "ازولد شينيغلر"، وكتاب **سقوط الحضارة** لـ "كولن ولسن"، وكتاب **الإنسان ذلك المجهول** لـ "ألكسيس كاريل"، وكتاب **البحث عن الإيديولوجية البديل** لـ "روبيرديون"، وكتاب **الإنسان المعلب** "لجوزيف زويس" إلى غير ذلك من مؤلفات.

و المستقبل الذي يتطرق إليه في بعض الكتابات الإسلامية، ليس المستقبل بالمفهوم العلمي، وإنما بالمفهوم العام، كما أن هذه الكتابات لم تعكس التطورات المهمة التي حصلت في حقل الدراسات المستقبلية، والاستفادة منها في دراسة وتحليل قضايانا الراهنة والمستقبلية، بل الملاحظ أحياناً كثيرة أن يجري التعامل مع لفظة المستقبل كمجرد كلمة كغيرها من الكلمات المتداولة بكثافة عالية ومفرغة من أي مضامين علمية.

ونلحظ أيضاً هذه الإطلاقة في كتاب **المستقبل لهذا الدين** لـ "سيد قطب" 1324- 1316هـ/1906- 1966م، الذي ختم كتابه بكلام جميل حين قال:

---

[1] – حيدر عبد الكريم الغدير: المسلمون والبديل الحضاري، واشنطن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1992م.

((أمر واحد يجب أن يكون في حسابنا .. إن أمامنا كفاحاً مريراً شاقاً طويلاً .. لاستنفاذ الفطرة من الركام، ثمّ لتغليب الفطرة على هذا الركام، كفاحاً مريراً، يجب أن نستعد له طويلاً)).

فهذا الكفاح الذي يطرحه "سيد قطب" بالتأكيد يجعل المستقبل لهذا الدين، لكنّ النقد الذي يعترضه ما هو زمن هذا المستقبل؟.

ولو علقنا هذا الزمن بالشروط المذكورة، فهل هذه الشروط بلا زمن؟ وهل يمكن أن نأخذ المفهوم المطلق للزمن دون اعتبار للزمن؟ من غير حساب للزمن؟ وهل المستقبل يستقل عن الزمن؟.

من هنا كانت ضرورة تشخيص هذا الزمن وتفكيكه إلى أجزاء مقسمة إلى آجال وهذا ما حاولت أن تعالجه بعض الدراسات المستقبلية، كمحاولة "إيرل جوزيف" Earl Joseph" رئيس تحرير مجلة "اتجاهات المستقبل" الذي ميز المراحل الآتية:

1- الزمن المباشر "ومدته سنة واحدة".
2- الزمن القريب "من سنة إلى خمس سنوات".
3- الزمن المتوسط "من خمس إلى عشرين سنة".
4- الزمن بعيد "من عشرين إلى خمسين سنة".
5- الزمن البعيد "خمسين سنة أو أكثر"[1].

ولعلّ أعظم ما يشكل نقصاً في الأدبيات الإسلامية، هو غياب الكتابة عن المستقبل كحقل دراسي تأسيسي لقضايا العالم الإسلامي ومشكلاته، ولبرامجه الإنمائية،

---

[1] – إدوارد كورنيش: المستقبلية– مقدمة في فن وعلم فهم وبناء عالم الغد، ص197، أيرل جوزيف: مقالته ما هو زمن المستقبل؟، مجلة المستقبل، الولايات المتحدة الأمريكية، المجلد الثامن، العدد الرابع، آب/أغسطس، 1994، ص178.

وخياراته الاستشرافية، ولا يوجد في هذا المجال إلا محاولات مجتزأة تأسيسياً أو إنمائياً لهذا الحقل.

ومع ذلك فهذه المحاولات على قلتها لم تكتسب أهمية لكونها الجهد الوحيد الذي يذكر في هذا المجال، والجهد الذي أخذ موقع السبق، والتفت إلى ما يعرفه هذا الحقل من فراغ[1].

---

[1] - زكي الميلاد: المسألة الحضارية، ص119.

الفرع الرابع

الإسلام والعالم الإسلامي في الدراسات المستقبلية

في عام 1919م تساءل العالم الروسي "تروجانوسكي" متى وأين تأتي الثورة العالمية الثالثة؟ مشيراً بذلك إلى الثورتين العالميتين الفرنسية والروسية، وحاجة العالم إلى ثورة قادمة تستطيع أن تصحح مسارات الحركة الإنسانية وهذه الثورة لن تأتي إلا من العالم الإسلامي[1]،

وخلال الحرب العالمية الثانية صدر كتاب في ألمانيا استدعى الانتباه وآثار بعض الهواجس، هو كتاب **الإسلام قوة الغد العالمية** لمؤلفه "باول شمتز"، وقد استقبلته الأوساط العربية الإسلامية باعتزاز مبشرة به لما يتضمنه من شهادة لكاتب غربي يؤكد فيها دينامية الإسلام وتقدمه في المستقبل، وما يتصف به من عناصر قوة هي: الموقع الجغرافي الاستراتيجي الذي يتحكم في طرق التجارة العالمية والاتصال بين قارات العالم، والزيادة السكانية وخصوبتها في هذه المجتمعات والثروات الطبيعية والزراعية، والطاقة الروحية والمعنوية التي يمثلها الإسلام كوحدة فكرية لهذه الأمم.

---

[1] – حيدر عبد الكريم الغدير: المسلمون والبديل الحضاري، ص34.

وختم المؤلف قوله: ((إن انتفاضة العالم الإسلامي صوت نذير لأوروبا وهتاف يجوب آفاقها يدعو إلى التجمع والتساند الأوروبي لمواجهة هذا العملاق الذي بدأ يصحو وينفض النوم عن عينيه، هل يسمعه أحد؟ ألا من مجيب؟[1])).

والمشكلة لدينا أننا نفهم تلك الكتابات بعيداً عن تلك الظروف والتداعيات التي تركتها الحرب العالمية الأولى هذا فضلاً عن أن أوروبا استطاعت أن تتجاوز تلك الظروف أو كثيراً منها، وأن تتغلب على صعوبات كبيرة مع الخطط الإنمائية المتسارعة لإنقاذ ما خلفته الحرب واستطاعت أن تواصل نموها وتقدمها من جديد بالاستناد على قوة العلم المذهلة في البناء والإنماء والإعمار.

ماذا عن موقع الإسلام والعالم الإسلامي في الكتاب التي اتخذت من المستقبل منظوراً لها؟.

إذا كنا قد أشرنا إلى كتابات ترجع إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، فلم يكن في قصدنا أن نتبع السياق الزمني لهذه الكتابات بشكل متوالٍ، وإنما أردنا لفت النظر إلى وجود هذا النوع من الكتابات.

والفترة المهمة التي يجدر أن نتوقف عندها ونتابع رصد هذا النمط من الكتابات، هي فترة الثمانينات من هذا القرن الماضي الذي تجدد فيها الحديث عن مستقبل الإسلام والعالم الإسلامي.

حيث استقطب فيها العالم الإسلامي اهتمام العالم بصورة ملحوظة ومميزة نتيجة التحولات العاصفة والمتسارعة التي شهدتها المنطقة آنذاك، وكانت لها مفاعيل

[1] - باول شمتز: الإسلام قوة الغد العالمية، نقله إلى العربية د. محمد شاقة، القاهرة، مكتبة وهبة، 1971م، 334.

سياسية تعاملت معها المنطقة العربية الإسلامية وحتى القوى العالمية بنوع من الحذر والقلق الشديدين.

فقد أصدر المفكر الفرنسي "روجيه غارودي" كتابه **وعود الإسلام**[1]، قال فيه: ((وعود الإسلام، بوصفه كتاباً يكشف حقيقة جديدة مفادها أن الإسلام ما زال مؤهلاً لصياغة حياة معتنقية، صياغة فريدة ومتفوقة في معترك العقائد والإيديولوجية التي يزدحم بها عالمنا المعاصر، فهذه الحقيقة هي جزء «بل أساس في عقيدة المسلم» وهي عند المؤلف اكتشاف جديد أتاحته عناية المؤلف في موضوع حوار الحضارات بعد أن اكتشف تشوه ثقافة الغرب وافتقاره إلى عنصر الثقافة الإسلامية)).

إن "غارودي" في كتابه **دعوة الإسلام** يقدم الإسلام بوصفه أحد المتحاورين في مشروع حوار الحضارات، ولكنه في نفسه يكتشف في الإسلام ترابطاً وتماسكاً تظهر تجلياته في كل جوانب الحضارة الإسلامية[2].

ويستطرد "غارودي" قوله: ((المقصود من هذه الدراسة هو مستقبلنا ومستقبل الجميع، وهذا الكتاب ليس كتاب تاريخ، بل هو اقتراب جديد من الإسلام، وقد

---

[1] – ثلاث ترجمات عربية صدر لهذا الكتاب بثلاثة عناوين هي: (ما يعد به الإسلام) صدر في دمشق، عن دار الوثبة، ترجمة قصي أتاسي، ميشيل واكيم، تقديم: محمد البجاوي، محمد ياسر شرف، 1982م، الطبعة الثانية حملت عنوان (الإسلام دين المستقبل) صدر في بيروت عن دار الإيمان، ترجمة: عبد المجيد بارودي"، 1983م، وفي طبعة ثالثة حملت عنوان "وعود الإسلام" صدر في بيروت عن الدار العالمية، ترجمة مهدي زغيب، تقديم السيد محمد حسن الأمين، 1984م.

[2] – روجيه (رجاء) غارودي: وعود الإسلام، 7– 8.

حاولنا استدعاء الإسلام لأنه قوة حيّة، لا في ماضيه فقط، بل كل ما يمكن أن يقدمه اليوم، لصنع غدٍ أفضل))[1] .

وفي سنة 1978 أصدر الأستاذ "محسن الموسوي" كتاب **آفاق المستقبل في العالم الإسلامي**، وقدم طرحاً جيداً لأساسيات البناء الحضاري في العالم الإسلامي، لكن الحديث عن هذا المستقبل بربطه بمستقبل العالم وبزوال الغرب وحضارته.

وفي سنة 1988 أنجز مركز "دراسات الوحدة العربية"، **مشروع استشراق مستقبل الوطن العربي**، العمل الذي يعد الأكثر أهمية وجدية على مستوى العالم العربي، والهدف من هذا المشروع –كما جاء في التقرير النهائي الذي حمل عنوان **مستقبل الأمة العربية، التحديات والخيارات**[2].

يرمي إلى تحقيق عدد من الأغراض المباشرة وهي: تحديد الاختيارات والمسارات المستقبلية للوطن العربي، الوصول إلى منهجية عربية للاستشراف تساعد في توظيفها وتطويرها مستقبلاً لدراسات مماثلة، أن يخلف هذا المشروع وراءه قاعدة بيانات ومعلومات ومناهج وأساليب للتنبؤ وللتشابكات الشاملة، يمكن أن يستفاد بها في جميع أغراض التحليل والتقويم، وبناء مشاهد أخرى إضافية، إرساء تقاليد وقاعدة للعمل البحثي العربي كفريق، خلق وتوسيع الاهتمام بالدراسات المستقبلية بين المفكرين وصانعي القرار مع المركز، أن ينتج عن هذا المشروع تقرير عام ودراسات رئيسية توجه في المقام الأول إلى المواطنين العرب

---

[1] – روجيه (رجاء) غارودي: وعود الإسلام، ص233.

[2] – مستقبل الأمة العربية، التحديات والخيارات: صدر الكتاب عن مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، المشرف ورئيس الفريق د. خير الدين حسيب، 1988م.

وإلى قواهم المنظمة التي تسعى إلى مستقبل أفضل، أن يمثل هذا المشروع الزاد المعرفي لابدّ من التزود به من أجل صياغة مشروع حضاري عربي للنهضة.

أمّا مساحة نقد التقرير النهائي لهذا المشروع، تتركز على ملاحظتين أساسيتين هما:

الملاحظة الأولى: الحديث عن الإسلام وما قدمه من إضافات حضارية إلى الأمة العربية كان يتركز في الكتاب على الزمن الماضي، والأثر الذي تركه ظهور الإسلام على هذه المنطقة في تلك الأزمنة، أمّا عن مشاركة الإسلام وما له من عطاءات حضارية على مستقبل العالم العربي، فهذا ما أهمله الكتاب ولم يتطرق إليه.

الملاحظة الثانية: لا يضع الكتاب العالم الإسلامي كأحد الكتل الجغرافية والبشرية التي تتداخل وتتفاعل مع العالم العربي في شبكة علاقاته وفي مشروعه الحضاري، في الوقت الذي يفرد الكتاب الحديث عن علاقات العالم العربي بالقوى الكبرى، وبدول الجوار الجغرافي، وبدول العالم الثالث، ولا يأتي بذكر العالم الإسلامي في كل الكتاب على الإطلاق مما يؤكد على أن الكتاب لا يعطي اعتباراً للعالم الإسلامي، فهل أن الرابطة التي تربط العالم العربي بدول العالم الثالث أشد وأوثق من رابطته بالعالم الإسلامي وما هي هذه الرابطة، هل هي التشابه في التخلف والتأخر في النمو، والتضامن في مواجهة الدول المتقدمة التي استعمرت تلك الدول في فترة سابقة، أم أن الرابطة هي عدم الانحياز وعدم التبعية للقوى الكبرى، في الوقت الذي يشكك الجميع في صحّة هذه المقولة، وكل التجسدات الواقعية تشير إلى خلافها!.

وما يلفت النظر التشكيك الذي يطرحه البعض على مقولة العالم الإسلامي تلك المقولة أو المصطلح الذي أثار جدلاً في ندوة **العالم الإسلامي والمستقبل**، فقد اعتبره "الدكتور أحمد شوقي الحفني" بأنه: ((عالم اصطلاحي أكثر منه واقع ملموس أو نظام إقليمي فاعل متفاعل يمكن إخضاعه للبحث والدراسة كوحدة

إقليمية أو نظام فرعي في داخل النظام الدولي، ومن ثم يصعب التعميم على الدول التي تدخل تحت مصطلح العالم الإسلامي))[1] .

وذهب "الدكتور أحمد صدقي الدجاني" في ورقته لهذه الندوة بالقول: ((إن العالم الإسلامي مصطلح حديث العهد أيضاً استخدمه الكتاب الغربيون للدلالة على بلاد المسلمين الممتدة من المغرب الأقصى على المحيط الأطلسي غرباً إلى إقليم سينكيانج في الصين شرقاً ومن أواسط آسيا شمالاً إلى إفريقيا المدارية جنوباً، وقد شاع استخدامه في الأوساط الإسلامية بعد صدور كتاب **حاضر العالم الإسلامي** في العشرينات الذي تضمن تعليقات الأمير "شكيب أرسلان" على ما كتب "لوثروب ستودارد" الأمريكي في كتابه **عالم الإسلام الجديد**، وترجمة "عجاج نويهض"، ويلاحظ "جمال حمدان" على لفظ "العالم" المستخدمة في هذا المصطلح وفي مصطلح "العالم الغربي" أنها غير شائعة في الاستعمال الجغرافي، ويراها دليلاً على ما فيه من تفاوت في أبعاده غير الدينية، وإن العالم الإسلامي باختصار قطاع عرضي من العالم القديم، والتنوع هو القاعدة فيه لا الاستثناء))[2] .

ويعقب على هذا المصطلح "محمود سويد" في ذات الندوة إذ يقول: ((إن العالم الإسلامي هو عالم اصطلاحي لا يخضع للبحث كوحدة إقليمية، وإزاء هذا المصطلح يتداعى الكثير من التساؤلات، ما هي الأسس التي تقوم عليها "الرابطة الدينية"؟ وما هي حدودها؟ هل تشكل هذه الرابطة وسيلة ملائمة للتعامل مع معطيات العصر؟ وهل تشكل مدخلاً ملائماً لولوج القرن الحادي والعشرين، بما هو قرن السوبر علوم؟.

---

[1] – العالم الإسلامي والمستقبل، أعمال الندوة التي أقامها مركز دراسات العالم الإسلامي بالقاهرة، منشورات المركز، مالطا، 1992، ص133.

[2] – المرجع السابق، ص154.

هل هناك مخاطر أمنية استراتيجية واحدة يواجهها عالم إسلامي واحد؟ تبرر الكلام على أمن استراتيجي واحد ومتكامل لدول هذا العالم خصوصاً إذا اعتبرنا عوائق التطور (مشاكل التخلف والتبعية) التي تعانيها الدول الإسلامية هي ذاتها مشاكل دول عالم أوسع كان يسمى إلى الأمس القريب العالم الثالث، ويغلب الاتجاه إلى تسمية دول عالم الجنوب مقابل عالم الشمال؟ وبالتالي هل المخاطر المنية الاستراتيجية التي تواجهها سوريا مثلاً أو الأردن أو العراق هي ذاتها بالنسبة إلى ماليزيا أو اندونيسيا أو بنغلادش كي لا نذكر أذربيجان أو طاجكستان أو ألبانيا؟..إلخ.

وأبعد من ذلك فلنتساءل: هل هناك ثقافة/حضارة إسلامية واحدة متصلة ومتواصلة في الماضي والحاضر والمستقبل؟ أم أن هناك حضارة عربية نشأت في بيئة عربية وعبر عنها الإسلام في حقبة زمنية معينة، ثمّ تحول كل فريق إسلامي إلى حضارته وثقافته وبيئته.. ومصالحه؟.

مهما يكن، تستحق الدائرة الإسلامية، في المصطلح السياسي جهداً عربياً مركزياً لدفع التنسيق إلى أبعد مدى ممكن، على الرغم من أن هذا التنسيق لم يثبت فعاليته ولا جدواه في مواجهة أية قضية إسلامية عربية منذ تفجر القضية الفلسطينية عام 1948 حتى حرب الخليج الأخيرة))[1].

هذه الآراء تعترضها تساؤلات كثيرة، ولا تصمد أمام النقد، لأن أكبر وأعظم تحول حضاري حصل في هذه المنطقة «منطقة القرآن» كان مع ظهور الإسلام، ولن يكون لهذه المنطقة مستقبل بعيد عنه، والواقع الحالي للعالم الإسلامي، ولا يمثل الصورة

[1] - العالم الإسلامي والمستقبل، أعمال الندوة التي أقامها مركز دراسات العالم الإسلامي بالقاهرة، ص179- 180.

المثلى، وبالتالي لا يمكن القياس عليه، بل يجب بعث روح في منطقة القرآن لتعود إلى ماضي عهدها.

لقد كان المفترض أن يكون العالم الإسلامي هو العمق الاستراتيجي والحيوي للأمة العربية لا أن ينصرف الجدل بين إشكاليات القومية العربية والتضامن الإسلامي، والنظر إلى العالم الإسلامي، كما لو أنه يحمل تهديداً بتفتيت القومية العربية، وهذا يعني أن تتموضع القضية في هذا الموقع خطأ جسيم وكان المفروض بحث علاقتنا بالعالم الإسلامي.

في أواخر الثمانينات نشر الباحث الأمريكي الياباني الأصل "فرانسيس فوكوياما" مقالة في ضيف 1989م في مجلة "ناشيونال أنترست" بعنوان **نهاية التاريخ** المقالة التي أصابت العالم برعشة كما وصفها الكاتب الأمريكي "آلن ريان".

ومع ما أحدثته هذه الفكرة من تفاعلات وانقسامات في الرأي، دفعت بصاحبها إلى أن يتوسع في دراستها ويطورها إلى عمل موسع في كتاب صدر بعنوان **نهاية التاريخ والإنسان الأخير**[1].

في هذا الكتاب يتطرق المؤلف إلى الإسلام بشكل سطحي وعابر، ويذهب إلى أنّ الإسلام لا يمثل نهجاً حضارياً ولا تحدياً حقيقياً في هذا العالم، وهو يطمئن الغرب من هذه الجهة، وليس له جاذبية في العالم خارج محيط مجتمعاته، فالتاريخ يعلن عن نهايته بالانتصار الذي حققه عالم الغرب الليبرالي الديمقراطي على عالم الشرق الماركسي الاشتراكي ويؤخذ على "فوكوياما" التسرع في إعطاء أحكام جازمة كما ظهر في مقولته "نهاية التاريخ" ومن يتتبع بعض كتاباته يجد التغيير في أفكاره، وإعادة النظر فيها، فبعد أن حاول أن يقدم النموذج الأمريكي باعتباره النموذج

---

[1] – فرانسيس فوكاياما: نهاية التاريخ، انظر الترجمة العربية، ترجمة وتعليق د. حسين الشيخ، بيروت، دار العلوم العربية، 1993م.

الأمثل والأكثر تفوقاً وتقدماً في العالم، عاد مرّة أخرى لكي يعيد النظر في هذا النموذج، ويوجه له النقد، ويفتح الحديث عن ثغراته من داخل كيانه الذاتي مع كتاب صدر له بعنوان **الثقة: الفضائل الاجتماعية وصنع الازدهار** حيث ينتقد في هذا الكتاب الإفراط في الحقوق الفردية وتأثيرها السلبي على الحياة الاجتماعية في داخل المجتمع الأمريكي، وإمكانية أن تتأثر مكانة أمريكا عالمياً بسبب استنفاد ما يطلق عليه "فوكوياما" رأس المال الاجتماعي، الاصطلاح الذي يستعيره من عالم الاجتماع "جيمس كولمان" والذي يعرفه بأنه: ((المقدرة على العمل سوية في روح تعاونية وفي شكل جماعات منظمة)).

وفي نظر "فوكوياما" فهذه المكانة قد تعرضت للاهتزاز والانتقادات الشديدة عند الكثير من مجتمعات شرق آسيا غير الشيوعية، بعد أن لاقى النموذج الأمريكي إعجاباً من تلك المجتمعات إلى الدرجة التي كان أهلها يتمنون معها أن تصبح مجتمعاتهم في يوم من الأيام نسخة أخرى أو جزء من هذا النموذج[1].

في عام 1990م، أصدر الخبير الاقتصادي الفرنسي "جاك أتالي" كتاباً حمل عنوان **ملامح المستقبل أو خطوط الأفق**[2]، لم تتطرق فيه للإسلام والعالم الإسلامي، والإشارة الوحيدة التي تضمنها الكتاب والتي جاءت بشكل عابر جداً هي ذكر اسم الرسول محمد ﷺ في سياق كلامه عن ظهور الكثير من الرجال والأفكار في أمكنة

---

[1] - الشرق الأوسط، لندن، العدد 6092، الخميس 1995/8/3م، الحقوق الفردية وتأثيرها السلبي على النموذج الأمريكي، فرانسيس فوكوياما، انظر أيضاً كتاب رأس المال الاجتماعي وتأثيره في الاقتصاد، قراءة في كتاب "الثقة الفضائل الاجتماعية ودورها في خلق الرخاء الاقتصادي، الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، دراسات عالمية، العدد/5/.

[2] - جاك أتالي: ملامح المستقبل أو خطوط الأفق، ترجمة عن الفرنسية، أحمد عبد الكريم، دمشق، دار طلاس، 1991م.

غير متوقعة، وهكذا كان في نظر أتالي بالنسبة لظهور محمدﷺ في الجزيرة العربية[1].

وهذا التجاهل من المؤلف ليس له ما يبرره، لأنّ الإسلام منذ ظهوره في القرن السابع الميلادي لم يكن في يوم من الأيام خارج التاريخ كما ظنّ خطأ "فوكوياما" ولن يكون خارج المستقبل أيضاً كما ذهب "أتالي" والذي يظهر أن المستقبل الذي تحدث عنه أتالي هو مستقبل الأمم المتقدمة، وكأن لا مستقبل لغير هذه الأمم، أو لا يجوز الحديث عن مستقبل الأمم النامية التي يعتبرها أتالي بأنها ضواحي تخضع لإدارة الدول المتقدمة، فبكل جرأة ووضوح يقول أتالي: ((أن كلاً من المجالين المهيمنين، الباسيفيكي والأوروبي، سوف يكون مسؤولاً عن إدارة ضواحيه المؤلفة من مجموعة الأمم النامية، وإن يستخلص من هذه المهمة الفوائد الضرورية))[2].

فأي مستقبل يتحدث عنه "أتالي" عن أمم، كهذه الأمم التي يضعها في مثل هذا الموقع حيث لا قيمة لها في هذا العالم إلا أن تكون ضواحي يستخلص منها الفوائد الضرورية، وإن لاحق لها في التقدم والتطور بما يحسّن من أحوالها، ونوعية الحياة للإنسان فيها، وهذه النظرة التي عبّر عنها أتالي ليست جديدة، فقد حولتها أوروبا إلى نشاط سلوكي خلال سنوات طويلة من الاستعمار والامبريالية والسيطرة، لكن الجديد فيها هو التصريح بها علناً في هذا الوقت والعالم على عتبة الألف الثالثة، حيث يفترض أن العالم قد استفاد من تجارب الماضي وتعلم منها أن يكون أكثر إنسانية بحيث لا تبيح له مثل هذا النوع من السلوك والأفكار، لكن الواقع يثبت عكس ذلك تماماً، فلا زال هناك من يجاهر بهذه الأفكار، وهناك من يجاهر بها كسلوك، وهذا من أشد مظاهر البؤس في هذا العالم يصور هذه الحالة "الدكتور محمد عزيز الحبابي" في معرض نقده للغرب في تعامله مع العالم الثالث، إذ يقول:

---

[1] – جاك أتالي: ملامح المستقبل أو خطوط الأفق، ص142.

[2] – المرجع السابق، ص97.

((إن الاستمرار، بسابق إصرار، في صنع التاريخ مع غياب العالم، على حسابه، خطأ فادح.

أما تسخير جهوده الناس والاستهزاء بحاجاتهم وطموحاتهم فخطر قاتل، أليس من الدناءة أن يسكت الأشخاص الواعون من قبل هذه الأوضاع؟ فلا وسيلة توفر حالياً، وسائل للقضاء على تواجد عالم ثالثي يعاني البؤس والشقاء مع عالم الغرب الذي يعيش في نشوة التبذير المفرط إن الانغماس في حياة الشرق والتبذير ليس حياداً، إنه حرب تدمر كل الجائعين، الفراغ يولد حماقات عاصفة لا مراقبة على الإعصار العنيف، ولا منقذ ليرشد المحتكرين، وقلما نتنبأ بالمخاطر المفاجئة التي تخبئها القفار والأراضي الخلاء، وليس ذلك من قبيل التورية والتلميح))[1] .

في عام 1992م، أصدر سفير ألمانيا السابق في المغرب "فيلفرد مراد هوفمان" كتاباً بعنوان **الإسلام هو البديل**[2]، الذي اعتبره مؤلفه بأنه "مرافعة عن الإسلام وله، ومرافعة ذات إحاطة تاريخية وأساس علمي، فهو متفهم لأبعاد المشكلة، بعيد كل البعد عن أي تبرير مصطنع" ويمضي المؤلف في شرح ما يريد أن يقوله في كتابه: ((فعندما كانت المواجهة قائمة بين عالم الغرب الرأسمالي والشيوعية، كان للإسلام أن يكون كـ "خيار" دون هذا وذاك، ولكن الإسلام اليوم، يرى نفسه كـ "بديل" لحل مشاكل الحياة في عالم بدأ يأخذ طابع الثنائية مجدداً)).

ويضيف: ((لا شك في أن كل من يملك بعداً في النظر، لن تخفى عليه حقيقة أن الإسلام سيكون الدين الأكثر سيادة في القرن الحادي والعشرين، وإذا سئلنا من

---

[1] – د. محمد عزيز الحبابي: عالم الغد العالم الثالث يتهم- مدخل إلى الغدّية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1991م، ص230.

[2] – فيلفرد مراد هوفمان: الإسلام هو البديل، بيروت، ترجمة: محمد مصطفى مازح، 1993م.

أين لنا هذا الجزم نجيب بأن كتابنا هذا هو الجواب، فالإسلام لا يعتبر نفسه كبديل لحل مشاكل مجتمع الغرب الصناعي فحسب، نعم " الإسلام هو البديل))[1].

لقد حظيت مؤلفات "هوفمان" عن الإسلام باهتمام ولقيت قبولاً في ألمانيا والغرب لكن هذه المواقف كما يقول "هوفمان": ((تبدلت إلى العكس بعد حرب الخليج الثانية التي عكست ردود فعل كانت تتسم بالقسوة والصرامة)).

وهذا التفاؤل الذي أظهره "هوفمان" بوضوح في كتابه **الإسلام هو البديل**، عاد وتراجع بأقل تفاؤل في الورقة التي تقدم بها إلى مؤتمر "المسلمون وحوار الحضارات في العالم المعاصر"[2]، فبعد أن كان يعتقد أن الغرب سوف يصطدم بمشكلته الاجتماعية والأخلاقية التي تفاقمت بشكل تنذر بخطر لا تحسب عواقبه، والصحوة التي يفترض أن تتولد من هذا الاصطدام والتي يمكن أن تقرب الغرب إلى الإسلام، لكن هذا الاعتقاد انقلب في نظر "هوفمان" الذي اكتشف أن الغرب لا زال مسكوناً بذهنية الحروب الصليبية في نظرته إلى الإسلام، ويستعيد هذه الذهنية في تجسيدات سلوكية تجاه الإسلام وقضايا العالم الإسلامي، وتغير هذه الرؤية دفع بهوفمان إلى ضرورة أن ينهض العالم الإسلامي بنفسه وأن يستقل عن الغرب وبالذات في مجال العلوم والتقنية التي ينبغي أن يتخذ منها قاعدة للنهوض والتقدم الحضاري.

---

[1] – فيلفرد مراد هوفمان: الإسلام هو البديل، ص6.

[2] – انظر الورقة التي شارك بها "هوفمان" في مؤتمر المسلمون وحوار الحضارات في العالم المعاصر، الدورة العاشرة لمؤتمر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمان، الأردن، 907 صفر 1417هـ/5- 7 تموز/يوليو 1995م.

في عام 1992م أيضاً صدر كتاب **الاستعداد للقرن الحادي والعشرين**[1]، للكاتب الأمريكي "بول كيندي" الكاتب الذي جاء محصلة نقاش نقدي جمع بين المؤلف وعدد من الاقتصاديين في معهد "بروكينفتر" بواشنطن في ربيع 1988م، حول كتابه الصادر حديثاً آنذاك **صعود وسقوط القوى العظمى**.

والملاحظة التي استوقفت انتباه المؤلف من بين كلّ النقاش الموسع جاءت من ناقد لا تربطه به معرفة سابقة حين قال: لماذا تثار ضجة بهذا الحجم حول هذا الكتاب، فهو في المحصلة كتاب تقليدي إلى حدّ بعيد، يركز على الدولة القومية باعتبارها أداة الفعل المركزية في الشؤون العالمية، وكان في نظر الناقد أنّ من الأفضل لمؤلف الكتاب أن يستفيد من وقته في الكتابة حول قضايا أكثر اهمية وإثارة، حول قوى التغيير المتمثلة في النمو السكاني وتأثير البيولوجيا، والدمار البيئي، والهجرة ذات الطبيعة المتخطية للقوميات، والتي تهدد بالتأثير سلباً في حياتنا جميعاً، فلاحين أو رؤساء حكومات!.

أخذ "كيندي" بهذه الملاحظة التي وجد فيها كما يقول الإثارة، وكانت بداية اهتمامات موسعة عنده حول موضوعات يصفها بأنها غريبة عليه تماماً، كالدفء الكوني، والسكان، وصناعة الإنسان الآلي، والتكنولوجيا الحيوية[2].

بوجهة النظر هذه يفتتح "كيندي" كتابه الذي استقبلته أوساط عديدة باهتمام كبير لجدية البحث، وللقضايا الكبرى التي يدرسها، والتي تشكل مسائل العالم وهمومه، وما يحيط به من قلق حذر يمكن أن تخلفه من أضرار فادحة على مستقبل الإنسان والبيئة في هذا العالم.

---

[1] – بول كيندي: الاستعداد للقرن الحادي والعشرين، صدرت طبعة عربية عن دار الشروق بالأردن، ترجمة: محمد عبد القادر، غازي مسعود، 1993م.

[2] – المرجع السابق، ص7.

ومع توسع الكاتب في دراسة هذه القضايا إلا أن المساحة التي يخص بها العالم الإسلامي لا تكاد تشكل نسبة تذكر في الكتاب، ولعلّ مسار الرؤية التي عبر عنها "كيندي" تكشف عن خلفيات ومبررات هذه المساحة التي يعطيها للعالم الإسلامي.

ويدشن "كيندي" حديثه عن العالم الإسلامي الذي يعاني في نظره من الضغوطات السكانية، ونقص المصادر والطاقة التعليمية والتكنولوجية وتفجر الصراعات الإقليمية التي تتحدى احكم الحكومات، فبعيداً عن الاستعداد للقرن الحادي والعشرين، فمعظم العالمين العربي والإسلامي يجد صعوبة في التعامل حتى مع القرن التاسع عشر[1].

ولا شك أن صوابية هذا الرأي، فمع أننا نعيش مع نهايات القرن العشرين وبدايات قرن جديد، إلا أن المستوى الفكري والتعليمي ونظم الحياة السياسية والاجتماعية، ونوعية المشكلات والظروف المحيطة، ترجع بالعالم الإسلامي إلى ما قبل هذا الزمن، وكأننا نعيش القرن السابع عشر، أو الثامن عشر، أو التاسع عشر، على ما أحسن الأحوال، مما يصدق علينا أننا نعيش خارج الزمن، ولم نكتشف زمننا بعد.

مع ذلك بدأت تظهر تباشير إرهاصات جديدة عن إرادة تحاول أن تجد لنفسها مكاناً في هذا الزمن الذي تضاعفت سرعته، وسوف تتضاعف أكثر مع كل تقدم وتطور في هذا العالم، وهذا هو الموضوع الأساسي لطرحنا الأساسي في هذا الكتاب، وتعويلنا على الإرادة العوامل الروحية إضافة إلى العوامل الموضوعية العماد.

وإذا كنّا نتفق مع "كيندي" في هذه الرؤية العامة، فإننا نختلف معه في الملامح والأبعاد التي يقيس عليها الاستعداد وصعوبة التعامل، فالصعوبة التي يجدها

---

[1] – بول كيندي: الاستعداد للقرن الحادي والعشرين، ص 266.

"كيندي" في تعامل العالم الإسلامي مع القرن التاسع عشر بعيداً عن الاستعداد للقرن الحادي والعشرين، في مبدأه العلماني وديمقراطيته، واقتصادياته القائمة على مبدأ "دعه يعمل" وبارتباطاته الصناعية والتجارية عبر القومية، وبتغيراته الاجتماعية، وأسئلته الفكرية، فهذه الملامح والأبعاد التي عبر عنها "كيندي" إنما استوحاها من البيئة التاريخية للعالم الغربي، واسقطها على بيئة مغايرة، هي بيئة مغايرة هي بيئة العالم الإسلامي، من غير أن ينظر إلى ما بين هاتين البيئتين من تمايزات أساسية، دينية وثقافية، وتاريخية، وحضارية.

كما نأخذ على "كيندي" في الطرح الذي قدمه عن العالم الإسلامي كونه يعتقد التماسك والمنهجية، فيتحدث عن قضايا وظواهر متناثرة وبصورة عشوائي، ومتفاوتة من حيث الأهمية، وعجولة تفتقد التحليل العميق والمترابط، وكأن الكاتب كتب هذا القسم في حالة غير الحالة التي كتب فيها أقسام الكتاب الأخرى.

والتغيير الذي يقترحه "كيندي" لمستقبل العالم الإسلامي، هو تغيير لا تعرف عواقبه، ولا يؤمن من مخاطره، وهو شبيه بالتغيير الذي حصل في شرق آسيا التي استجابت لقوى التغيير العالمية، بدل الازدراء والغضب، كما هو حال موقف العالم الإسلامي في تصور "كيندي" وأي مستقبل ذاك الذي يتحدث عنه "كيندي" وهو يختتم كلامه عن العالم الإسلامي حين يقول: ((من الواضح أنّ الإسلام يعاني من عدة مشاكل أوقعها هو بنفسه، لكن إذا كان معظم الغضب وموقف المواجهة للنظام الدولي الذي يقفه هذا العالم اليوم عائد إلى خوف قديم من ابتلاع من قبل الغرب، فأي نوع من التغيير لن يكون متوقعاً إلا إذا زال ذلك الخوف))[1] .

إن "كيندي" بهذه الرؤية إنما يضعنا أمام مستقبل مخيف، ويطالبنا بأن نرفع الخوف عن أنفسنا، لكن مجرد الخوف لا يصنع مستقبلاً، ولا يعبد طريقاً إلى

---

[1] – بول كيندي: الاستعداد للقرن الحادي والعشرين، ص296.

المستقبل، فمن حقنا أن نخاف على هويتنا وتراثنا وديننا وتاريخنا وأجيالنا، وأن نخاف من رعب المشكلة الاجتماعية وأزمة القيم والأخلاق في الغرب من أن تنتقل إلينا، فالغرب ليس كلّه تقدم، وفيه من المخاوف ما هو كثير وخطير.

وأكبر خطأ أن يكون التعامل مع قوى التغيير العالمية من غير خوف «لا كما اعتقد "كيندي"» لأن الانفتاح بلا خوف كمن يفتح بيته للعاصفة.

في صيف 1993م، نشر أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفرد "صامويل هنتنجتون" واحدة من أكثر المقالات استقطاباً للحوار والجدل والنقد، وهي مقالة **صدام الحضارات**[1] التي نشرها في دروية " Foreign Affairs" الأمريكية، وقد أثارت هذه المقالة في أطراف واسعة من العالم نقاشات لم تنقطع حتى تاريخه، بل نشأ الكثير من هذه المقولة التي جاءت في ظرف كان العالم فيه يتطلع إلى السلام والأمن بعد زمن طويل من الحروب، وبعد أن تفاءل الناس بزوال الحرب الباردة ولو ظاهرياً، فإذا بهذه المقولة تبشر بصدام هو الأشد والأخطر في العالم، وهو صدام بين الحضارات مما جعل البعض ينظر على أنها تتضمن إعلاناً لحرب باردة جديدة بين الغرب والإسلام.

وما يخلص إليه " هنتنجتون" أن البؤرة المركزية للنزاع المباشر في المستقبل ستكون بين الغرب والعالم الإسلامي مع الكونفوشيوسية الصينية، في أواخر سنة 1996م صدر كتاب **الطريق إلى المستقبل أفكار قوية للأزمنة العربية المنظورة**،[2] للدكتور

---

[1] – للاطلاع على هذه المقالة والمناقشات التي دارت حولها انظر كتاب "صدام الحضارات"، بيروت، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، 1992م.

[2] – د. فهمي جدعان: الطريق إلى المستقبل-أفكار قوية للأزمنة العربية المنظورة، صدر الكتاب عن المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1996م.

"فهمي جدعان" ويفهم من هذا الكتاب أنه وصية الكاتب إلى العالم العربي، فهو عمل تأسيسي اجتهادي يريد منه أن يجسد جملة تأملاته وفهمه وتصوره للقضايا والمسائل التي يعتقد بجوهريتها ومركزيتها وحيويتها في وجودنا المعاصر، عند نهاية هذا القرن الذي يوشك على الرحيل، وبدايات القرن الذي يعلن عن نفسه على نحو صارخ منذ الآن.

والقطاعات الجوهرية لوجودنا الحالي «حسب قول الدكتور جدعان» طالها جميعاً الاضطراب والخلل والعطب واختلال التوازن والتماسك، وفقدان حسن الاتجاه، والمخاطر التي تهدد في العمق وجودنا الذاتي والأخلاقي والاعتقادي والحضاري والوجداني، هي مخاطر حقيقية.
والحقيقة فالكتاب هو أقرب ما يكون إلى جرس إنذار، كما يصفها "جدعان" جيوش من العواصف والأعاصير والسحب المظلمة، وقبل أن يصل إلى طريق مسدود، أكثر من كونه جهداً تأسيسياً لصياغة طريق المستقبل ولا ندري كيف اختار المؤلف لكتابه عنوان **الطريق إلى المستقبل** مع أن لغة الخطاب والطرح يغلب عليها لغة الهواجس والإحباط، وأكثر ما يوحي بذلك الخاتمة التي جاءت بعنوان **حوار مع اليأس** في حين كان يفترض أن التسمية الأكثر تناسباً مع عنوان الكتاب وفي الخاتمة بالذات هو "حوار مع الأمل".
ومن الملاحظات التي يخلص إليها المؤلف في هذا الكتاب، اعتقاده بأن خلاص هذه الأمة لا يمكن أن يتحقق إلا بإنفاذ مشروع إسلامي شامل يتجسد فيه أحكام الدين وقواعده وأهدافه.

وقد سبق وأن عالج الدكتور "جدعان" هذه الملاحظة الأخيرة في كتاب صدر له في عام 1979م، هو كتاب **أسس التقدم عند مفكري الإسلام**[1]، ففي الخاتمة التي

[1] – د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام، صدر الكتاب عن دار الشروق، عمان، الأردن، 1979م، وفي الطبعة الثالثة 1988م، أضاف المؤلف خاتمة حملت عنوان "الإسلام والمستقبل".

أسماها (الإسلام والمستقبل) حدد فيها أبرز السمات الاستراتيجية للعقل الإسلامي المستقبلي، وهي التقدم، الإبداع، التجذر، التمثل، العقلانية، التنظيم والفاعلية، والإتقان، الحرية والمسؤولية والمشاركة، والتكيف[1].

أما على مستوى الندوات الإسلامية التي عالجت موضوع المستقبل، فأول ما يلفت النظر هو قلّة ومحدودية هذه الندوات، وعدم تتابعها وتواصلها مع أهمية وحيوية ما كان يطرح فيها، وكان يؤمل أن تنبثق من بعضها جمعية متخصصة للدراسات المستقبلية، ولدراسة مستقبل الإسلام والعالم الإسلامي بصورة خاصة، بعد أن كان يفترض أن هذه الندوات قد وقفت على ضرورات هذا الحقل الحيوي والنهوض به على هيئة مؤسسات وجمعيات لسد الفراغ الحاصل في هذا الجانب وتدارك النقص الذي تعاني منه في الدراسات الإسلامية، ولمواكبة التطورات المهمة والتراكمات المعرفية التي عرفها حقل الدراسات المستقبلية في العالم.. إلى ما هنالك من خلفيات وضرورات راهنية ومستقبلية من هذه الندوات في تتابعها الزمني:

- ندوة قضايا المستقبل الإسلامي التي نظمها مركز دراسات المستقبل الإسلامي، بالتعاون مع المعهد الوطني للدراسات الاستراتيجية الشاملة بالجزائر، عقدت بالجزائر العاصمة في الفترة ما بين 4- 7 أيار/مايو، 1990م.
- ندوة العالم الإسلامي والمستقبل التي أقامها مركز دراسات العالم الإسلامي بمشاركة مركز البحوث والدراسات السياسية بكلية الاقتصاد بجامعة القاهرة، حيث عقدت هناك في الفترة ما بين 13- 15 تشرين الأول/أكتوبر 1991م.

[1] - المرجع السابق، ص576.

- ندوة مستجدات الفكر الإسلامي والمستقبل التي دعت إليها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، عقدت في الفترة ما بين 3- 6 شباط/فبراير 1992م.

فقد عالجت هذه الندوات قضايا فكرية، كقضايا تجديد الفكر الإسلامي والفقه الإسلامي، وتطوير فكر الحركة الإسلامية، والنهوض بواقع المرأة المسلمة، ومستقبل المشروع الإسلامي وأولوياته، وقضايا الثقافة والتنمية والوحدة، والاهتمام بالدراسات المستقبلية.

أما الندوة الثانية فقد ركزت أبحاثها على مسح شامل للعالم الإسلامي في أبعاده المختلفة السياسية الاستراتيجية والتكنولوجية الصناعية والبعد الاقتصادي في جوانبه الزراعية والنفطية والبعد الاجتماعي والثقافي في جوانب التعليم والبحث العلمي، وقضايا الإعلام والقيم الاجتماعية والثقافية[1].

---

[1] - زكي الميلاد، المسألة الحضارية، ص133.

تقدير وتقويم

تتفاوت النظرات العربية والإسلامية والعالمية في قراءتها لمستقبليات الإسلام والعالم الإسلامي بين قراءات متفائلة وأخرى متشائمة وهكذا تتعدد وتتنوع وتتفاوت هذه النظرات، ومن المتوقع لها ذلك لأن الواقع ومعطياته، واختلاف الباحث وأدواته، يوصل إلى هذا الضرب من النتائج، كما أن هذه النظرات ليست جميعها على خطأ، وليست جميعها على صواب ولا يمكن أن تأخذ بإطلاقيه عمودية وتجريدية، بل هي بحاجة في النظر إليها إلى تفكير نسبي وواقعي وموضوعي.

وهذا التفاوت في النظرات «الذي يستبعد النظرة الواحدة، والاتجاه الواحد حاضراً ونتوقع له مستقبلاً» ولو جزمنا بذلك فهذا الجزم ليس جزافاً بالتأكيد، مع كل هذا التفاوت إلا أننا نستطيع أن نحدد بوضوح أن اتجاه هذه النظرات يختلف ويتميز ويتعدد بين النظرة إلى الإسلام كدين ورسالة، وبين النظرة إلى العالم الإسلامي كواقع وموضوع، ففي الوقت الذي تصاحب النظرة إلى الإسلام في دراسات كثيرة، حديثة ومعاصرة، عربية وغربية، حالة من التوقع له بالنمو والصعود لما يظهره من قدرة على الحيوية والأحياء والنهوض، بخلاف النظرة التي تصاحب العالم الإسلامي والتي يطغى عليها التشاؤم غالباً، وإذا كانت هناك نظرات تخرج عن هذا التصور، وهي موجودة بالفعل، إلا أنها لا تخل بهذا النسق، ولا تفقده التماسك.

وتؤكد هذه النظرات على ضرورة عدم الوقوف عندها، والجمود عليها بل الاستفادة منها لمزيد من الأعمال التي نطمح منها أن تكون متفوقة ومتقدمة على كل ما سبقها، لأن قضية مستقبل الإسلام و العالم الإسلامي، هي قضية متجددة ومتغيرة، بتجدد وتغير حركة الزمن، وبكل ما يطرأ من تأثير على هذه القضية،

فالحاجة هنا تفرض متابعة هذه القضية بالدراسة والبحث والاستشراف لتعقب التطورات والتغيرات والتجددات والتبدلات التي تدخل عليها، وتؤثر فيها، ارتفاعاً أو انخفاضاً، سرعة أو بطءً، كماً أو كيفاً، سلباً أو إيجاباً، لأن ليس هناك مساراً واحداً يحكم الاتجاه العام لهذه القضية، كأن يكون هذا المسار فرضاً في صعود دائم أو في هبوط دائم.

ولا شك فلا زالت قدرتنا في العالم العربي والإسلامي على دراسة المستقبل، ومستقبل الإسلام والعالم الإسلامي على وجه التحديد، تعاني من ضعف وقصور، تؤثر على رؤيتنا وتعاملنا الموضوعي مع الأحداث والتغيرات والتطورات، بين ما تبيحه لنا من فرص حيوية في منجزاتها، وبين ما تحذرنا منه من مخاطر محدقة، وبين ما تفرضه علينا من لوازم ومتطلبات ضرورية، كما أن هذا الضعف والقصور يؤثر على قدرتنا في التخطيط لبرامج التنمية والإنماء والعمران، ولا يمكن تدارك هذا الوضع إلا بتطوير حقل الدراسات المستقبلية، والتمكن من الاستفادة الفاعلة منه في تدارس أوضاعنا وأحوالنا، والاستفادة أيضاً من التراكمات والمنجزات التي عرفها هذا الحقل على المستوى العالمي.

ونذكر هنا بالتوصية التي جاءت في مقدمة البيان الختامي لندوة "قضايا المستقبل الإسلامي" التي عقدت بالجزائر عام 1990م والتي جاء فيها: ((هناك حاجة ماسة إلى تعميق المفاهيم المستقبلية، خاصة لدى القيادات العلمية والإدارية، كما أن هناك حاجة ماسة إلى العناية بالدراسات المستقبلية الإسلامية وتطويرها في المؤسسات العلمية في المجتمعات الإسلامية، وغني عن القول إن الدراسات المستقبلية الإسلامية لا يمكن أن تتم بصورتها المثلى إلا إذا تمت من خلال مراكز البحوث العلمية المتخصصة، ولذلك فإن الحاجة ملحة إلى العناية بالبحث العلمي والباحثين المتخصصين وتوفير جميع الإمكانات والوسائل التي تضمن للبحث العلمي الإسلامي مكانته اللائقة ضمن النشاط العلمي العالمي وبالجزم فمستقبلنا

يجب أن نصنعه نحن بأيدينا، لا أن يصنعه الآخرون لنا، ونبتكره من داخل حضارتنا وهويتنا وثقافتنا، لا من داخل حضارة وهوية وثقافة الآخرين، والمستقبل الذي نريده لأنفسنا ليس هو بالضرورة المستقبل لا أن نقع في طريق الآخرين بوعي أو بدون وعي ونعتبره هو طريقنا إليه)).

وفي الحقيقة فإن من أهم معوقات صعود ونهوض وانتشار الإسلام في العالم، هو الحال الذي نحن عليه في العالم الإسلامي من التخلف الشامل الذي نعيشه إلى درجة أن الأمم الأخرى تجد عزاءها فينا، كما صور ذلك "بول كيندي" الذي أراد أن يخفف على أمريكا اللاتينية وطأة المشكلات عليها، بالنظر إلى العالم الإسلامي الذي تجد فيه ما هو أكبر وأسوأ من المشكلات التي هي عليها.

وأسوأ صورة عن الإسلام تقدم إلى العالم، هي الصورة التي يعبر عنها العالم الإسلامي في واقعه وأوضاعه، الصورة التي يتقصد البعض، كوسائل الإعلام الغربية أن تبرزها إلى العالم، لفرض التشويه والإساءة، كما أن فصل صورة الإسلام عن صورة العالم الإسلامي، قد تقنع البعض، لكن قد لا تقنع الجميع، لأن الناس يسألون ويبحثون عن النموذج الذي يعبر عنه أي فكر أو فلسفة أو مذهب اجتماعي، والإسلام هو الأكثر تضرراً من هذا الواقع الذي عليه العالم الإسلامي، ما لم يتغير إلى واقع أفضل فالعالم الإسلامي بحاجة إلى إصلاحات واسعة شاملة ومستمرة، إصلاحات في نظام التعليم ابتداءً من محو الأمية وتعليم الكبار، إلى رفع مستوى التعليم وتطويره، وإعطائه أولوية متقدمة، والتركيز عليه بشكل مكثف، لأنه يشكل الأساس لأي تقدم، ولأي نهضة حضارية، وإصلاحات اجتماعية لتحويل المجتمع إلى طاقة فاعلة وحيوية ومشاركة في عمليات النهوض والإنماء، وغرس قيم التعاون والفاعلية والانجاز والإبداع والتضامن، مع الاهتمام بإصلاح واقع المرأة وإعادة الاعتبار لها، وإشراكها في الوظائف العامة، وتحويلها من طاقة جامدة ومعطلة، إلى طاقة فاعلة ومنتجة، وإصلاحات سياسية تحفظ للأمة حرياتها

العامة والأساسية، وتصون للإنسان حقوقه وكرامته، وتضمن للجميع حق المشاركة في الحياة العامة، ورفع الظلم والاستبداد، وإصلاحات اقتصادية تفتح للناس كافة أبواب الرزق، وتحقق لهم العدالة الاجتماعية، وترفع عنهم كل أشكال الظلم والاستغلال، وتزيل عنهم الفوارق الطبقية، وتضمن للجميع الحياة الكريمة، وكل هذه الإصلاحات ضرورية ومترابطة وبينها تكامل وثيق لا ينفك ولا ينقطع، مجل يؤثر على المجال الآخر، وكل مجال بحاجة إلى برامج مدروسة ومخططة ومقسمة زمنياً، ونجاحها وتقدمها يتطلب إرادة سياسية جادة، ودعم مالي يلبي الحاجة، وكفاءات عالية، وخطط واستراتيجيات حكيمة، هذه المتطلبات ينبغي أن تحكمها قواعد العدل والحرية والشورى، وهكذا كان علينا أن نبرز الحقائق الآتية:

1- أن نعيد للعلم مكانته وقداسته واحترامه، وأن نبدأ من قوله تعالى: ﴿اقرأ﴾ كخطاب موجه إلى كل مسلم، ونستدل بهذه الآتية على نفي الجهل، وأن كل مسلم مطالب بالعلم ورفع الجهل عن نفسه، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وأن نطلب العلم من المهد إلى اللحد، ولو بالصين.

2- أن نستفيد من تجارب العالم الحضارية، التي أبرزت قدرة الإنسان الخلاقة وعظمة المجتمعات في سعيها إلى التقدم والبناء والعمران، والعالم يزخر بهذه التجارب التي بحاجة إلى من يستفيد منها ...وما من أمة تطلعت إلى التقدم وسعت سعيها إلا ووضعت أمامها أن تأخذ من تجارب الأمم التي سبقتها، ولولا التلاقح بين تجارب الأمم على مرّ التاريخ لما نشأت حضارة في هذا العالم، لأن ما من حضارة إلا وأخذت من الحضارات الأخرى، اعترفت بهذا الأخذ أم لم تعترف، والحضارة هي إرث إنساني مشترك من حق أي أمة أن تأخذ منه، ولا يحق لأي أمّة أن تصادر أي جزء من هذا الإرث لنفسها، وتحجبه عن الآخرين.

والغرب أحد التجارب المهمة جداً في صنع التقدم، وبالذات التجربة الألمانية التي استطاعت أن تخرج بنفسها من الأنقاض إلى أعلى مستويات التقدم في أوروبا، وهناك التجربة اليابانية التي تحقق الاعتزاز، والتي برهنت على أن بناء الإنسان هو الذي يصنع الحضارة حتى مع قلة الموارد والثروات الطبيعية كالذي كانت عليه اليابان.

وهناك أيضاً التجربة الصينية التي ينظر إليها كل العالم باهتمام، وكذا تجارب بلدان جنوب آسيا ذات النمو السريع وهي "كوريا، وتايوان، هونغ كونغ، سنغافورا" والتجربة الإسلامية المهمة في هذا المجال التي تستحق كل تقدير هي تجربة ماليزيا التي تعتبر الأكثر تقدماً من بين كل دول العالم الإسلامي، هذه التجارب وغيرها هي من أثمن كنوز الإنسانية والأمم لو أحسنّا الاستفادة منها.

وأخيراً الإسلام لديه قدرة عظيمة في البناء والعمران وصنع التقدم والحضارة والتحقق تلو التحقق في صيغ وأنماط جديدة، لو تمثلنا قيمه واستجبنا لتعاليمه، والتزمنا بشرائعه، وجسدنا آدابه وأخلاقه، فالإسلام كله بناء وسعي وكدح وعمل وإحياء ونهضة وإصلاح، وبإمكانه أن يلبي لنا كل ما تحتاجه في سعينا نحو البناء وصنع التقدم، هذا الدين العظيم بحاجة إلى من يكتشف أسراره وعظمته، وهل هناك أعظم من أن أمة من الأمم بأن خالق الإنسان والكون، عالم الغيب ومدبر الأسباب معها إن هي التزمت بالإسلام.

فالمستقبل هو الأمل الذي ينبغي أن نبتكره بأنفسنا لبناء حضري جديد في ظل عالم متغير، وقد صحّت مقولة إن المستقبل يبدأ الآن، ومن هنا ينبغي أن نبدأ..[1].

---

[1] - زكي الميلاد، المسألة الحضارية، ص137.

هل توجد الآن عالمية إسلامية ثانية

«معنى وقوة الانتماء الحالي إلى الأمّة الإسلامية»

يمكن القول إن كلمة (أمة) اتخذت لأول مرّة مدلولاً سياسياً على يد الإسلام، وهذا ما تؤكده الصحيفة (الكتاب) التي صدرت عن الرسول ﷺ، وأقرها المؤمنون من قريش وأهل يثرب.

فقد جاء في المادة الأولى من هذه الصحيفة ما يلي: هذا كتاب من محمد بين المؤمنين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم، ولحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة دون الناس.

وإذا كان هؤلاء المؤمنون قد شكلوا اللبنة الأولى في هذه الأمة، فالتفاعلات التاريخية اللاحقة تمخضت عن لبنات أخرى ارتفعت في بناء صرح هذه الأمة، ومن جهة أخرى، فالعرب هم الذين كونوا مادة هذه اللبنات، وحبائل التواصل في الأمة المذكورة.

لقد استطاع العرب «البناة الأوائل لهذا المشروع» أن يستشرفوا أفقاً عالمياً إنساني المنزع عقلاني النهج والتوجه، وبالتالي استطاعت الدار الإسلامية الاحتفاظ بالقسمات السابقة، وبقي العرب هم الاسمنت لهذه الدار، ونسيجها الجامع.

والحق يقال: حيث نبحث عن حضارة إسلامية خالصة من الآثار الشعوبية لا نجدها إلا في الحضارة العربية، وحيث نبحث عن حضارة عربية خالصة من الآثار القبلية لا نجدها إلا في الحضارة الإسلامية.

ولكن الرياح جرت بما لا تشتهي السفن، فإذا بقوى تاريخية جديدة غير عربية تنخرط في الإسلام، وإذا بالقسمات السابقة (العروبة العقلانية) تخبو، ويتضوح ظلها.

لقد عجزت القوى التاريخية الإسلامية غير العربية أن تقدم لهذه الأمة أوليات التلاحم والنسج الضامة، بل أخذت تنجز أثرها وذاتها الضيقة في هذه الأمة، بحيث ذاب المشروع العام في مقولتها الخاصة، واندمج في إرادتها ومصلحتها، خلافاً للوعي العربي الإسلامي الذي قدم العروبة كآلية وذات في خدمة مشروع عام.

بهذا المعنى نفسر نشوء الدار العربية كذات متميزة عن دور أخرى كالدار الإيرانية أو التركية، مع أنهما تنتميان مع العرب إلى أمة إسلامية واحدة.

ولقد تتوج هذا التمايز على يد المشروع التركي الكمالي العلماني الذي كان حريصاً «وبردود فعل قاسية» على الانسلاخ عن كل ما هو إسلامي، إلا أننا لا ننسى مشروع أبي رقيبة الذي انسلخ كلياً عن كل ما هو إسلامي.

وأبعد من ذلك، فقد حدث من الصراع بين أعضاء هذه الأمة ما لم يحدث بين أي عدو وعدوه، وكما هو الأمر في حرب الخليج، ثمّ النزاع العربي التركي، والغربي الإيراني، وغير ذلك من الأمثلة، وبالتالي لم يبقَ من مشروع تلك الأمة إلا ذكريات تاريخية سديمية متكلسة شاحبة خافتة مفتقرة إلى نسغ الحياة ورواها وحيويتها النابضة والفرق واضح راهنياً بين محورية الدار العربية والدار الإسلامية، فالدار الأولى واقع وطبيعة وحياة وعفوية وفطرة، يضاف إلى كل ذلك استفتاء يومي حول أمهات القضايا: نكبة فلسطين، العدوان الثلاثي على بور سعيد، هزيمة عام 1967، انتصار عام 1973.

وعلى هذا الأساس، فمن الصعب الكلام عن أمة إسلامية، إذا كان المقصود من الأمة الوشائج واللحم، وحبائل الحياة وأوصال الثقافة والنفسية، وغير ذلك من المقومات التي تصهر الأمة في بوتقة الحياة المشتركة.

قد تكون هذه الأمة حقيقة قائمة على بعض الآمال والقلوب، ولكنها لم تستطع أن تشق طريقها إلى حقائق الحياة الكبرى بكل نسجها وأوصالها الثقافية والفكر الاجتماعية والاقتصادية.

وكما يقول "غوتة": ((إن النظرية دائماً رمادية، ولكن شجرة الحياة أبداً خضراء)).

وعلى هذا الأساس، فلا يمكن التحدث عن أمة ما لم تحمل هذه الأمة الشعار الأخضر، أي الحقائق التي تموج بالحياة، وتمور بالواقعية.

ونحن لا ندعي، بل لا نملك أن نفرض إرادتنا على الأجيال المقبلة، ولا أن نحدد لها مواقفها ومصالحها، وتبعاً لذلك، فالشعوب الإسلامية تستطيع حالياً أن تنسج فيما بينها مجموعة من الروابط والأهداف المشتركة، وبذلك تصبح هذه الأمة الكبيرة متجسدة «إلى جانب الكتب والتاريخ والقلوب في الإرادات»، أي تقترب كثيراً من الأيديولوجيا، وطبعاً فقيمة هذه الأيديولوجيا وقوتها تتعاظم تبعاً لحجم المشروع الاجتماعي، وإلا فنحن حيال يوتوبيا (طوبى)، فلسفة حالمة ليس إلا.

ليس هنالك مسلم يقف ضد الرابطة الإسلامية العالمية لا سيما إذا قامت هذه الرابطة على ناهض الحق ورافعة الأنسنة والعدل ومرتقى كرامة الإنسان، وقامت على لاهوت العمل ولاهوت التحرير ولاهوت الحقوق الاجتماعية، أي إذا قام الدين بتفجير حقائق غيبية وثورات إنسانية ملموسة دون أن يكرس لصالح الظاهرة الحاكمة (فقه السلطان) ولكن أليس موقفاً عدمياً سديمياً «بالنسبة للعربي» التحدث عن رابطة إسلامية ووضعها في سلّم الأولويات قبل إنجاز الوحدة العربية،

وكيف التحدث عن العالمية الإسلامية إذا لم يكن العرب هم طليعتها لا سيما عندما تطرح فكراً ووعياً لا تحتمل سيفاً.

وفي نظرنا إن المشروع التاريخي المرتجى للأمة الإسلامية يختلف نهائياً عن مشروع الدار الإسلامية في القرون الوسطى، وأقل ما يمكن قوله عن هذا المشروع الجديد أنه يقوم على الاحترام المتبادل بين الشعوب الإسلامية بل العالمية، أي يقوم في المقام الأول على مشروع ثقافي تقدمي إنساني يشد هذه الشعوب بعضها إلى بعض.

وعلى هذا الأساس فالأمة العربية مرشحة لأن تلعب دور الكارزما في هذا المشروع بالمعنى المقصود من الكارزما، أي التلفاز الرائي الذي يعكس آمال الآخرين بجاذبية الحرية والعقل والرضا والاحترام المتبادل.

والأمة العربية مرشحة لقيادة هذا المشروع، بسبب موقعها الجغرافي ورصيدها الثقافي، ولغتها التي هي جزء ماهية القرآن حسب ما أعلن عن ذلك المبدأ الأصولي.

هذا المشروع هو المشروع العربي الإسلامي المحمول على العربية والعروبة التي جوهرها الإسلام.

يقول الزعيم الراحل عبد الناصر في فلسفة الثورة:

- ✓ كيف يمكن أن نتجاهل أن هنالك دائرة عربية تحيد بنا وهذه الدائرة منا، ونحن منها، امتزج تاريخنا بتاريخها، وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلاً، وليس مجرد كلام؟.
- ✓ كيف يمكن أن نتجاهل أن هناك عالماً إسلامياً تجمعنا وإياه روابط لا تقربها العقيدة الدينية فحسب، وإنما تشدها حقائق التاريخ، وما من شك في أن الدائرة العربية، هي أهم هذه الدوائر، وأوثقها ارتباطاً بنا، فلقد

امتزجت معنا بالتاريخ، وعانينا معها نفس المحن، وعشنا نفس الأزمات، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك.

وامتزجت هذه الدائرة معنا أيضاً بالدين، فنقلت مراكز الإشعاع الديني في حدود عواصمها من مكة إلى الكوفة، ثمّ إلى القاهرة، ثم جمعها الحوار في إطار رابطة كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية، وفي نظرنا فهذا الوعي موافق ومطابق تقدمي وموضوعي، وليس وعياً تهويمياً سديمياً، لسبب بسيط هو أنه ينطلق من حقائق ومنطق الحياة والواقع والتاريخ.

فالأمة ليست جوهراً ثابتاً خالداً، مشروعاً في مخزن التاريخ يتجلى تلقائياً، ما إن تأخذ حركة التاريخ الكونية موقعها.

والأمة لا تكون إلا التعين السببي كوعي موضوعي تاريخي وليست تعيناً صورياً، كيفما اتفق، أو غائباً ميكانيكياً كفعل بيولوجي عضوي.

على هذا الأساس دعنا نتفق مع "الدكتور نديم البيطار" بأن الهوية القومية من نتاج التاريخ، أي تخضع للتحول في صيرورة دائمة، وليس في كينونة، وعلى العكس فنحن لا نتفق مع المفهوم الميتافيزيقي الحدسي اللا تاريخي اللا اجتماعي للأمة، الذي يحدد الأمة بأنها آية Edee أصلها في الملأ الأعلى، وتجلياتها تتدرج في الطبيعة كنظام يبنيه الأفراد والمؤسسات العامة، وبالتالي فإذا كانت الأمة ليست مفهوماً Concept وليداً لعوامل تاريخية واجتماعية، فالسؤال المطروح هو: ما هو هذا الملأ الأعلى أولاً؟ ثمّ كيف تتم هذه الانبثاقات والتجليات؟.

إن الأمة إرادة حرية داخل التاريخ، وليست إرادة تاريخ داخل الأمم، فالسياسة تقنية للواقع، بنفس الكيفية التي تجعل علم الاجتماع تقنية للروابط الاجتماعية، وعلم الفيزياء تقنية للحركة.

صحيح أن للفكر الدور الاستباقي والاستنهاضي، وإن المجتمع الإنساني ليس كالتجمع الغريزي، وبالتالي فالوعي المتقدم يخرج من ثنايا الواقع المتأخر، ليستنهض هذا الواقع، ولكن هل يمكن استنهاض الواقع المتأخر بوعي متقدم؟ ألا يجهض الواقع المتأخر بغناه وصلابته الوعي المتقدم؟ بالتأكيد يحصل هذا، إذا كان الوعي وعياً مخالفاً للواقع العياني، إذا كان الوعي نظرة خيالية توهمية رومانتيكية، أي إذا لم يكن وعياً تاريخياً مادياً جدلياً.

فالوعي لا يمثل كياناً يعيش خارج التاريخ، يختزن المعاني والدلالات، حيث لا تصدر المعاني عن ذات سيكولوجية أو متعالية، وإنما تتولد في اللغة الحيّة في الموضوع نفسه.

وخلاصة ما يمكن قوله حول هذا الموضوع، فالوعي بأمة إسلامية يجب أن لا يكون وعياً ببنية مستقلة ساكنة متعالية على التاريخ ماهوية ميتافيزيقية ذات طبيعة قابعة في أعماق الوجود، بل هي معطى تاريخي مفتوح على الحياة والتطور متحول نسبي، ولا مجال لإعادة إنتاجه في الحياة الإسلامية قبل إنتاج الحياة الإسلامية نفسها على نحو عقلاني وإنساني، وفي كل ميادين الحياة.

أجل نحن واقعيون ولكن لا نحمل نفسية الوقوعيين ولا استكانتهم وانهزامهم، وإنما ندعو للتعامل مع الواقع بالإرادة الحيّة ذات الثقة والهمة والثقة بالنفس والمعتمدة على الضمير والوجدان والعمل على إعزاز الإنسانية جمعها وكرامتها ونبلها وخيرها.

لكن السؤال المطروح هو: أين هذا البناء، ثمّ أين هذه الحياة المشتركة؟!.
وصف أحد المسؤولين المسلمين في الشرق الأقصى حال المسلمين في خطاب موجه إلى "الدكتور عبد العزيز كامل" بقوله:

((عند استقلالنا نظرنا إليكم، فوجدناكم تنظرون إلى غيرنا في الغرب، فاضطررنا أن ننظر إلى غيركم، وعندما نظرتم إلينا كانت أنظارنا هناك، وقد آن الأوان أن ينظر بعضنا إلى بعض)).

إذاً آن الأوان لا لئن تنظر الشعوب الإسلامية بعضها إلى بعض فحسب، بل إلى أن تتحد الأكف والإرادات والأهداف والمصالح في إطار نظرة إسلامية تعلي كرامة الإنسان، وترسخ حقوقه وحرياته.

وهكذا تتلخص القضية بالشكل الآتي: الدار الإسلامية دار حقيقية بقدر ما تنطوي، وتقوم على معاقد العزة: الأرض المشتركة، العمران المشترك، الاقتصاد المشترك، الثقافة المشتركة...إلخ، وآنئذٍ يزداد حلاوة قول الرسول الكريم: من مات في سبيل وطنه، فهو شهيد، ومن مات في سبيل ماله فهو شهيد، ومن مات في سبيل عرضه فهو شهيد.

والمسلم يقدس كل أرض يعيش فيها، لأنها هي التي تمكنه من تنفيذ التكليف الإلهي في عمارة الأرض.

وحقيقة الأمر ما من ذي بصيرة ينكر على الأمة الإسلامية دورها الحضاري ورسالتها التاريخية الخالدة، ولا أحد ينكر أن هنالك آيات قرآنية متعددة تبلور وعياً متقدماً ومحورية أخلاقية لهذه الأمة، سواء بالكلام عن خصائصها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ آل عمران/**110**.

أو بذكر الميثاق معها: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ الأنعام/**124**.

أو بتجديد دور هذه الأمة، وكونها شاهدة على بقية الأمم، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ البقرة/**143**.

ومن جهة أخرى، فقد ساعدت التجربة النبوية (تجربة المدنية في وضع لبنات قوية من صرح هذه الأمة، حيث بقيت هذه التجربة مثلاً يحتذى لكثير من التجارب التاريخية (المرابطون- الموحدون- السنوسي في ليبيا- المهدي في السودان...إلخ).

زد على ذلك فتاريخ هذه الأمة يؤكد استقلالها عما سواها من الأمم، إضافة إلى عدم امتزاجها وذوبانها في شخص الحاكم، وكونها مشروعاً ومؤسسة قائمة بذاتها، ومن مظاهر هذه الاستقلالية الحفاظ على الدار وإلزام الحاكم بذلك، وهذا ما تؤكده كافة الموارد السياسية تحت اسم (الحفاظ على البيضة).

وفضلاً عن ذلك، فقد بقيت الأمة محتفظة في مواجهة الحاكم ببعض الوظائف مثل الحسبة والجهاد والزكاة والتشريع والفقه.

وإذا كانت الأمة الإسلامية لم تستطع الحفاظ على وحدتها السياسية إلا أن هذه الأمة ألتفتت بعواطفها وأحاسيسها وتأييدها حول بعض الدول مثل الدولة الأيوبية والحمدانية والمملوكية في مصر، وهذا ما يؤكده القلقشندي في مصنفه صبح الأعشى، حيث أشار إلى أن الدول الإسلامية كانت تخاطب السلطان المملوكي على أنه ممثل للأمة الإسلامية.

إن اللوغوس القرآني (الخطاب والمنطق القرآني) ليس عبارة عن تدفق شاعري غنائي ذاتي، وليس عبارة عن سرد تاريخي على طريقة المؤرخين، وليس عبارة عن تأمل منطقي منهجي لمفكر متفلسف ومحلل، وإنما هو شيء آخر، إنه خطاب ينبجس ويتفجر خلال عشرين عاماً من العمل التاريخي المحسوس الذي عاشه النبي وجماعته الأولى نلمح آثار التردد والشك والقلق والأمل والمعارضة المضادة والهزائم والانتصارات التي رافقت الانبثاق التاريخي البطيء والصعب لطائفة

المسلمين، ولكنه استطاع أن يتوصل إلى خلع رداء التصعيد والتسامي والروحانية والتعالي وربما التنزيه في بعض الحالات على كل مغامرات ومراحل ذلك النضال التاريخي الذي انتهى بالنصر.

وهكذا «وبتصعيد الحدث وإسباغ الروحانية الدينية والكونية على مفردات ذات مضمون اجتماعي وسياسي» نجح القرآن في محو كل التفاصيل والدقائق التاريخية للحدث، ويصبح خطاباً كونياً موجهاً للبشر في كل زمان ومكان، وهكذا يفقد صفته التاريخية، فيبدو وكأنه خارج التاريخ، أو يعلو عليه، إنه باختصار مشروع نضال واستنهاض وإعلاء الهمة، ونفخ الروح وحثّها على العمل effort ere atria ومقاربة الباطل وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

والأمة الإسلامية ليست متروكة أبداً تتصرف بشؤونها وتتدبر أمورها، وإنما هي دائماً مع اتصال بالله الذي يرشدها، ويشد أزرها، ويكفل لها النجاح ضمن إطار الميثاق الأكبر الذي يجمع بينهما، والذي يقتصر بأن يسبغ الله نعمة على الأمة مقابل طاعتها له، ويمكن أن نسمي هذه الحالة هنا بشكل أدق، الخيار المقيد، أو الحرية المشروطة، وعن طريق الإيعازات والأوامر والدعوات وضرب الأمثلة والتحديات يتوصل القرآن إلى تشكيل وعي الأمة، فعندما تستبطن هذه الأخيرة القيم وأنواع السلوك التي يقترحها عليها الله، فإنها تصبح وكيلة الله في العمل المخلص للبشر.

على هذا النحو فهم المسلمون نجاح حملاتهم في الفتوحات أو استرجاع المناطق الداخلية في الإسلام كحصيلة وثمرة لإطاعة الله.

وإذا كان هذا هو دور القرآن في تشكيل وعي الأمة الإسلامية، فهنالك دور الفقهاء والوعاظ والمفسرين والأيديولوجيين والشعراء والفلاسفة حيث ساهم كل هؤلاء في تحديد منطق الأمة وتصوراتها ونظريتها للوجود وموضع حماسها، وشحن كل ذلك بطاقات روحية ونفسية ووجدانية.

وهذه الأمة الناتجة عن الخطاب القرآني وتجربة المدنية أصبحت بظهور العلماء الذروة العليا للسيادة والمشروعية الدينية، هذه المشروعية التي ارتدت في بعض الأحيان على الخليفة ذاتها وعارضته فيما يخص بعض شؤون العقيدة، وهذا ما يفسر دور "ابن حنبل"، وسكان بغداد أثناء الهجوم الذي شنه المأمون من أجل دعم أطروحة خلق القرآن، وبمعنى أكثر تفصيلاً فقد تميز التاريخ الإسلامي بصورة عامة بالانسجام بين السلطة والأمة، ويبدو أن الفتنة التي حدثت بين علي ومعاوية لعبت دوراً كبيراً في ترسيخ هذا الشعور، وتكريس مبدأ عدم الخروج ضد الحاكم ونشوء فقه غزير لتكريس ذلك، والحاكم كان حريصاً على إرضاء الأمة، يتضح ذلك من وجود حاكم كأتاتورك العلماني يسمي نفسه غازياً إرضاء للشعور العام.

وفضلاً عن ذلك فقد اتسم التاريخ الإسلامي «تحقيقاً للوحدة الوطنية» بالحرية الدينية، وظهور المدارس الفقهية المتعددة، حتى أن المذهب الشيعي كاد أن يصبح مذهباً خامساً لولا النزاع السياسي المملوكي الإلخاني وعلى هذا الأساس، فاجتماع الأمة على حكم شرعي كان يشكل هيبة وسيادة عليا مقدسة، ومهمة الخليفة تتلخص فقط في تطبيق القانون المحدد طبقاً لمنهجية أصول الفقه، وأثناء الاحتفال الذي يقام لتنصيب الخليفة والبيعة، يفترض مسبقاً أن العلماء من رجال الدين يميزون عن موافقة الأمة كلها، ويتوبون عن هذه الأمة التي كلفها القرآن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومبرر وجود الخليفة هو السهر على تطبيق هذا الأمر والتحقق من تمام ذلك، بل وفي المؤلفات الكلاسيكية التيولوجيا (الكلام).

هكذا نلاحظ أن الفصل الخاص بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ملحق دائماً بالفصل الخاص بالإمامة، وفيه نجد نبذة عن التيولوجيا الأخلاقية التي تطبع

بطابعها العقلية الجماعية للمسلمين والمؤمنين، لأنها تكرر كل يوم خطبة الجمعة، وفي الأقوال التربوية التي يرددها الآباء على مسمع الأبناء.

ولقد استمرت الأمة في التعلق بالمحورية الأخلاقية القرآنية حتى ظهور الأمة القومية الحديثة الدنيوية لا الدينية Etat– l'nation وكان ذلك إيذاناً بالتصفية النهائية لذلك المشروع العظيم الذي أخذ يلفظ أنفاسه منذ أن سار في نفق عصر الانحطاط، دون أن يستطيع التخلص من ظلماته، حتى انتهى به المطاف إلى الاختصار على يد المشروع القومي الشوفيني الاستعلائي التركي.

ولعلنا نلمح بواكير هذا المشروع الإسلامي العظيم في الحديث الذي جرى بين المغيرة بن شعبة ورستم قائد الفرس، فقد أخذ رستم يمني مفاوضة بالهبات والهدايا، ولكن كبرياء المغيرة تنتفض لتقول باعتزاز: ((لقد أصبح لنا دعوة)).

لقد شبه عمر بن عبد العزيز هذا المشروع بنهر عظيم، ولكن هذا النهر العظيم أخذ يضعف ويضمحل لأن معاوية اشتق منه نهراً، ثمّ تبعه عبد الملك بن مروان، ثمّ بعده وبعده من الخلفاء.

إن هذا النهر العظيم نبع من الأرض العربية وشقته أيد عربية، وخلقت منه مشروعاً أعطى أكلاً ثقافية واجتماعية وحضارية وأخلاقية، ولن يعود لهذه الأمة الإسلامية ألقها إلاّ إذا أعاد النهر العظيم يشق طريقه عبر كل بلد إسلامي، وفي مطلع ذلك الأرض العربية، ويستمد قوته من سواعد الشعوب الإسلامية، بأخلاقية الحوار ﴿لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ **الحجرات/13**.

وهذا العصر هو عصر تفجر ثورات الطموحات المتصاعدة، وهذه الثورات ليست مجرد إحساس بالإسلامية أو بالعروبة إحساس بأمة ذرية سديمية، وإنما هو قبل كل شيء مشروع ذو أفق ثقافي وعلمي وتكنولوجي وأخلاقي وديموقراطي وحقوقي

وإنساني، وغير ذلك. هذا المشروع يبني حجرة حجرة- لبنة لبنة- خلية خلية، وليس مجرد كلمات فارغة جوفاء.

لقد تحدث المستشرق الفرنسي الشهير جاك بيرك عما أسماه Arabite أي العروبة، ويعني بذلك الحس التاريخي والروحي والعاطفي والثقافي الذي ما فتئ يهزنا نحن عرب المشرق والمغرب، كلما ترددت في مسامعنا الخطابات الرسمية واللا رسمية التي تذكرنا بماضي الأمة، وبهويتها وتشدنا إلى حاضرها ومستقبلها، لكنه حس يبقى بدون مشروع، إن شأن العروبة «ونقيس على ذلك شأن الإسلامية» ليس شأن الأوروبية Europeanite، ذلك الحس الذي جعل شعوب أوروبا من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها تبني صرحها أو فضائها لبنة لبنة على امتداد ثلاثين سنة من روما إلى مستر يخت لتصبح سوقاً مشتركة فسوقاً موحدة، فاتحاداً اقتصادياً ونقدياً متكاملاً، بالرغم مما ميز ويميز بلدان تلكم القادة من صراعات، وتباين ثقافي وحضاري واقتصادي لن يعرف التاريخ مثله في أية قارة من قارات المعمورة.

لقد أضاعت عروبتنا مشروعها، ذلك الشيء الذي كان أساس إشعاعها الحضاري والعلمي والمعرفي والثقافي والتجاري على مدى قرون ضمن فضاء البحر المتوسط وخارجه، ثم انقلبت عروبتنا تلك إلى عروبة صوفية جديدة عن طريق قراءة نضالية متزمتة تعمم الإسلام وشريعته وسنته، وحين تحولت العروبة الإسلامية Arabio Islamit إلى سلاح حرب ضد كل مظاهر النظام العالمي الحالي ضد العلمانية والتعددية والديمقراطية، ضد الرأسمالية المسيحية والاشتراكية الماركسية واللا ماركسية، ضد القوانين الدنيوية وخيارات النخبة العصرية.

يقول "جوريس" رئيس وزراء فرنسا الأسبق أن مشكلة الغرب أنه لا يفهم العلاقة مع العالم العربي والإسلامي ودول العالم الثالث إلا على أساس وضعهم تحت الوصاية.

وحقيقة الأمر أن الغرب لا يقتصر على ذلك، بل يجهد نفسه للقضاء على هويتنا وكرامتنا وذاتنا الحضارية، وهنا يقف الإسلام كدرع واقٍ في هذه المعركة المقدسة حيث يمدنا بالبعد الروحي القلاب، ولكن مشكلة الإسلامويين أنهم يشدون الإسلام إل الوراء ويرزحون تحت صخرة نظرية المعرفة القروسطية لظلاماتها وانكفاءاتها وعجزها عن استيعاب روح الحياة وحركة العصر، ولا بد لهذه الأمة الإسلامية من حركة تقوم على الديمقراطية والأنسنة والبعد الروحي والمحورية الأخلاقية الإسلامية والتكنولوجيا وحقوق الإنسان، وغير ذلك من مقومات مشروع حضاري نهضوي إسلامي ديمقراطي يقوم على روح التعاون الحق بين الشعوب الإسلامية، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، لقد وصف الرسول ﷺ المؤمنين بأنهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً تدليلاً وتأكيداً على تجانسهم ومساواتهم واتحادهم.

والسؤال المطروح هو: هل يمكن الكلام على أرض الواقع وفي الظروف الراهنة عن ذلك البنيان المرصوص في جسد الأمة الإسلامية، الجسد الخالي من الهشاشة والفجوات.

لا أحد ينكر أن الإسلام ذو رسالة كونية بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ **الأنبياء/21**.

ولكن كيف يمكن الكلام عن هذا الطموح المسكوني "العالمي" دون استراتيجية سياسية موحدة، وأين هذه الاستراتيجية؟.

إن الأجزاء التي تركب الكلّ أصبحت حشداً هائلاً من التنوع، وإن العالم الإسلامي ينطوي على تمفصلات ثقافية متعددة، فما هو الجامع الذي يقوم بوظيفة اللحم لهذا التنوع.

هل يكفي القول بأننا أهل الكعبة، أم إنه يجب أن تمتلك المزيد من آليات الدمج والصهر والتواصل.

لقد وصف أحد المفكرين العالم الإسلامي بالسمات الآتية:

1- العالم الإسلامي ليس وحدة طبيعية أو بشرية أو حتى حضارية.

2- لقد ماتت الخلافة ميتة طبيعية منذ انقسامها، ثمّ دفنت بعد الحرب العالمية الأولى.

3- لقد فشلت كافة المحاولات والدعوات لتوحيد العالم الإسلامي في دولة إسلامية لأنها ضد الجغرافية وضد القومية.

4- إن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية يوتوبيا بينما الدعوة إلى الوحدة القومية السياسية دعوة معقولة ومشروعة.

5- إن القومية فكرة أوسع وأشمل من الدين وهي لا تتناقض مع الدين.

6- إن الوحدة الإسلامية هي وحدة عقيدة وتضامن، ولن تكون وحدة مصير سياسي دستوري.

وبالطبع فنحن لا نذر التراب في العيون، ولا ندعو إلى اليأس والقنوط، ولكن أليس الكلام عن عالمية إسلامية في الظروف المعاصرة أشبه ما يكون بوحدة الأشباح أو بقطعة من طين، أو بفواشة تطفو على سطح الماء.

كيف يمكن الحديث عن غلالة أو قشرة رقيقة تلتصق بهذا الكم الهائل من التناقضات، وبالتالي كيف يمكن تركيب الكل من هذا التنوع اللامتناهي من الأجزاء.

وهذه الأمة كسفينة نوح تهاجمها أمواج العداء والكفر والإلحاد، ولكنها ستظل أبداً إلى يوم الدين تزول الجبال ولا تزول.

ولا أحد ينكر أن هذا النموذج بقي باستمرار المثال الحي النابض للعديد من الحركات الإصلاحية التي نشأت في الدار الإسلامية تبث الروح، وتبعث وتجدد الشباب، وأنه على الرغم من الصراعات الداخلية والحروب، فقد بقي النزوع صارماً نحو المثال، وبقي هذا المثال هو الضمان المتين للمستقبل قاصدين بهذا المثال التجربة النبوية الفذة.

هكذا استقر في ضمير الأمة الإسلامية أن الله يبعث لها وفيها كل قرن وعند كل نازلة مصلحاً يجدد لها دينها وشبابها وقوتها.. بيد أن الاعتراف بوجود الأمة الإسلامية بالمعنى الديني العقيدي كأمة تقيم شريعة الله، تعبد الله، وتقاوم الكفر والإلحاد، هذا الاعتراف شيء والحديث عن الغياب والعدمية والفوات شيء آخر.

وتبيان ذلك أن الإيمان بالأمة الإسلامية على أساس العقيدة والدين لا يعني نسف كل ما ابتدعته البشرية خلال مغامرتها الروحية والفكرية، نسقاً يطمس ويهمش ويحاصر ويسفه جامعة اللغة والأرض والاجتماع والثقافة وغير ذلك من نواميس الحياة.

أجل لقد أنتجت الشعوب الإسلامية حضارات باذخة وزاهرة، كما أن الروح الإنسانية في مغامرتها من أجل الحق والتقدم والحرية، أنتجت هي «وبمنطق متحرر من أي جنس أو لون» عطاءات حيّة ومتقدمة، فهل نطمس كل هذا التقدم الإنساني، ونقول عنه أنه قطعة طين وأنه خراب ويباب؟!.

نذكر بوجهة نظر "الدكتور راشد الغنوشي" حول الفن الإسلامي والمعيار الذي وضعه من أجل ذلك وتدليله بأن إنتاج الشاعر طاغور يعتبر في قسم منه إسلامياً، في حين أن إنتاج بعض الشعراء المسلمين قد لا يكون إسلامياً، والمعيار الحاسم في ذلك هو مقدار ما يلعبه الفن في رفع الذوق والحسّ الإنسانيين.

سؤال واحد نطرحه على هذا الاتجاه ونحدده على الشكل الآتي:
هل إن زعماء الإصلاح الديني وعلى رأسهم الأفغاني والتونسي، ثمّ ابن باديس والكواكبي، هل إن هؤلاء ارتكبوا متن الخطأ عندما أقروا بجامعة اللغة والقوم؟.
لا نعتقد ذلك، بل نؤكد أن هذه المدرسة انطلقت من طبائع الأشياء ومن نواميس الله في الاقتصاد والاجتماع والكون والطبيعة والحياة.

لقد انطلقت مدرسة الاتجاه الديني السياسي الصرف من الدولة إلى الاجتماع انطلاقاً أقرب ما يكون إلى الشمولية (التوتاليتارية) ونحن بدورنا لا نؤثم هذا الانتقال من الدولة إلى المجتمع إذا كان معتدلاً ومقبولاً.

فالدولة ليست قشرة برانية أو شيئاً خارجياً يضاف إلى المجتمع، وليست فواشة عائمة فوقه، أو إنسان يسبح فوق الماء، وهو عرضة للغرق في كل لحظة.

الدولة ليست معلقة في فراغ، بل هي مؤسسة سوسيولوجية تاريخية واقعية اجتماعية، إنها متحد حضاري اقتصادي سياسي اجتماعي محمول على دورة الحياة على الشرط الإنساني الموضوعي على شبكة العلاقات والروابط المختلفة القائمة على العقل والجغرافية وكافة ظروف الحياة على علم الاجتماع الإنساني بكل أبعاده، على المنطق المستوحى من الحياة والاجتماع والعقل.

هكذا كان التلازم بين الدولة، وبين نواميس الحياة، وهو الأمر الذي حدا ابن خلدون لتصوير علاقة السياسة بالمجتمع كعلاقة الصورة بالمادة، إذ الدولة شكل المجتمع وعنصر تكويني فيه، أما المادة الخام التي تقدم موضوع الصياغة، فهي

المجتمع، والعلاقة بين الدولة والمجتمع تقوم على تبادل التأثير والتأثر، ومن ثمّ فالوحدة السيكولوجية والعقلية والسلوكية ديناميات وانهاضات للأمة.

لا أحد ينكر أن الرابطة الدينية تدعم بقية الروابط الإنسانية الأخرى، ولكن هذه الرابطة ليست الأولى والأخيرة، وها هو التاريخ يؤكد مصداق ذلك، وها نحن لا نجد خلال الحقب التاريخية هذا التحقق المطلق للفاعلية الدينية، بل إن الفاعلية الدينية، فاعلية تتبادل الأثر والتأثير مع بقية الفاعليات الأخرى، وقد تتحرر الدولة من الشرط الديني دون أن يعني ذلك، أو يرقى إلى مستوى الكفر.

الدين يحرك القلوب ويحرك الروح ولكن هنالك أتواق وخلجات تحرك الإنسان خارج الشرط الروحي الإيماني، وهذه الخلجات عميقة في الطبع الإنساني، وهي مخض من أمخاضه وجوهر من جواهر، وفي مقدمة ذلك الشرط القومي، والشرط الواقعي وشرط المنفعة الاجتماعية، الدين ولا شكّ ناظم هام من نواظم الحياة، ولكن هنالك نواظم أخرى.

والمسلمون في العالم لا يلتفون إلا حول الشرط الأدبي العقدي الذي تكلم عنه ابن باديس، ولكن كيف بالإمكان تطوير هذا الشرط أو تكثيف حضوره، وتمتين لحمته ورفده بوشائج وعرى اتصال أخرى لا حصر لها حتى يمكن الكلام عن شرط الدولة على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يهبوا هبة رجل واحد، فيزهقوا الركام الكريه والتخلف الذي هو ضرب من ضروب الشرك.

ولكن ما هي شروط هذه النهضة الشاملة، هل يتم ذلك عن طريق عناصر موضوعية أم ذاتية؟ تنظيمي كما هو الحال في تنظيم الإخوان المسلمين حسب رأي الإمام حسن البنا؟.

وفي الحقيقة لا يجوز المبالغة في العنصر الموضوعي أو الذاتي، والذاتوية (التطرف في الذاتية أو عيوب الذاتية) المفرطة لا تعني إلا الإرادوية، ومن جهة أخرى فلا يجوز الإفراط في العنصر الموضوعي والاستسلام كلياً للحتمية، بل يجب التسليم

ضمن صيغ مرنة وغير محددة بالشرط الإنساني المؤسس على الإرادة البشرية الواعية المسلحة بالإيمان وبالشرط الموضوعي.

وعلى ضوء ما تقدم، يمكننا أن نلخص مبدأ التقدم سواء على صعيد الأمة الإسلامية أم الأمة العربية ومع ملاحظة ما يلي:

تنطلق الأمة الإسلامية إذا اعتمدت قاعدة صلبة لها، وهي الأمة العربية، على اعتبار هذه الأمة هي الخازن والحارس للقيم الروحية الإسلامية لبرميل البارود الروحي.

ولقد تفجر هذا البرميل في الماضي وأنتج ما أنتج من تلك الانطلاقة الإسلامية الكبرى، وهذا هو معنى قول "الدكتور عصمت سيف الدولة" السالف الذكر عن الحضارة الإسلامية المبرأة من الشعوبية، على يد العرب وعن الحضارة العربية المتحللة من القبيلة على يد الإسلام.

ومع ذلك فهذا لا يعني أنّ الأمة العربية لا تتقدم وتنطلق إذا ما عانقت نواميس الله في الاجتماع والاقتصاد والثقافة لا يعني ذلك، فالله تعالى يقول: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ **الإسراء/20**.

كاشفاً عن مناهج التقدم في ذاتها وسمتها الموضوعية البعيدة عن هذا القوم أو ذاك ولكن كل ما أقصد أن التقدم العربي بالآلية غير الإسلامية، هذا التقدم يمثل برنامج الحدّ الأدنى، وبالمقابل فإذا أرادت الأمة العربية أن تنطلق إلى آفاق الغد المرتقب، فآليتها الحضارة العربية الإسلامية، وليس الرسالة بالمعنى العقيدي الديني الصرف.

العقيدة بالمعنى الديني يقول بها، ويدلل عليها رجل الدين، أما رجل الاجتماع والسياسة، فلا بدّ له أن يتكامل مع منطق الأمة مع منطق العقل والاجتماع.

الحضارة العربية الإسلامية هي الساحة المغناطيسية التي تحرك الإبرة المغناطيسية أو إبرة الساعة، وهي في الآن نفسه شرعية الأصول التي تكلم عنها كونت وغيره، وهي برميل البارود الذي يفجر ويمنح الطاقات.

هل يمكن الكلام عن المذهب القومي عن المبدأ القومي عن الوطنية القومية، إذا رمينا في البحر الأنثروبولوجيا الثقافية، أي تراثنا ومنطقنا ونظرتنا إلى الوجود وحماسنا الشعبي وموسوعتنا الفكرية لندلل بعد ذلك بخواء العصر الجاهلي.

لا أحد باعتقادي يقول ذلك، بل نجد مفكرين عرباً غير المسلمين يهللون لشرعية الحضارة العربية الإسلامية، من هؤلاء المفكر العربي "د. قسطنطين زريق ود. رباط، والمطران جورج خضر والمفكر أمين نخلة".

وإذا كان الحضاري يؤسس السياسي حسب رأي "ريمون بولان"، فلا بدّ إذاً من تأسيس السياسة في وطننا العربي على قاعدة أصلب وأمتن، ألا وهي الحضارة العربية وبالذات الحضارة العربية الإسلامية، ولكن لماذا هذا الاقتران، بين وصف العربية وبين وصف الإسلامية؟ الجواب بسيط جداً لأن هذه الحضارة وليدة ونتاج الوجدان العربي والإرادة العامة العربية والضمير الجمعي الذي هو ضمير مشترك لكل عربي مسلماً كان أم غير مسلم.

هذه الحضارة العربية الإسلامية هي مبادئ الحياة التي تكلم عنها "د. العروي"، وبالتالي فإن إطراحها يعني إطراح مبادئ حياتنا.

العلاقة بيني وبين الله وضع إلهي يتموضع به المسلمون وغير المسلمين كل حسب موقعه الديني، أما الحدث البشري التاريخي الذي هو امتياح الدين من نصوصه وإدراجه في نسغ الحياة وإمراره من خلال أمبيق ومصفاة الضمير الجمعي، فهذا أمر تتحدد قوته الإلزامية، ليس في المصدر المادي الذي استخدمته، وإنما في المصدر الإرادي الذي طرحه، والتزم به وارتضاه، ألا وهي إرادة الأمة.

أنا استمد قاعدة قانونية من بلجيكا أو فرنسا مثلاً، فأصب عليها عصارتي الهاضمة، وتقبلها إرادتي شرعة ومنهجاً، فهنا يكون المصدر المادي مجرد وعاء لإرادتي، أما مصدر إلزام القاعدة فهو إرادتي التي قبلت بالقاعدة واسبغت عليها سمة القاعدة الملزمة.

على هذا الأساس نقول أن مصدر الحضارة العربية الإسلامية ليس هو إرادة المسلمين فحسب، وإنما إرادة الأمة العربية التي اختارت هذا المصدر المادي أم سواه، وباستطاعتها أن تتخلى عنه وتتمسك بغيره من المصادر.

إن ديمقراطية المجتمع وديمقراطية الحكم وديمقراطية التشريع، هذه الإضراب من الديمقراطية، هي صمام الأمن لمسيرة الأمة وانطلاقها وازدهارها لا ضير على المسيحي أن يلتف حول الحضارة العربية الإسلامية ليؤكد ذاته ويبلور ماهيته وشخصيته وهويته لأن هذه الحضارة جزء منه وهو جزء منها، وإن تخليه عنها هو الألينة والاغتراب والانسلاخ عن الماهية والجوهر.

وبالمقابل فالضير أن نتعامل مع الحضارة العربية الإسلامية على غير قاعدة ديمقراطية المجتمع وديموقراطية الثقافة وديمقراطية القيم.

إن اللحظة الدستورية بشفافيتها هي القمين والكفيل بدرء كل مفسدة في هذه اللحظة أكون خالقاً (بلغة القانون الدستوري) أخلق كل ما هو وضعي، اخلق أية قاعدة صالحة لسيرورة حياة أمتي، في هذه اللحظة لا شيء يبهظ ويثقل إرادتي اللهم إلا خلجات الضمير والتوقان إلى مستقبل الأمة، وبالمقابل يتعذر عليّ أن أكون خالقاً إذا كنت مخلوقاً أي محكوماً جبراً وإلزاماً واضطهاداً.

في هذه اللحظة الدستورية الشفافة ليس فوق وجداني صخرة إلا سلطة الثقافة الحرّة وسلطة التراث وسلطة العقل والشرط الإنساني هل يضير العربي المسيحي أن يكون جزءاً من هذه اللحظة الدستورية الحرّة له ما لها وعليه ما عليها شريطة

أن يتحقق لي وله على قدم المساواة وعلى قاعدة المواطنة شفافية هذه اللحظة وبراءتها وخلوها من كلّ شائبة؟ هل يضيره أن يتمسك المسلم برؤيا للحياة مستمدة من القرآن الكريم لا سيما إذا تحقق الشرط الإنساني، وكان الطرح محمولاً على آلية الديمقراطية بكافة آلياتها: ديمقراطية المجتمع –ديمقراطية الثقافة– ديمقراطية الحكم– ديمقراطية التشريع.

ولا حاجة للتدليل بأن المسيحي نفسه يطرح ما عنده من قيم على قاعدة دع الزهور تتفتح ولنتبار بحثاً عما هو مشترك في أرض مهبط الأديان ومنبع القيم الإنسانية الخالدة.

هكذا يعتبر الإسلام نفسه تتويجاً لمسيرة الرسل، وقافلة الأنبياء يتهادى بصحبتها نغم الخلود، والقرآن الكريم لا يني لحظة واحدة يصدح بأنغام هذه القافلة، مؤكداً على صعيد القانون والحياة ضرورة إقامة الدين المشترك، ألا وهو عبادة الإله الواحد: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الشورى/**13**، والخطاب ولا شك موجه أيضاً إلى أهل الكتاب.

إننا نجد في أوروبا أحزاباً تطرح الحل الديني ومع ذلك لم نجد ضيراً على انطلاقية الحضارة الأوروبية، لطالما بقي طوق النجاة، ألا وهو الديمقراطية، ومن جهة أخر فلن يضير العربي غير المسلم أي قرار عظمة لمته وأية انطلاقية وكينونته، وفي مطلع ذلك أن تحقق الوحدة العربية أولاً وأن تحمل هذه الأمة (الرسالة) وذلك بأن تتبوأ الأمة العربية مكانها من الأمة الإسلامية أي أن تتحرك إبرتها السياسية في ساحتها المغناطيسية وأن تضع أقدامها وبذورها في المشتل الطبيعي، ألا وهو الإسلام كجزء من ماهية وتكوين هذه الأمة.

وحسبنا في هذا المقام قول الشاعر:

إنمــــا المــــرء بــــالإخوان	واليــــد بالســــاعد والبنــــان

العرب هم الأصبع الإبهام في اليد الإسلامية، وهذه الإبهام لا أهمية لها إن اقتطعت من اليد التي تنتمي إليها.

إن العداوة إسرائيل لا تني تبحث لاهثة هنا وهناك لتمتلك أسباب التواصل مع الغير، في حين أننا قبلة المسلمين ومعقد آمالهم، فكيف إذاً نتخلى عن هذا الموقع القيادي عن هذه الرسالة الخلاصية لنا ولغيرها.

لا نعتقد أن في ذلك ضيراً على أحد لطالما أننا في زحفنا الأكبر نتمحور ومتجذر حول مشروع نهضوي كبير أساسه ناهض الحرية والحقوق الأساسية للمواطن ومناطه كرامة الإنسان، ووجهته العدالة وهدفه حب التعاون بين الشعوب.

وفي نظرنا إنه ما من مشروع ثقافي وخطاب إنساني يضارع روح الإسلام ونظرية الأخلاق فيه ومنظومة الأنسنة ونسق الكرامة الإنسانية وبشكل أكثر صراحة، مشرعية الأصول التي نادينا بها، وشرعية الاجتماع التي دللنا بها، وشرعية الدورة الحياتية التي تمسكنا ونتمسك بها.

وشرعية الشرط الموضوعي التي نجعلها الصخرة المكينة للبناء السياسي، هذه الشرعيات تتلخص وتتحدد في لفظة (القرار) التي كثيراً ما تتكرر في النص القرآني.

لقد استخدم القرآن هذه الكلمة في سياق تشبيهه للكلمة الطيبة بشجرة باسقة أصلها ثابت وفرعها في السماء، في حين أن الكلمة الخبيثة كشجرة أجتثت من الأرض ما لها من قرار، وشرعية الأصول «أصول الحياة» نجدها في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴿20﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ المرسلات/**20-21**.

وهذه الشرعية الموضوعية نجدها في سياق حديث القرآن عن البناء الذي أتى الله عليه من القواعد، فخرّ عليه السقف من علٍ.(لاحظ كلمة قواعد) هكذا فالعقيدة لا بد لها من مشتل، ولا بد لها أيضاً من برميل بارود، لسبب بسيط هو أن العقيدة

شرارة، صاعق تفجير، وبالتالي لا بدّ لها من قرار مكين، وهذا القرار المكين أو المشتل الطبيعي لاحتضان البذور هو العروبة.

فالعروبة هي الأساس لأية منظومة عمل إسلامي مستقبلي، فهي العروة الوثقى وحلقة اللباب في هذا النسق أو المنظومة.. ولكن لماذا؟.

إن العمل المستقبلي الإسلامي «ليس كالماضي يقوم على القوة والسيف» سيقوم على الفكر والروح والقيم الإنسانية النابعة من الإسلام أي على قاعدة ثقافية إسلامية عريضة، وهذه القاعدة الثقافية لا بد لها من حامل بشري هو الإنسان العربي.

لكن ما هو هذا الخطاب الثقافي المجيد الذي تحمله العالم لا سيما في هذه الثورة مع اليهود؟.

وفي نظرنا لن يكون هنالك نظام عالمي جديد، إذا لم تقف جميع الأمم «بما في ذلك الأمة الإسلامية» على صعيد قاعدة رصينة تقوم على المساواة والاعتراف المتبادل والاحترام والتنافس الحر، وأخلاقية الحوار بتحديد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ **الحجرات/13**.

وهذا ما أكده أحد المفكرين العرب بقوله: "إن مسيرة التاريخ الكوني آيلة إلى حالة من حالات الكاووس Choos، حسب تعبير الفيزيائيين الحديثين، أو السديم الذي يتفاعل باتجاه إعادة التشكيل، ولا اعتقد أن إعادة التشكيل ستعيد نسخة عصر التنوير والقرن التاسع عشر، أي أنها لن تستعيد علمانية الماضي وعلمنته التي أوصلت الكون إلى ما نحن عليه.

يتجه المستقبل نحو تشكيل ثقافة توليفية، قد يكون للثقافة الإسلامية دور فيها مع ثقافات أخرى، وقد لا يكون...وهذا متوقف على الجهد الإبداعي للمسلمين اليوم، وليس في الماضي.

العالمية الثانية ليست تكراراً للعالمية الأولى

لا شك أنه ليس لأمة أن تفرض رأيها وخبرتها وتجاربها على أمة أخرى، كذلك فليس لجيل في أمة أن يفرض رأيه على جيل آخر في هذه الأمة، وبالتالي فكل جيل في أمة له أن يستبصر ويعي ويحس ويعمق ما حوله، وما يخف به ويحيط به من ظروف ومعوقات ومكتنفات.

فالأمة التي تحيا وتعيش ظروفها هي الأمة التي ترنو إلى أعالي الأمور لا إلى سفاسفها، وإن كان هذا لا يعني عدم الأخذ بعين التقدير والاستفادة من خبرة وتجارب الأجيال والأمم.

عين الرسول الأعظم محمدﷺ معاذ بن جبل والياً على اليمن، ولكنه أخذ يسأله بماذا تحكم، فكان الجواب بكتاب اللّه، هنا استرسل الرسول ﷺ ليسأله قائلاً: ﴿كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءًا؟ قَالَ: أَقْضِي بِكِتَابِ اللّهُ، قَالَ: فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللّهُ؟ قَالَ: فَبِسَنَةِ رَسُولِ اللّه، قَالَ: فَإِنَّ لَمْ تَجِدْ فيهَا؟ قَالَ: اجْتَهَدَ رَأْيِي وَلَا آلُو، قَالَ: فَضَرَبَ رَسُولُ اللّه يَده فِي صَدَّرِهُ وَقَالَ: الحَمْدُ للّه الَّذي وَفَّقَ رَسُولِ رَسُولِ اللّه لَمَّا يُرْضِي رَسُولُ اللّه﴾، فالبشر إذاً متوقفة على الرأي المستقل الممحّص المتبصر المفكر الذي يعي ما حوله ويجترح الحلول المناسبة النابعة من الرأي الخاص والتجارب الذاتية.

في هذا الإطار نسمع الكلمة الذائعة الصيت للإمام أبي حنيفة المدللة رأي الرسول ﷺ على العين والرأس أما الصحابة فهم رجال ونحن رجال وفي حديث آخر له: قولنا هذا رأي فمن جادنا بخير منه أخذناه ونعود فنكرر أن أمتنا «وخاصة الحقبة الراشدية» تمتلك تراثاً خالداً، يجب الأخذ به بعين الاعتبار من خلال وعينا واستبصارنا وإدراكنا لمكتنفات حياتنا وظروف أحوالنا.

فالعصر الحديث ينطوي على حقائق ومستجدات وظروف وأحوال علينا أن نفهمها ونعيها بعقولنا وأحاسيسنا وفهومنا وتجاربنا ونسلط عليها تجاربنا ووعينا وخبراتنا وإراداتنا، فتحدنا باسم الزمان: كل يوم يأتي يقول: يا ابن آدم أنا في خلق جديد[1].

لا يعني كل هذا أن نضرب الذكر صفحاً من الماضي، وإنما الذي نعنيه أن نسترشد به ونستضيء بحكمته ونتعظ بجلال تجربته، كل ذلك من خلال إرادة خلاقة تستهين بالحتميات والقوالب والصيغ الجامدة وترقى إلى مستوى عظائم الأمور.

العصر الحديث يعج ويمور بالظواهر والقوى والمظاهر وما علينا إلا أن نعي كل ذلك ونحسّ تقدير الحلول لها وكيما تحيط بكلّ ذلك ما علينا إلا أن تنخرط في العالم تمشي في مناكبها وتأكل من رزقه وتعيش ظروفه، وهذا يقتضي أن تكون أعضاء في النادي العالمي تشترك معه في أحاسيسه وآلامه لا أن نعيش تجربة "دار الإسلام ودار الكفر" فنقسم العالم إلى قسمين، بل أن يكون العالم دار عهد ودار دعوة، فآنذاك يتاح المقارنة بين النور والظلام، انتصار دين الهوى ودين الحق، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ **الصف/9.**

---

[1] – أورد هذا مالك بن نبي في كتابه شروط الحضارة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوي، القاهرة، دار الفكر.

فالعالمية الإسلامية الثانية ليست تكرار حرفي للعالمية الأولى، فهي «وبعد أن أعلى الوجود الإسرائيلي عن ذاته المستعلية بالباطل في قلب الحوض الحضاري ما بين النيل والفرات» ليست تجديداً للعالمية الأولى بل تأتي عبر الهيمنة على تلك العالمية الأولى بالنقد المنهجي القرآني.

لنرى فيها «وقد انهارت علمياً بعد 1400 عام» ظواهر التناقض بين تجربتنا والمنهج الإلهي القرآني، ومن ثم فلو لم يكن ثمة تناقض حملته خلال هذه المدة الطويلة لما كان الانهيار.

لقد أعطى القرآن لتلك المرحلة كل خير يمكنها أن تستوعبه حسب استعداداتها «وقد استوعبت الكثير» ولكنها استلبت نفسها نحو بواطن الضعف لأنها لم تحقق الوحدة كاملة بين المنهج الإلهي وسلوكها الحضاري[1].

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص619.

البحث الرابع

منهج العالمية الإسلامية الثانية

المنهج القرآني ذو دلالات عميقة في فهم التكوين والحركة وصيغة الحياة الكونية برمّتها في علاقتها بالله، أي بالمصدر الأزلي لكل شيء، ومن هذه الناحية يعتبر القرآن الدالّ بمنهجيته على الزاوية الإلهية في النظر إلى الأمور إطاراً يسمو في نقده وتحليله لموضوعات الحياة الكونية على كل نظرة بشرية مهما بلغت هذه النظرة من السمو والحكمة، فهو منهج الحكمة الدقيقة التي ترتقي على كل منهج حتى منهج النقد والتمحيص الإلهي للأمور يتجاوز كلّ إمكانيات الوعي البشري في النقد والتمحيص والاستدلال.

والارتباط بالمنهج القرآني يعطي تبعاً لذلك قدرة على استمداد النقد السامي واستلهام المعاني الدقيقة في تكوين الأشياء وتقديرها واتجاهها وفي تجارب الأنبياء أنفسهم لا بالنقد المجرح والتفصيل الاعتباطي، ولكن في الفهم الداخلي للأبعاد الوجودية الكامنة في كلّ تجربة والمميزة لخصائصها .

وكما هو حال المنهج الإلهي في النظر إلى التجارب النبوية كذلك حاله في النظر إلى مركبات التاريخ وخصائص المجتمع وداخلية الإنسان.

بهذا النظر والرؤية يصبح المنهج الإلهي يؤكد أن البشرية قد وصلت إلى محمد ﷺ «خاتم الأنبياء وفاتح عهد العالمية» وهي على حدّ من القدرة تمكّنها من النظر إلى الأمور طبقاً للإرادة الإلهية ومن الزاوية الإلهية، فليس إعجاز القرآن في المبنى

اللساني، ولكنه في المعنى المنهجي، وإن كان المبنى اللفظي هو حجته على أهل البيان فالمعنى المنهجي هو حجّته الآن على أهل الحضارات العلمية ضمن أرقى أشكالها الوضعية العالمية.

منهجية القرآن بهذا المعنى الإلهي تظل محتوى للوعي الكوني أكبر من موروث النبوات، بل هو الحكمة المهيمنة على حكمة الأنبياء والوعي الذي يتجاوزهم زماناً ومكاناً[1].

ومن خصائص اختتام النبوة "بمحمد" أن اللّه قد اختاره ليحمل إلى البشرية هذا المنهج الكامل ليصبح بديلاً لها بالوعي عن النبوات وليستمر معها عبر الزمان والمكان، وقد اختار اللّه التجربة المحمدية من بين كل التجارب لتأتي خلوّاً من المعجزات المباشرة كدلالة على أقصى حالات النضج البشري في توجهها إلى اللّه بشكل ترى معه فعل اللّه متجلياً في الزمان والمكان ومحيطاً بالواقع كلّه بكيفية عميقة يوضحها المنهج نفسه، لقد منحنا اللّه "بمحمد" منهجاً يرقى على كل المناهج ونوراً نافذاً إلى كل التفاصيل وساطعاً في كلّ الأرجاء.. محيطاً بكل التجارب ويتجاوزها في الوقت نفسه بالنقد والتحليل ويحرّك قوى استبصار دافعة وعميقة، بهذا المنهج تهيمن على أنفسنا وعلى تجربتنا وعلى الآخرين، وبه ندرك أبعاد الماضي والحاضر والمستقبل[2].

وبهذا المنهج الإلهي القرآني لا نبدأ من حيث انتهى الآخرون قبلنا ولكننا نبدأ من حيث البداية لعالمية إسلامية بعد أن انهارت العالمية الأولى واستبدلها الناس بالارتداد نحو الإقليمية والبحث في المناهج الوضعية، وبعد أن أعلن الوجود

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص617.

[2] – المرجع السابق، ص618.

الإسرائيلي عن ذاته المستعلية بالباطل في قلب الحوض الحضاري ما بين النيل والفرات.

إن مقومات المرحلة الراهنة مقومات جديدة وواقعها التاريخي جديد وإطارها الموضوعي جديد وكذلك هي جديدة في علاقتها بالمنهج الإلهي القرآني.

نحن الآن على أعتاب مرحلة جديدة.. مرحلة تحمل كل موجبات النبوة ومبرّراتها، ولكن اللّه قد اختارها لمنهجه ولم يخترها لأنبيائه، اختارها لمكنون القرآن الذي لا يمسه إلا المطهرون، وهنا يكمن الفارق الخطير.. فالنبوة تجربة عملية بيانية، والمنهج تجريد نظري دقيق، التجربة العملية البيانية تتعلق بخصائص فردية ومحليّة ويحكمها الظرف التاريخي والاجتماعي، أما المنهج الإلهي فهو تجريد على المستوى الكوني يعلو على كلّ الخصائص الفردية والمحلية، ويهيمن على متغيرات الظرف التاريخي والاجتماعي، النبوة اتجاه للارتباط بالقدوة الفردية المعاشة في الواقع والمتحركة بمواقفها فيه، والمنهج نقد وتحليل دائم للواقع ولحركته[1].

ارتبطت العالمية الإسلامية الأولى بالتجربة العملية البيانية المحمدية فكان هو القدرة والأسوة الحسنة ضمن ظرف تاريخي واجتماعي محدّد يلقي بخصائصه وظلاله على التركيب العام للتجربة.

هيمن المنهج الإلهي على تلك المرحلة ضمن القدوة المحمدية، وأعطاها دفعها في حدود خصائصها، وهو (دفع تحويلي) هدف لإخراج العربي من أوضاعه المتناقضة مع منهجية السلام الكوني في إطار الاستعداد الممكن للعربي، كان الرسول ابن ذلك الواقع وقد خصّه اللّه بالتحرّك في مقدمة التحويل حاملاً أعباء الرسالة، وقد مضى في تحركه لأبعد ما تحتمله تجربته وبأقصى سرعة ممكنة، وقد كان اللّه مهيمناً على التجربة بمنهجه محلّلاً وموجّهاً ومشيراً تارة بوضوح

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص620.

وتارة بتورية وتارة بإشارة خفية إلى ما ينبغي أن يتحول باتجاهه العربي، حرّم ما حرّم، ونهى عمّا نهى، وكرّه ما كرّه، وحبّب ما حبّب، وحلّل ما حلّل، بأساليب مختلفة طبقاً لقواعد التجربة العملية وناظراً لخصائص الظرف التاريخي والاجتماعي، فالمنهج الإلهي تجريد يحتوي النبوّة ضمن حركتها الواقعية، فيعطي التجربة خصائصها وأبعادها ضمن إطار الزمان والمكان، هذا الاحتواء المنهجي لتجربة النبوة هو قاعدة العلاقة الثابتة مع كل النبوات في كل المراحل، فأبعاد المنهج يعطي خصائصه للتجارب العملية في كل مرحلة، أما الأبعاد الثابتة في المنهج الإلهي فتتمحور كلها حول الحقّ والسلام فبالحق خلقت السماوات والأرض وما بينهما، وبالسلام تمضي التجربة الكونية إلى مصيرها، الحق نقيضه الباطل، والسلام نقيضه الصراع وباندماج الحق والسلام تتحقق الوحدة الكونية بمعناها الإلهي.

فالإيمان في عصرنا يعني الانتقال إلى إدراك عميق لمنهجية الخلق والتكوين كما يوضحها الله في القرآن وهي مرحلة إيمانية لم يصلها من قبل إلاّ قلّة من الذين اصطفاهم الله.

إن قاعدة المفهوم التعبدي في عصرنا هي التوجه الدائم إلى الله بالفعل ضمن الحركة العملية في الواقع، وهذا يؤدي إلى تكريس مفهوم السلام مع الله ومع الكون ومع الذات ضمن منهجية الخلق الرحماني القائم على التسخير والوحدة.

إن الدين في جوهره مسألة واحدة محددة تلتفّ حولها كلّ موضوعات القرآن والتوراة والإنجيل، تلك هي مكانة الإنسان في الخلق الإلهي، فالإنسان في قمته هو نفخ من روح إلهي يجسد أرقى مستوى من "التركيب" والمطلوب من هذا الإنسان في المقابل أن يجسد أرقى مستوى من (الوعي) وأرقى مستوى من (الممارسة) حتى تستقيم المعادلة بشكل متناسق (التركيب محولاً إلى وعي محوّلاً إلى ممارسة) أن يسمو الكائن البشري في وعيه وممارساته إلى مستوى خلقه الإلهي، فليس المطلوب

أن نسمو إلى الله مقصداً لذاته العليا فهذا مقام لا يصله بشر، وإنما المطلوب أن نسمو إلى تركيبنا، ونحقق كمالات هذا التركيب (الخلق) بالوعي والممارسة، أي أن ننطلق إلى قوّتنا الكامنة فينا وأن نسمو بتفجيرها، هكذا تخرج كمالات الخلق المودع فينا كخلفاء عن الله في الأرض، الدين هو تحويل الذات إلى كامل طاقتها عبر الوعي الحقيقي بمنهجية الخلق الكوني واستمداد حكمته في الممارسة، إنه التحويل لقوة الخلق المودعة فينا إلى معادل لها على مستوى العقل والأخلاق وضمن رؤية كونية تتوافق مع حكمة الله وإرادته[1].

الإسلام هو دين العالمية الذي يستجيب لخصائص الواقع ضمن متغيرات الزمان والمكان، خلاصة الماضي وبداية الحاضر المتكيف دوماً مع الاستمرارية والحافظ دوماً على الجوهر: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴿142﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴿143﴾ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴿144﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ البقرة/**142- 145**.

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص641.

لتأكيد علاقة القرآن بالماضي الديني وللتأكيد على استمرارية القرآن عبر المتغيرات التاريخية خاطب الله محمداً في سورة فاطر: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ **فاطر/31.**

هنا تأكيد على أن الخلاصة استمرار من الماضي ثم ينتقل القرآن إلى المستقبل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ **فاطر/32.**

إن مفهوم الاصطفاء من بعد "محمد" والتوريث لا معنى له خارج وجود متغيرات تفرض على الناس رؤية جديدة للمحتوى القرآني في علاقته مع الواقع، بمعنى آخر إن التوريث والاصطفاء اللاحق من بعد انقطاع النبوة يعني وضع المتغيرات التاريخية في الاعتبار، وكم يجدر بنا أن ننتبه لمعنى الآية حول خصائص الوارثين المصطفين فهم نوعيات مختلفة ليست مرتبطة ولا متمظهرة بالنماذج التقليدية لرجال الدين، فمنهم الظالم لنفسه ومنهم المقتصد ومنهم السابق بالخيرات، فحتى الظالم لنفسه يورثه الله ويصطفيه ويعطيه من وحي الكتاب، إن هذا ضمان للاستمرارية في دائرة المتغيرات التاريخية.

وتوضح الآية بُعداً آخر في هذا التوريث، ففي هذه الآية يفصل القرآن بين الكتاب والوحي: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ **فاطر/31**، فالقضية هنا هي وحي من الكتاب وانكشاف في قلب الوريث وعقله تجاه المعاني الكامنة في الكتاب والتي يجليها الله في كل عصر من خلال الوارث الذي يصطفيه، هكذا يحلّ القرآن مشكلة انقطاع النبوة.

فالتوريث هنا، والقائم على وجود الله فعلياً في الحركة الكونية، هو الحلّ القرآني لقضية العلاقة بين القرآن ومتغيرات العصر، هذه العلاقة التي تساءل عن مصيرها "الدكتور خليل أحمد خليل" في كتابه **جدلية القرآن** ص25:

((وفي مستوى آخر من التحليل لجدل الغيب والطبيعة والبشر ستواجهنا مسألة الصلة بين الله والنبي، ومسألة التواصل بين الله والبشر بعد النبي، فالله الذي ﴿ليس كمثله شيء﴾ هو مُطلق خارج تاريخنا، خارج حدودنا الزمانية والمكانية، خارج ثباتنا وتغيرنا))[1]، والتوريث كما أكدنا وقلنا مراراً هو توريث موضوعي الحاكمية للقرآن ضمن منهج التسخير ودلالة مفهوم "أولي الأمر منهم" وليس فيكم أو عليكم.

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص652.

القوى الاجتماعية والسياسية الحاملة لمشروع العالمية الإسلامية الثانية

كل عمل مهما كان صغيراً لا بد له من الحامل الفاعل الذي يحققه وينقله إلى عالم الواقع، ويترجمه إلى خير الوجود، قال تعالى مصوراً هذه الظاهرة بقوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴿20﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ المرسلات/20-21، فالماء المهين "بذرة الحياة" يتحقق في عالم الوجود لا بدّ له من قرار مكين يعتمد، يستند ويتكئ عليه.

وكان مفكرو اليونان يصفون ذلك بالانتقال من عالم الوجود بالقوة إلى عالم الانتقال بالفعل، والواقع، فعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، وبالتالي فالبناء القوي لا بدّ له من دعائم تحمل قواعده، لا قطعة من طين هشة تنهار به، فينهار وتذروه الرياح.

قال الشاعر:

تأبى الرماح إذ اجتمعن تكسرت	وإذا افترقن تكسرت آحادا

كم يصدق قولنا هذا على الأمة التي يجب أن تكون في توادها وتراحمها –كما قال الرسول ﷺ: ﴿كَالبُنْيَانِ المَرْصُوصِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا﴾، والأمة القوية تقوم بتجميع coalition حبات النور وقطرات المياه لتخلق من ذلك بناءً قوياً متراصاً، وبالمقابل

فعملية التعثر به التبعثر نبددها الرياح هنا وهناك، وما على الأمة إلا أن تستجمع وتراكم قواها حبة بعد حبة، وجهداً بعد جهد.

ولعل واقعنا العربي الحديث يسير عكس هذا الاتجاه، أي عكس طبائع الأشياء والنسب المركوزة فيها، فالليبرالية تناهض وتنكس الاشتراكية والعكس، والاتجاه الديني ينفي هؤلاء وأولئك، والامضاء والاجتثاث ماضٍ والمستفيد الوحيد هو العدو، ولنتصوركم تكون النتيجة فعالة لو سخرت طاقات الأمة العربية في نقطة واحدة وصوبت باتجاه واحد.

ونكرر مقولة "الدكتور عبد العزيز الدوري" بأن الأمة العربية تنتقل حالياً في حيويتها ومسيرها الحضاري في التكوين الثقافي ومن الانبعاث الإيديولوجي السياسي[1]، أي تغير نهجها وانتقالها وخطواتها الحضارية عما كان عليه التأسيس في الماضي، والأسلم أن تنهج النهج الأول، علماً أنّ هذا النهج هو الذي تلتف حوله جماع قوى الأمة وفصائلها وأدواتها الفاعلة.

هل سنبقى وراء الحدود القومية ضمن قوقعة الذات أم تستشف فتستشرف أبعاد المستقبل الرحب المديد.

يقول "الأستاذ محمد أبو القاسم": ((من خلال التدافع العربي – الإسرائيلي ستكون ولادة العربي مجدداً، ولكن بنهج عالمي وبمنهجية كونية حضارية بديلة، هنا بالذات سيتحد القومي مع الإسلامي في مواجهة إسرائيل ولكن عبر متغيرين يصيبان كلاً منهما)).

فالحركة القومية العربية ستمضي إلى خارج المفاهيم الوضعية حين تكتشف أن المفاهيم الوضعية تشكل سداً للصهيونية في تعزيز (فلسفة الصراع) ضد الإنسان العربي المقوم بفلسفة السلام، ولأنه مقوم كذلك، فقد حان لنا أن تكتشف معاني

[1] – د. عبد العزيز الدوري: تكوين الأمة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1.

النعـي للتـذكر الـذاتي والتـذكر العضـوي والطبقـي والشخصـية العربيـة بتكوينـها وسماتها لا تؤدي إلى الصراعية، فهي للناس كافة، وخيركم عند الله أتقاكم، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ البقرة/**204**.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ البقرة/**208**.

وعندما يتخلص القوميون من وضعيتهم ويتخلص الإسلاميون أيضاً من لاهيتهم الضيقة، يتسع جدل التناقض مع إسرائيل لكيهما، وبنفس الطريقة التي حددها الرسول الخاتم سابقاً سواء في مخاطبته للشخصية العربية، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، أو في مواجهته للفردية القبلية، والشرك، أو مواجهته لبني إسرائيل، وكما قيل فقد كان محمد كل العرب، فليكن كل العرب اليوم محمداً[1].

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص488.

أسس العالمية الإسلامية الثانية

إن ما يميز العصر الحديث، وديناميه وفعاليته وتاريخيته، وعولمته modernization، أي وجود تحولات ثقافية وسياسية واجتماعية صامدة ومسارات متقدمة على أساس إنساني متميز.

وفي هذه العالمية يجب التمييز بين قانون الطبيعة (الهوية)، وبين النظرة التطورية التاريخية، أي حركية المجتمع تبعاً للتفاعل مع الظروف، الإرث الحضاري العام، والثقافة الإنسانية لكل أمة من الأمم.

وبمعنى أوضح فالمسلمون (أفراد وجماعات) مدعوون لأن ينخرطوا في هذه العالمية، بحيث يربطون بين مسارهم الخاص، وبين المسيرة الكونية وبحيث يغتنون بهذه المسيرة، ويخصبون في الوقت نفسه حركتها وفعاليتها، ولا يمكن بالتالي الارتهان بالتجربة الأوروبية بأثقالها وعدوانيتها القاهرة والتحدي بفرادتها.

ونعتقد أن الإسلام يزود المسلمين بأوليات التقدم وديناميات الحركة وفعاليات التطور، من ذلك على سبيل المثال أصل العدل والمساواة والتقوى أصل الإحسان، وأصل الاستخلاف، وأصل عمران الكون، والإيمان بالأصل المشترك للإنسان ﴿وخلقناكم من ذكر وأنثى﴾، وأصل الدعوة إلى كلمة السواء: ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾، وأصل بذل السلام للعالم، وأصل الخير الإنساني الشامل: ﴿أَحَبُّ

النَّاس إِلَى اللَّه أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاس، وَأَحَبُّ الأَعْمَال إِلَى اللَّه سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ شَهْرًا»، وأصل عصمة النفس الإنسانية (صيانة الحياة)، وأصل الدين مع اختلاف الوسيلة، وأصل حقوق الإنسان وحرياته في أول إعلان لحقوق الإنسان ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴿118﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ طه/118-119.

والإسلام يندد بالقهر والتسلط، وهو ما كان يعبر عنه بالتنديد بالعنصرية والكسروية، والخيرية في الإسلام تقوم على الأمر بالمعروف، وليس على الامتنان تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر.

وقوله تعالى: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ النساء/114.

وأساس كل سلطة إعمار الأرض: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود/61.

والمسلمون مندوبون لرفع الظلم: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ﴾ النساء/75.

والإصلاح هو غاية الحياة الإنسانية: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ﴾ الأنفال/1.

والإسلام يندد بالفساد والإفساد: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ البقرة/205.

والإسلام يحض على التعاون بمعناه المطلق: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المائدة/**2**.

والعزة مبدأ أساسي في الإسلام: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المنافقون/**8**.

وللأنسنة Humanism في الإسلام باب واسع –خلافاً لتفرد أوروبا في هذا المجال- يكفينا أن ندلل بقولهﷺ: «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ».

يقول "الشاطبي" معلناً أحد مظاهر هذه الأنسنة: ((إنّ المجتهد الحق يحمل بين جنبيه معاني النبوة، وإن لم يكن نبياً)).

وهكذا تتحدد جدلية الانتماء إلى المسيرة الكونية (الحضارة العالمية) على الصورة الآتية:

يرسي الإسلام الحقيقة العالمية التي جعلت من القرآن الكريم ميثاقاً دولياً في المقام الأول، بمقتضى خصائص تشريعية من الشمول والعالمية والإنسانية.

ولكن هذه العالمية –تقوم على ابتلاء الأفراد والجماعات في الإرادة والعقل والأخلاق، هذا الابتلاء كآلية للسباق من أجل الخير، ومرقاه مطروحة لانجاز الصالح الإنساني العام المشترك: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ البلد/**11**، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴿10﴾ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ الواقعة/**10-11**، وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران/**133**.

وبذلك فالعلاقة بين الشعوب والأمم لا تقوم على زعم التفوق والفرادة والأفضلية، لقد كان في وسع الله تعالى أن يجعل من الشعوب أمة واحدة، ولكن شاء أن يبلو الناس فيما أتاهم، عقلاً وإرادة، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً﴾ المائدة/**48**.

وهذا يفيد أنه سبحانه وتعالى، لو غير الفطرة فعلاً وواقعاً، لما كان ثمة تكليف ولا ابتلاء، ولا مسؤولية، ولا جزاء، بأن جعلهم أمة واحدة كالملائكة، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، فكان تلازم بين سنة الفطرة الإنسانية، وبين سنة التكليف والابتلاء وجوداً وعدماً والخلاصة أن المسلمين مدعوون إلى عالمية مؤنسنة يلعبون فيها دوراً ريادياً فعالاً امتثالاً لحقيقة التكليف الإلهي: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ آل عمران/**110**.

في هذه العالمية، يأخذون ويعطون، يأخذون من الإرث الحضاري الإنساني العام ويعطون ما عندهم من ثمرات الحق والخير والتقوى والإحسان رائدهم في ذلك رسولهم، الرحمة المهداة، وبذل السلام للعالم، وآلية تلك المبادئ والأصول التي جعل بها أول ميثاق عالمي (القرآن الكريم)، أما نطاقه، فالأرض التي هي ملك لله استخلف الإنسان عليها لوجهه وابتغاء مرضاته: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ الملك/**15**.

لقد سخرت الأرض بما فيها للإنسان، فهي إذاً الوطن الكبير الذلول المتسع لكل مسلم، قال تعالى: ﴿قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ النساء/**97**.

هذه الهجرة تعني الانغراس والاندراج في كل بقعة يعيش بها المسلم إخلاصاً وصدقاً وبذلاً ووفاء، وموازنة وتلازماً بين الحق والواجب وطبعاً فهذا الذي قلناه جزء من الحقيقة، والجزء الثاني أن تكوين دولة إسرائيل البغيضة قائم على الشوفينية والاغتصاب والاعتداء والتعصب والكبرياء والاستعلاء، أي على التدافع، ودفع الحياة والعالم صوب هذا الاتجاه المظلم العبثي الوحشي البربري، والإسلام سيدفع باتجاه

آخر هو اتجاه الحق ونشدانه وإعلاؤه والقرآن يرسم أمامنا لبشرى الحياة وزهوها وإشراقها، كما يبشرنا بأن النصر للمسلمين إذا حملوا وتمسكوا بالهدى ودين الحق.

وإشادة وتمكين جذور التعاون الإسلامي على طريق العالمية الثانية لا حصر له ويتجسد في بنى بسيطة متدرجة في القوة والمتانة، وتأخذ مظاهر ثقافية وفكرية وعلمية واجتماعية وأخيراً سياسية.

وموقف تركيا الأخير وشعبها من تعامل المجرمة إسرائيل مع سفينة الحرية مرمرة ومغزاه، هذا المغزى ونتائجه ملموسة عند كل ذي عينين، وسينكشف المستقبل شيئاً فشيئاً عن نصر الله لنا ما دمنا على الهدى ودين الحق.

سنتابع في هذا البحث أسس العالمية الثانية مركزين على الأهداف والمبادئ والمعاني والغايات كما يتحدد في الفروع الآتية:

الفرع الأول

أهداف العالمية الإسلامية الثانية

وسنبحث في هذا الفرع مطلبين **الأول** موسوم بعنوان: كيف تدخل العالمية الإسلامية الثانية (بعض الحقائق والأهداف على طريق العالمية الإسلامية الثانية) وفي **المطلب الثاني**: سنتكلم على الحق غاية الخلق في الإسلام وفي المطلب الثالث سنتكلم عن العالمية الإسلامية الثانية بوصفها جزءاً من العالم الإنساني.

المطلب الأول:

كيف يدخل العربي العالمية الإسلامية الثانية

نمرّ حالياً بمرحلة تبدّل تاريخي جديد لن يكون لنتائجها مثيل في تاريخ العالم، إنها مرحلة العالمية الثانية التي سيكشف فيها القرآن عن مكونات المنهج الإلهي الكلي في الحركة الطبيعية والتاريخ البشري، وهي العالمية التي ستحمل للإنسان (البديل الحضاري) الذي يرسي دعائم السلام كما هي حقائقه الكونية (الإلهية والعلمية والفلسفية) بديلاً عن فلسفة الصراع التي تفرق العالم اليوم بكلّ سلبياتها، فاللّه لم يخلق الكون ويتركه عبثاً لحماقة الإنسان.

كيف يدخل العربي هذه العالمية الثانية؟ كيف يتجاوز سلبيات أوضاعه الحالية؟ وكيف سيتم الانطلاق ضمن أوضاعنا المحلية والدولية المعقدة؟ تساؤلات مطروحة على وجدان العربي بعمق وإلحاح وكثافة لا سيما أن البعد العالمي. وكما اتضح لنا سابقاً –جزء لا يتجزأ من ماهيته وطبيعته.

أجل لقد اتضح لنا كيف تأطر الوجود العربي جغرافياً وبشرياً، وأشرنا إلى السمة الحضارية، كما أشرنا إلى التدامج العرقي والإرث الحضاري العالمي والانفتاح الديني الكامن في عالمية الدعوة الإسلامية المعترفة بالأديان السماوية من قبلها، وبالتالي الهوية العربية مركزية جامعة ومستقطبة على مستوى ديني وحضاري وعرقي وفي موقع الوسط من حوض الحضارات هذا يعطي للقومية العربية هوية مفارقة في نشوئها وطبيعتها وتركيبها خلافاً للكيفية التي نشأت في إطارها قوميات أخرى في العالم، والتي بقيت أسيرة الروح العرقية والاتجاه الحضاري الجانب والاتجاه الديني الأحادي الجانب أيضاً.

إنها القومية اللا عرقية لأنها من كافة الأعراق المندمجة، واللا شوفينية باعتبارها إفراز كافة الحضارات، أما الخلط، فقد جاء من سببين: أحدهما طرحها بالمقاييس الذاتية الأوروبية المفارقة في جدلية تكوّنها التاريخي لمسار التكوّن العربي، وثانيهما عارضها في سياق معارضته العلمانية من جانب وتخوّفاً من طرحها في تضاد مع عالمية الإسلام من آخر.

ولعلنا لا نبالغ إذ نقول إنه لأول مرّة في حركية الاتصال الحضاري بين الشعوب تسقط معادلات الثنائية الخصامية بين الشرق الآسيوي والغرب الأوروبي، فكلاهما تفاعل داخل حركية ثقافية واحدة مركزها موقع الوسط بينهما، إلى أن أتت أوروبا فيما بعد فانبعثت هذه الذهنية الخصامية تحت ضغط توجهاتها العنصرية والاستعمارية.

ولأول مرّة في تاريخ البشرية يستوي التفاعل الحضاري على قاعدة (إنسانية) غير عرقية وغير شوفينية لأنها مزاج كافة الأعراف المعروفة وقتها، فأنتج ذلك التفاعل مدارس فلسفية غاية في التعدد والتنوع كما حفظ للعالم عبر عدة قرون تراثه الفكري والفلسفي والأدبي الذي استجمعه شرقاً وغرباً، حتى إذا ما نهضت أوروبا في يوم لاحق من أيام التاريخ وجدت أمامها تراث العالم كله ليس محفوظاً فقط،

ولكن مفهرساً ومجدداً، المهم أن ثمة تدامج عرقي وتفاعل حضاري قد اتخذ مداه باتساع تلك العالمية الأمية فانتفت عنها صفة الخاصية الحضارية الذاتية، لهذا لم تستطع تلك المرحلة أن تنجب فكراً يقوم على (التوصيف العرقي) أو التفوق (العنصري) كما أنتجت أوروبا عبر فلسفة تجربتها المغايرة تماماً لتجربة الأميين، المهم أن التدامج العرقي قد قفز بالعربي إلى خارج توهمات الصفاء العرقي العنصري، فالعربي يتدامج مع الآخرين نافياً لذاته فلا يتعرف على ذاته ويرجع إليها إلاّ إذا سبقه الآخرون فتعرفوا على ذواتهم وناقضوه بها.

كما أن موقع الوسط الجغرافي ما بين القارات (آسيا، أوروبا، إفريقيا) قد جعله مستجمعاً في ذاكرته الحضارية والتراثية لمجموع الحضارات العالمية ثمّ إن العربي «ضمن عالمية الأميين» قد تطلع بروح منفتحة على ديانات الآخرين وفلسفاتهم وحكمهم لأن دينه لم ينكر على هذه الشعوب خصائصها الدينية الكتابية وشعرائها من عهد نوح وإلى عهد عيسى عليهما الصلاة والسلام.

هكذا حمل العربي معه في مرحلة انحساره كافة ملامح التدامج العرقي والحضاري والفكري، فحكم على الكيان العربي أن يأتي متجاوزاً للعصبية العرقية ومتجاوزاً للخصوصية الحضارية ومتسامياً في العلاقات الدينية، وذلك لأن تكوين الإنسان العربي قد أعيد جديداً وفق هذه الأبعاد.

هذا ما يشهد عليه العرض العسكري للجيش الأيوبي في قلب مصر في نفس ذلك الوقت الذي فقد فيه العرب أطراف عالميتهم، وقف صلاح الدين الأيوبي في عام 567هـ حين كان وزيراً للخليفة الفاطمي ونائباً عن نور الدين الزنكي ليستعرض (أربعة عشر ألفاً) من الفرسان الأكراد، وفي زمن لا يتعدى العشر سنوات تضاعف هذا العدد الكردي لا على مستوى الجنود فقط ولكن على مستوى الأمراء الذين بلغوا (مائة وأحد عشر أميراً) وفرسان الطواشية وهم جنود المرتبة الأولى الذين

بلغوا 6976 طواشياً، أما عدد الجنود من غير الطواشية فقد بلغ 8640 جندياً، صحيح أن الخطر الصليبي كان وقتها متمكناً من الأرض المقدسة، ولكن ما من عربي استبدت به وقتها نزعة الريبة في هؤلاء المسلمين من الأكراد وقد قبضوا تماماً على ناصية السلطة في مصر والشام، بل لم يتخذ أي عربي من طموحات صلاح الدين الأيوبي لإقامة مملكة خاصة في النوبة جنوب مصر أو في اليمن تكأة لاتهامه واتهام العناصر غير العربية بالتهرب من مواجهة الخطر الصليبي ولا حتى لتبرير مشروعية اعتلاء سدة الخلافة وتحقيق أطماع النفس.

كان التفاعل الذي كون ضمنه العربي (عرقياً وحضارياً ودينياً) أكبر من أن يستجيب لهذه المناحي السلبية[1].

أول حقيقة نبديها بكثافة وجلاء هي أن العربي لن يتحرك لتلك العالمية الجديدة من فراغ، فهناك حيزه الجغرافي- السياسي الذي يشمل قلب العالم كله ويتحكم في مداخله ومخارجه من جبل طارق إلى قناة السويس إلى باب المندب إلى مدخل الخليج، إضافة إلى كل الحيويات الأخرى، فالمعركة القومية العربية هي معركة حضارية عالمية بالدرجة الأولى، وفي سياقها وغمارها يتحدد البديل المنهجي للعالم كله، ومن خلال العقلية العلمية التحليلية النقدية التي تتكون اليوم، وفي إطار هذا المسار الجدلي العنيف سيكتشف الإنسان العربي البديل المنهجي في القرآن نفسه، والاكتشاف الجديد هو غير الاسترجاع السلفي، كما أن الاكتشاف لن يكون (ذاتياً) في حدود العلاقة المحليّة بين القرآن والعقل العربي، ولكنه سيأتي عالمياً لكلّ البشر، وبمعزل عن المراحل التاريخية القديمة للصراع بين الديانات، هنا سيظهره الله على الدين كلّه، والمنتصر في النهاية هو (اللّه) الذي سيتجه فيها إلى المستقبل نحو عالمية جديدة بديلة عن الحضارة الغربية التي أورثت العالم وحملته

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص540.

الصراعات المدمرة، كما أورثتنا إسرائيل كلغم وأسفين في حياتنا، ولن نتمكن من الشفاء ونتغلب على الإسفين إلاّ بانتزاعه.

وكما حددنا في بداية هذا الكتاب وكمنهجية مستقرة وراسخة وواضحة هي أن القرآن الكريم، سيولد من جديد أمة تحمل إلى العالم نهجاً حضارياً كونياً بديلاً، ولكن المعاناة على طريق المنهج ستكون أكبر وأقسى مما يتصور البعض، ليس هناك عودة إلى الخلف، ولا عودة إلى الماضي، ولا بدء من جديد، ولكنه استمرار وتواصل، فالحياة لا تعرف التكرار في ظواهرها وحقائقها، والعودة إلى الماضي تكرار لا يتناسب وسُنّة الحياة كما أنّ البداية من جديد هي نوع من الادعاء والصلف الفكري لا انكفاء في الماضي ولا انغماس في الضمير، أي لا عودة إلى العمائم ولا إلى تحكيم تلك الجماعات التي تصدرها مراكز الأرشيف الديني التي بقيت كما هي منذ العهد الفاطمي، ليست عودة إلى العنعنات السابقة التي تملأ حياتنا والتي أكل الدهر عليها وشرب.

هل نريد أن نحيي من جديد الخلاف حول مبايعة علي بين سُنّة وشيعة والعصر يتجه للقضاء على كليهما؟ هل نرجع لفتاوى "ابن تيمية" أم أحكام مخالفيه؟ هل نتحول إلى قاديانية أو بهائية؟ إخوان مسلمون أم فرق أخرى؟ مالكية أو شافعية؟ حنفية أم حنبلية؟ أشاعرة أم معتزلة؟ أم قرامطة؟ وأي الصحابة نعتمد؟ وأي القياسات نلتزم؟ وهل يقفل باب الاجتهاد أم يفتح؟ وهل نلتحي أم نحلق؟ وهل نحجب المرأة أم نسفّرها؟ وهل نسبح بالمايوهات أم نترك السباحة نهائياً؟ وهل يكون مرجعنا الأزهر أم النجف أم القيروان؟ ومن يفتينا من الشيوخ؟ ومع من نقف؟ مع الملكية أم الجمهورية؟ مع هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أم مع التكفير والهجرة؟ وماذا نفعل بالتعليم الأكاديمي هل نلحقه بدار الفتوى أم بوزارة الأوقاف؟ ومن سيشرف على مسلسلات التلفزيون والإذاعة شيخ الزاوية الأحمدية أم إمام مسجد تكية السلطان سليم؟ وعل أي الأوراد سننظم على الطريقة البرهانية

الشاذلية الدسوقية أم الختمية أم القادرية أم الرفاعية أم التيجانية أم السنوسية أم البدوية أم العيدروسية؟

والتماثيل هل ننسفها لأنها تجسيد حرام؟ واللوحات هل نمزقها لأنها صورة للروح؟ والموسيقى تكف عنها لأنها من مزاميز الشيطان؟ وهل يمنع الديكور في المنازل لأنه يشغل عن ذكر الله؟ وهل نعود إلى قطع اليد؟ ورجم الزاني والزانية؟ أو جلدهما[1]؟.

إذاً فانطلاق العالمية الإسلامية الثانية لا يأتي كما كان في البدء من عمق صحراوي وإنما ينطلق هذه المرّة من عمق حضاري يشمل المنطقة من الخليج إلى المحيط، وهو عمق مجهّز بكافة إمكانيات الانطلاق العالمي.

وكما هيأ الله قاعدة الفعل البشري، وجهزها بكافة وسائله، فقد أحكم الله بداية العالمية الثانية بمقومات تاريخية عالمية أوضح ما فيها سيطرة البديل الوضعي على كوكبنا بأسره، مما يجعل المنهج القرآني بديلاً عالمياً، وليس مجرد بديل لآراء حفنة من المثقفين العرب الذين طرحوا ما لديهم بالوكالة عن هذه الوضعية العالمية وليس بالأصالة، سيجد المنهج القرآني نفسه في هذه المرة وجهاً لوجه أمام الحضارة العالمية الوضعية كلها وضمن أفق تاريخي يخوض فيه الإنسان العربي معركة ضارية تستقطب عبر جدليتها كلّ مقومات العالمية الإسلامية الأولى، فافتتاح العالمية الثانية لا يأتي بجهد فردي، ور عبر تنظيمات تقليدية تجديدية تمّت إلى نهايات المرحلة السابقة، بل هناك من أنصار التجديد في المرحلة السابقة من سيقف ضدها بعنف وبغير هوادة لأنه لم يكن يدرك، وبالتالي لن يدرك الآن طبيعة المنهج القرآني وعلاقته بمراحل التطور التاريخي كما يحدّدها القرآن نفسه فالقرآن سيقف وجهاً لوجه أمام خصائص المرحلة العالمية الجديدة ليمنحها كامل

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص521.

خصوصيتها المميزة لها والمحددة لسماتها الذاتية، ثمّ يسحبها بتميزها ليردها إلى الأصل المحمدي الذي هو عنوان العالمية كلّها، ونحن نتطلع إلى تفاعل كبير بين القرآن وخصائص العالمية، فمفهومنا للتجديد هنا هو مفهوم تاريخي مشروط بتحولات معين، تحولات على مستوى الإنسان العربي في علاقاته بنفسه والعالم.

في بداية العالمية الأولى كان القرآن نفسه أداة التحول التي قادت الإنسان العربي من عالم المطلق الفردي الذاتي القبلي إلى الدائرة الأوسع في حدوده الاجتماعية وآفاقه الفكرية، أما اليوم فالوقائع والأحداث وليست اللغة فقط، يلعبان دور الأداة في توجيه العرب إلى المنهاج القرآني وفهم وجودهم ومسيرتهم الحالية والمستقبلية من خلاله قال رسول الله ﷺ: ﴿كِتَابُ اللَّه فيه نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ﴾.

والنظرة للقرآن ضمن مرحلتنا الراهنة تختلف في أسلوبها عن النظرة التي حتمتها أوضاع معينة في مقدمة العالمية السابقة، إذ إن نظرتنا إليه تأتي كنظرة منهجية بالدرجة الأولى ترقى من متفرقاته إلى كلّيته ومن أجزائه إلى وحدته، ومن سطحه إلى مكنونه.

بذلك نصل إلى فهم منهجية الحركة في الطبيعة والتاريخ ضمن الأطر التي يدفعها الله بها، وما علينا لدى هذا التمثّل للمنهج القرآني إلاّ أن نطرح فعلنا على قاعدة الفعل الإلهي وضمن اتجاهاته[1].

وبهذا المعنى السابق خصائصها الإنسان ليس حقيقة مختبرية محدّدة إلا في الحدود العامة من تكوينه البيولوجي وبالتالي ففهمنا لحقيقة الإنسان يجب أن يكون من

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص529.

زاويـة كونيـة باعتبـاره نتاجـاً للحركـة الكونيـة بأسـرها في خصائصـها الطبيعيـة وتفاعلاتها التاريخية، تندمج في تكوينه على نحو مبدع خلّاق كل عناصر البيئة الكونية ويهتزّ تركيبه لأبعد نجم: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴿75﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ الواقعة/**75-76**.

ويتأثر نموه بأدق الإشعاعات الشمسية فهو كائن كوني منذ إبداعه: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴿14﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ الرحمن/**14-15**.

لهذا فإن جملة الوعي الإنساني لا يمكن أن تختصر في تحليل مركباتها إلى النتائج المخبرية الوضعية لأن النشأة الإنسانية أكبر من ذلك بكثير، وكل ما يتحقق الآن على مستوى التطور في فهم الإنسان وفهم سلوكيته الفكرية ووعيه لا يتجاوز ما تعطيه لنا حدود معرفتنا بالمجال الكوكبي الأرضي الذي وصله العلم البشري، وهو مجال محدود بالنسبة للرحم الكوني الذي أبدع فيه الإنسان حتى أصبح تكاثره عن بعضه لا بطريقة الانقسام العددي ولكن بموجب نطفة تجد في رحم المرأة ما وجده الإنسان من قبل رحم البيئة الكونية: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ نوح/**14**، ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً﴾ نوح/**17**.

والخلاصة فالمنهجية القرآنية الكبرى الكاملة، أي النهج الكوني الإلهي لمعاني التشريع في القرآن هو نهج ينتهي إلى تحقيق السلام الكوني وعقيدته الكبرى في العالم ضد فلسفة الصراع الوضعي ويقوم على أساس الالتزام الإبراهيمي الذي أسلم لربّ العالمين: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ البقرة/**131**.

الحقّ غاية الخلق:

بداهة أن اللّه تعالى لا يطلب من الإنسان (خليفته في الأرض) إلا أن يحكم سلوكيته الحضارية بما ينسجم مع حقيقة الخلق الكوني، وكلّ عمل يتخذه الإنسان مخالفاً الحقيقة الكونية يعتبرها اللّه (باطلاً)، وليس هذا الباطل إلا لوجه المعاكس (الحق) المتجلي في الخلق الكوني ونهجه وحكمته: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿38﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الدخان/**38-39**.

فالحق هو المعاني الإيجابية المتجسدة في الخلق الكوني من تسخير ورحمة ووحدة وسلام، أما الباطل فهو الأشكال السلوكية التي تحاول أن تبطل هذه المعاني وتزيفها وتعطيها معاني معاكسة، وبما أن هذه الأشكال (الباطلة) تقوم على نفس مقومات التسخير «مع تعمدّ نفيها» أي تنطلق بالحقّ لتزيفه، فقد جعل اللّه معركة جلاء الحق (معركته) التي لا يتهادون فيها، فاللّه، فاللّه لا يسلم الكون ليعبث فيه الإنسان بما يخالف حقيقة النهج الكوني فيقذف اللّه الحق على الباطل فيدفعه فهو زاهق.

إن من سمات الهيمنة الإلهية الكونية، إنها تأتي في الوقت نفسه كضمانة كونية لسلوك الإنسان الحضاري، أي توجيه الإنسان على طريق الوحدة والسلام وليس على طريق الصراع والحرب، فقدرة اللّه المطلقة الدافعة للإنسان ليست سيفاً مسلطاً على رقاب البشر، إلا إذا اختار البشر أنفسهم الانحراف بما خلقه اللّه لهم وجعلهم مستخلفين فيه عن الحق، وليس هذا الحقّ سرّاً مغلقاً على الأفهام، بل هو حقيقة تتجلى في طبيعة الخلق الكوني والعلاقة بين الظواهر المكنونة لتعطي المعنى الإنساني والمسخرة للإنسان علاقة التسخير والوحدة والسلام.

فهل يقبل الله أن يأتي فعل الإنسان المستند على قدرته المطلقة فساداً في الأرض ودماراً؟ ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ المؤمنون/116.

يعود الله بالإنسان وفي كلّ الآيات القرآنية ليساعده على استمداد نهجه الحضاري المتكافئ وتجربة الخلق الكوني، فيضرب الله للناس أمثالهم، ليسلكوا كما يقتضي الخلق الكوني ويتحدوا بحكمته ونتيجته، ويحمل الله القرآن من التشريعات والتوجيهات ما نفسّره بأنّ الإدراك الموضوعي المقابل للحركة الكونية ليستمد منها الإنسان سلوكه ومنهجيته، بحيث يحيا في سلام مع ربه ومع الكون ومع ذاته الاجتماعية ويطرح الله أمامه السبل التشريعية لذلك ولا يهمل شاردة ولا واردة.

كل ما أتى به القرآن من تشريع وتوجيه له دلالاته في النسيج الكوني وفي حكمته، ولا يبقى على الإنسان إلا أن يندمج بالوعي في هذا النسيج المحكم ليتحقق ما يفوق تصوّرها في عالم الإبداع والفعل، لا على المستوى الكوني ليصبح بالفعل خليفة عن الله في الأرض، وهذا يتطلب مسيرة كونية عبر جمع للقراءتين في كلّ واحد، وبالمدى الذي يعطيه الله لوعي الإنسان غير أن مسيرة الإنسان وتجربته الذاتية تأتي على نحو يتنافى غالباً مع حكمة النسيج الكوني ومنطلقه بالتناقض معه رغماً عن استوائها على قاعدة الفعل الإلهي بما فيه من تسخير.

يتحرك الإنسان بالقلم ويغفل القراءة الأولى، ثمّ يجرفه القلم الموضعي وتشد أنفاسه إلى منجزاته الحضارية فتتلبسه حالة من (الاتحاد بالطبيعة)، وتتجلى هذه الحالة في انكفائه الذاتي على (قوة عمله) باعتبارها القدرة الواعية المقابلة لحركة الطبيعة وظواهرها والفاعلة فيها بالتحليل والتنظيم: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى﴿6﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ العلق/6-7.

يتناسى الإنسان علاقة الله بالقلم الذي يسوقه إلى المعرفة المنهجية، ويتناسى الكون بظواهره الطبيعية ذات المعنى الإنساني، ويتناسى مقوّمات التسخير واستجابة الكون المعطاءة له، ويتناسى دف الله له فعلياً وحضارياً من داخل الحركة الموضوعية وخارجها.

ويتناسى خلقه المتكافئ مع مقومات الوجود باعتباره هو نفسه ظاهرة خلقية ذات معنى، ويتناسى أن فعله قائم على قدرة إلهية محفزة ومهيئة، يتناسى كل ذلك ويركن إلى (قوة عمله) ويضعها في مقابل الكون.

تلبس الإنسان بحالة القوة الذاتية في الفعل سرعان ما تنسج حول الإنسان شعوراً بمطلقه الذاتي، ثمّ ينعكس هذا المطلق الذاتي على علاقته بالطبيعة وبالمجتمع، فيحل بديلاً عن السلام، والانقسام بديلاً عن الوحدة، ولا يصبح ثمة معنى للوحدة والسلام إلا في حدود المنفعة الموضوعية لحركة المطلق الإنساني الذاتي، القبيلة والطبقة وهذه الأشكال المختلفة التي تتكاثر على مستوى الانقسام والصراع والخلاق، فكل تركيب كوني يفقد معناه الطبيعي وروحه الإيجابية، فيتحول إلى المعنى الذي يعطيه له الإنسان من خلال شعوره بالمطلق الذاتي، هنا يغيب الله عن الوعي وتغيب حكمته في النسيج الكوني فماذا تكون النتائج الحضارية؟ ماذا تكون نتيجة إهمال هذه المعاني؟.

الارتداد الذاتي إلى فكر الموضع

حين يرتد الإنسان من الكونية، بالأبعاد التي ذكرناها إلى الموضعية فإنه يختصر بذلك نفسه إلى حدودها الطبيعية الدّنيا، كما يختصر وجوده إلى حدود الحركة وشروطها المادية الضيقة قياساً إلى الاتساع الكوني، ثمّ ينعكس هذا الموقف على كيفية البناء الحضاري للإنسان على مستوى الأسلوب والنتائج.

ماذا يخسر الإنسان بالارتداد من الشمولية الكونية إلى الموضعية؟ يخسر المعنى الحقيقي الكلي لوجوده وتجربته، إذ إنه يستمدّ هذه المعاني من متضمنات الكونية وليس من متضمنات الموضعية.

ليس ثمة نسيج موضعي مشيئاً على حكمة معينة يستمد منها الإنسان مفهوم التسخير والرحمة إذ يكتشف نفسه وقد أسقط القراءة الأولى في ضيق التقابل الثنائي بينه وبين ظواهر الحركة المشروطة، وهنا لا يتبين الإنسان إلاّ فعل ذاته وفق فهمه لشروط الحركة وخصائص المادة، وحتى هذا الفهم يأتي خالياً من رؤية متاحات التسخير في الإطار الموضعي نفسه فثمة رغبة دفينة في أعماق الإنسان ليكون السيد المطلق لهذا الموضع، فلا يقبل أن يتواجد اللّه فيه ولو على مستوى الرحمة والتسخير، وطلب الرحمة كما يبدو للبعض هو من شيم الضعفاء.

تضخيم المطلق الذاتي للإنسان

ويجد الإنسان نفسه قادراً على الإنجاز الحضاري المتطور في ظلّ العلاقة الثنائية بينه وبين الشروط الموضعية للحركة (غافلاً عن اللّه)، لم يقل يوماً (إن شاء اللّه) وقد وصل إلى القمر، ويؤدي هذا الإنجاز إلى تضخيم شعور الإنسان بذاته وإلى تكريس معاني المطلق الذاتي في داخله، من هنا يعمد الإنسان إلى نسج تصوره الخاص للكون ولتجربته الوجودية معتمداً على النتائج الفكرية المتولّدة عن العلاقة الثنائية نفسها بينه وبين الحركة الموضعية، أي عن الاتحاد بينه وبين الطبيعة، ثم

يكتسب هذا الاتحاد المكاني الزماني المحدود طابعاً إلهياً خاصّاً معارضاً لعلاقة اللّه بالكون فيغيب تدريجياً الطابع الإلهي للكون، ويحلّ محلّه الطابع البشري الموضعي المتحرك بالمطلق الذاتي.

يصبح اللّه فكرة مثالية مصدرها الإنسان في لحظات ضعفه الحضاري، ولكنه يردّ هذه الفكرة إلى مصدرها في لحظات القوة، وبنفس الألوهية يجرد الكون من صفات الخلق الإلهي وأبعاده ويختصره إلى حدود ما يعطيه الموضع، وماذا يعطي الموضع؟ يعطي المعلومة العلمية التي تبدو للإنسان مستقلة في حدودها الظاهرية عن البناء الكوني المشيأ برحمة التسخير، بهذا الأسلوب يختصر الإنسان نفسه إلى كائن طبيعي ويختصر الكونية إلى مقطع من زمان ومكان فيعيش الإنسان حالة انفصال وجودي عن رحمه الكوني بما يحتويه من أبعاد غير مرئية، وهي أبعاد أساسية في البناء الكوني وفي تجربة الإنسان الكليّة.

المعلومة العلمية في شكلها الموضعي حين تؤول فلسفياً تختصر الإنسان وعلاقاته الكونية، فلا يعود الإنسان قادراً على الرؤية الشاملة والتعامل مع حقائقها وقد أسر نفسه بالرؤية الموضعية، وتحوّل معها من إنسان إلى كائن طبيعي.

المطلق الذاتي وفقدان القيم الكونية

هذا الانزلاق له نتائجه الخطيرة جداً في التركيب السلوكي للإنسان، إذ لم يعد ثمة وعي يستمده من التجربة الكونية، ولم تعد ثمة قيم أخلاقية يستمدها منها، التخسير بالرحمة الذي يتجلى في البناء الكوني والظواهر المشيدة إنسانياً والتي تولّد في الإنسان شعوراً بالألفة مع الكون ومع ذاته الاجتماعية تتحول في فكر الموضع إلى علاقات قوة وصراع يصدر عن مطلق الإنساني الذاتي ويسقطه على علاقاته بالطبيعة ويفرض على نفسه ألاّ يتعامل مع الكون إلاّ في هذه الحدود، وهو في هذه الحالة يغيّب اللّه ثمّ تغيب الحكمة الإلهية في الكون ويرد الأمر كلّه إلى مطلقه الذاتي، ثمّ يختصر نفسه إلى حدود الموضع فماذا يبقى للإنسان في تجربته

الوجودية؟ إنه ينتقل من الاتساع إلى الضيق منطلقاً من منطلقه الذاتي وكائنيته الطبيعية في هذه الحالة يختصر الكون بكلّ أبعاده الفكرية وفعالياته الوجودية إلى حدود الرؤية الضيقة، تفقد القيم الإنسانية المقابلة للنسيج الكوني في كليّته معانيها الأخلاقية ويفقد الإنسان معناه الإنساني ويتحول إلى وحدة بيولوجية متعددة الخصائص في حدود ما تعطيه تجربة المكان من توجهات غريزية بحقه.

حتى أبسط المعاني التي يعيشها الإنسان كحقيقة واقعة كالحب والظواهر العاطفية تحول هي الأخرى إلى العمل المختبري لتأخذ طريقها إلى التشخيص العلمي ولتتحول إلى معلومة علمية.

لقد ضيّق الإنسان حدود الوعي على نفسه حين عمد إلى حصر ذاته بعلمه فجعل ظواهر ما يعلم في الحركة قيداً علمياً على وعيه تبطل خارج حدوده كل أنواع المعلومات والمدركات.

وكما يحاول الإنسان سبر أغواره الذاتية بفكر محدود، فهو يحاول سبر الغور الكوني بفكر محدود فلا يخرج إلا بفهم جزئي موضعي لا تستقيم معه الحقائق في كليّتها، وهكذا نجد أن ارتداد الإنسان الذاتي إلى فكر المعلومة الموضعية في المكان الجزئي (الظاهرة) لا ينتج عنه إلا طمس لأبعاد الكونية في التجربة الإنسانية وتقييد لفعالية الإنسان بتقييد فعالية الوجود نفسها في البدء.

في هذا المجال لاحظ بعضهم تلك الأخلاقية المتعالية والمتعجرفة التي يعالج بها بعض العلماء الوضعيين المتطرفين والفلاسفة مشكلة المعرفة، فحين نقبل بوجهة نظرهم فإننا لن نجد أساساً لحقيقة موثوقة في الفن والأدب والدين، فكلّ هذه المنظومات سيحكم عليها بالبتر كعاطفية وذاتي لأنه لا يمكن تناولها بالقياس العلمي ولا يمكن إخضاعها للمعنى العلمي المعروف بمصطلح التجريبية، فالعلم الموضعي يقصر نفسه فقد على تلك الموضوعات في الحياة القابلة للمعالجة التحقيقية نسبياً، الحقيقة في المعلومة العلمية مرتهنة بالوضع الاختباري ولأبعد مدى ممكن.

هكذا حكم على المعرفة الكونية «خارج ما تعطيه المعلومة العلمية» بالنفي عن عالم الوعي العلمي غير أن آثار هذه المعرفة تظل حيّة في تكوين الإنسان لأنه يمارسها عبر اتصاله الإدراكي اليومي بالحياة، فالإنسان يمارس في مقابل الكون (تنبهاً كليّاً) وعلى نحو شامل غير أن المعلومة العلمية تريد اختصار هذا التنبيه الكلي إلى تنبيه جزئي اختباري قابل للتحكم في الأشياء، بل يرفض الأسلوب العلمي حتى إدماج المعرفة التي تتمّ خارج وعيه بمعرفته فبصد عن ساحته أولئك القائلين بأسلوب المشاركة الحدسية في المعرفة، وبالرغم من كل أقوال الفلاسفة الوضعيين الذي ينطلقون من عالم المعلومة المعتمدة على التدقيق العلمي-التجريبي، نلاحظ أن المعلومة العلمية في تعاملها مع الأشياء بالرغم من دقّيتها النسبية تفتقر إلى اليقين الكلّي وتقوم كحقيقة جزئية إزاء الوجود الكوني إلى حدّ كبير.

إشكالية سحب الجزئي على الكلّي

خطورة الفلسفة الوضعية أنها تلجأ إلى تعميم استنتاجاتها عن المعلومة العلمية على المستوى الكوني أي تسحب الجزء على الكل مع أن الخلق الكوني يجعل هذا التعميم ضرباً من الوهم.

إن كل ما فعله الفلاسفة الوضعيون بكلّ مدارسهم هو أنهم سحبوا المعلومة العلمية من حيزها الجزئي لتشكل منطقاً عاماً للتجربة الوجودية، وهكذا أصبح الجزء حكماً على الكلّ لأن الإنسان لا يستطيع أن يحقّق مطلقه الذاتي إلا في حدود هذا الجزء الوضعي، هكذا بنى من الجزء الطبيعي فلسفة اجتماعية كاملة فما يستمدّ بشكل جزئي من الطبيعة يتحول إلى نهج كامل في الفلسفة الاجتماعية علماً بأن الجزء الطبيعي لا يعكس الحقيقة الطبيعية نفسها في نسيجها المادي الكوني، فالاختبار القياسي يصل إلى نقطة التلاشي في إطار المنظومة الكونية للحركة الطبيعية ولا يعود قادراً على متابعة حيوية الخلق الإلهي في استخراج الحياة من الموت واستخراج الموت من الحياة وفي تنوع الظواهر بأكثر مما تعطيها حقائقها

الطبيعية وتحريك هذه الظواهر في اتجاه خلقي هادف بالوعي غير الطبيعي لتعطي الظاهرة ذات المعنى الإنساني، ولتستوي على قاعدة التسخير المطلق للإنسان، فالحقائق الكونية في كليّاتها تنفي التعميم المستمد عن الظاهرة الجزئية، وهذا القول ليس بحدسي أو تأملي بل هو قول اختباري وقياسي دقيق.

إن النفاذ على كيفية الخلق هو أمر إلهي دقيق المعنى ومتاح لمن يريد ذلك بوعي مفتوح، أمّا الاستناد إلى ما تعطيه الظاهرة في جزئيتها ليعمم ذلك على الكل فإنه نوع من الجهل العلمي بالظواهر الكونية الطبيعية نفسها في علاقاتها، ولن تحلّ نظرية العنصر المفقود ولا نظرية النمو عبر خصائص التطور المعقدة مشكلة الإصرار على التعميم العلمي الجزئي، إنها تحلّ مشكلة نفسية وليس علمية ولكنه حل ظاهري وخاطئ.

من هنا لا يسعنا إلا أن نرفض التأويل الفلسفي للمعلومة العلمية الموضعية لأنها تتناقض تناقضاً فادحاً مع التركيب الطبيعي نفسه للخلق الكوني، ولكننا نقبل بها ونتعامل معها ونقيم عليها قواعد حياتنا في حدودها الموضعية باعتبارها حقيقة من صيغ التركيب الكوني وليست الصيغة المطلقة.

إنما نلاحظ دوماً في تاريخ تأثير النظرية العلمية على الفكر والفلسفة البشرية، إن الفكر البشري يمضي في تأويل النظرية العلمية على شكل أرسطي ليصنع منها نظاماً كونياً شاملاً هو أكبر من حجمها وقوتها العلمية، أي أن الحكم الفلسفي الذي تتخذه النظرية العلمية على الصعيد الاجتماعي هو أكبر من حجمها الذي تتخذه على الصعيد الطبيعي نفسه، هكذا الإنسان بمجرد أن يجد نظرية علمية يهرع لبناء نظام فلسفي كوني على أساسها، وحين يعثر على نظرية أخرى مخالفة وأكثر تطوراً سرعان ما ينقض الأولى ليعشق الثانية عشقاً كونياً، هكذا تأتي علاقة الإنسان بالنظرية العلمية في مجرى التطور الثوري.

فبعد (النقد الكائني) لمقولات العقل سقط بناء فلسفي تاريخي كامل في حياة البشرية، ثمّ جاء العلم ليطرح نظريات جديدة بديلاً عن المقولات العقلية، وترافق هذا العطاء العلمي الجزئي مع قابلية اجتماعية ثورية تطورية كانت تنفي القديم وتستبدله بالجديد، وهكذا يهدم الإنسان عبر الزمن المثلات الأيديولوجية القديمة.

لسنا في معرض الدفاع هنا عن هذه التمثلات الأيديولوجية القديمة فهي قد وردت إلى مختبرات الحضارة الأوروبية عبر الفكر الكنسي المسيحي الذي لا يعكس حقيقة الفكر الديني المسيحي، وقد كان لهذا الجانب تأثيره الحاسم في مجرى التطور الفكري الأوروبي وفي طبيعة النقد الذي قوبلت به الأفكار الدينية هناك، كما أننا لسنا في معرض المناقشة التفصيلية هنا لكيفية فعل العقل الطبيعي أو من قبله الإحيائي، وما يهمنا في هذا المجال بالذات هو نقد العقل العلمي في تأويلاته الفلسفية ونقد الكيفية التي تمّ بها هذا التأويل بحيث سحبت الظاهرة الطبيعية بأكبر من حجمها في تعميم كوني، أما انحرافات العقل الإحيائي والطبيعي وتجسد ذلك في الفكر الكنسي فلها مجال آخر بالرغم من أن هذه الانحرافات قد أعطت تأكيدات على مفاضلة الفكر العلمي بالنسبة لها في سياق التجربة الأوروبية، كما أنها دعمت النظرية العلمية بسياق ثوري تجديدي قبل أن يقول "نيوتن" بآلية الكون كان الصراع عنيفاً بين الكنيسة والأمراء الإقطاعيين، فأحيت كل القوى المضادة للكنيسة مقولات الفكر الفلسفي اليوناني ومنطقه كما أحيت التراث الروماني، وحين جاءت نظرية "نيوتن" في آلية الكون والدفعة الإلهية الماورائية وترافقت مع النقد الكائني للعقل استمدت منها قوى التغيير طاقة جديدة في صراعها ضد الفكر الكنسي لزعزعة وجود الكنيسة كمؤسسة ذات قوة اجتماعية سياسية، فالنظرية "النيوتنية" اكتسبت قيمة ثورية اجتماعية أكثر من قيمتها العلمية الطبيعة وليست "الكانتية" سوى ترديد لذبذباتها في عالم المعرفة والمجتمع.

هنا يظهر الفارق جلياً بين النظرة العلمية المجردة للمعلومة الطبيعية في حدودها الجزئية وبين التداخلات التاريخية والاجتماعية التي تتحول بهذه المعلومة إلى تأويل فلسفي شامل، فالمعلومة العلمية تهتم كما قلنا بنتائجها الجزيئية المختبرية بغضّ النظر عن النتائج التي تعكسها على الفكر الإنساني حين تأويلها فلسفياً لتخدم أغراضاً اجتماعية معينة، غير أن عدم وجود فهم ديني صحيح تتولد عنه فلسفة كونية صحيحة بالإضافة إلى نشاط الفلاسفة الوضعيين في مجرى التجديد يساعدان على إفساح المجال لتأويل النظرية العلمية بأكبر من حجمها الكوني.

"فنيوتن" حين استنتج من ملاحظاته آلية الحركة الكونية أدى ذلك لتوليد شعور باستقرار الظواهر الكونية ضمن ناظم آلي معين خلافاً للشعور الذي كانت تثيره الكنيسة بفوضى العالم وطرحها للقدرة الإلهية كناظم وحيد، لقد هدم "نيوتن" التصور الكنسي لحركة الكونية فأصبح أمام الأوربيين أن يتأولوا فلسفة جديدة توفق بين أصول الدين وحقائق العصر أو أن تتجه أوروبا إذا تعذر عليها امتطاء الحصانين إلى التعلق بمعطيات العصر العلمية ونسج بناء فلسفي كوني (وضعي).

ثمّ نسفت الفكرة الكونية الآلية التي افترضت عنصر الثبات في الحركة وجاءت الفكرة التطورية الداروينية لتقدم مفهوماً عن أصل الإنسان مختلفاً عن مفهوم الكنيسة المفهوم التطوري، وهنا أصبح أمام الأوروبي أن يتأول فلسفة جديدة تتحول بالفكرة الإلهية من الماورائية الآلية إلى الحلولية في النمو عبر مراحل التطور المعقدة الخصائص، وهكذا مضى الإنسان الأوروبي يعيد مفاهيمه الفلسفية على ضوء منجزات العصر العلمية.

يتمّ هذا التأويل دوماً في إطار الدفع التاريخي لقوى المجتمع التي تبحث عن غطاء فلسفي لشرعيتها في مقابل المؤسسات التقليدية القديمة، وقد استطاعت قوى التطور أن تهدم بالفعل هذه المؤسسات مما جعل إنسان المعلومة يبدو أكثر التصاقاً

بقيمتها التأويلية، ثمّ جاءت اكتشافات العلم في التحريك والديناميكية نافية إلى حدّ ما مفهوم الحلولية والتطورية المتعلقة بالعنصر المفقود ورادّة الحركة إلى ذاتية المتحرك فتولّدت المفاهيم المادية الجدلية وأسقطت نفسها على حركة التاريخ، وهكذا ولدت الماركسية وقبعت الحلولية التطورية في أورقة المجتمع الرأسمالي واتجهت التحريكية المادية (الجدلية) لتقود البشرية نحو منعطف اشتراكي، أمّا الكنيسة فقد بقيت في زاوية ضيقة من تركيب الدماغ الأوروبي تنشط فيه كما تنشط بعض أنواع البكتريا في لحظات الضعف، أي بعد الخمسين أو الستين من العمر أحياناً.

صراعات اللاهوت والوضعية وغياب الحقيقة الكونية

لا يسع من يتصل بتكوين العقل الأوروبي إلا أن يلاحظ أنّ الصراع القائم بين التأويل الفلسفي للمعلومة العلمية من جانب والفكر الديني الكنسي من جانب آخر كان يفتقر إلى أساسيات الحقيقة الكونية في طرفيه المتصارعين أي الحقيقة كما جاء بها القرآن.

ذلك أنه من الصعب أن نردّ كلّ الخطيئة إلى الفكر الوضعي في تأويله للمعلومة العلمية فلسفياً فقد غُيبت الكنيسة الحقيقة الكونية في فكرها الديني وجاءت سيرتها التاريخية كمؤسسة اجتماعية وكحليف دائم لقوى التخلف والجمود الفكري.

جسدت الله في الإنسان، ثمّ غيبت الحركة عن الواقع، وجاء العلم فغيبها بإلهها المتجسد وغيبها عن الحركة في الواقع، فالسياق التاريخي لتطور الفكر الأوروبي هو سياق يتسم بالتطرف القائم على ردود الفعل السلبية حيث يضيع المدخل الصحيح وتضيع الحقيقة الكونية في وحدتها المنهجية، ويجد الإنسان نفسه تائها عن الحظ السليم، عن الصراط المستقيم، ولكنه تيه ضلال، وليس تيه مكابرة،

هكذا يحلل القرآن الأمر: ﴿اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ «القرآن» ﴿6﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ« المسلمين» غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ« اليهود» وَلاَ الضَّالِّينَ «النصارى» ﴾ الفاتحة/**6-7**.

غير أنه وبالرغم من كل أنواع التبريرات التي يمكن أن تشفع للحضارة الأوروبية في مسيرتها إلا انه يبقى عليها أن تواجه نتائج ضلالها على نحو كوني وآني، فالخطأ لا يؤدي إلاّ إلى سلسلة من الأخطاء التي تنعكس في نهايتها على مصير الفعل الإنساني.

فالنظريات الأوروبية التاريخية والاجتماعية أنشأت بدائل فلسفية كونية على نتائج معلومة جزئية وفي إطار الصراع العنيف الذي تحرك ضمنه التطور الأوروبي في سياقه الخاص، وتكون النتيجة دوماً أن الاعتماد على مقدمات خاطئة تاريخياً واجتماعياً لا بدّ أن يتولد عنه سلسلة من الأخطاء التطبيقية في التجربة الأوروبية نفسها، إذ ليجد الإنسان نفسه مشدوداً إلى دائرة التطور الكمي التي تتسع، ولكنها تظل متحركة في حلقة مفرغة، إذ عبر المعلومة الجزئية تفقد الحضارة الأوروبية المفهوم الكيفي للبناء الكوني كما قدره الله وتفقد بالتالي المُثل الأخلاقية المقابلة لكيفية البناء الذي يستوى على علاقات التفاعل والوحدة فتتحرك الحضارة الأوروبية عبر المطلق الذي في علاقته بالموضع، فلا ترى من خلال الكثرة الكافية وانقساماتها إلاّ روح التضاد والتطور الأعمى فتشكل نفسيتها به كما هو التاريخ الأوروبي نفسه الذي فقد حقيقة الوحدة منذ البدء.

هكذا اختصر الإنسان الأوروبي وعيه إلى حدود ما تعطيه المعلومة العلمية في شكلها الموضعي، ومضى نحو الاندماج بالظاهرة الطبيعية في كيفيتها التفصيلية لا بالكون في وحدته الطبيعية المسخرة والفارق المفهومي نوعي بين الحالتين، فالانغماس في الكثرة التفصيلية يمكن أن يؤدي إلى انجاز علمي موضعي، ولكنه لا يؤدي إلى تعميم فلسفي كوني.

صحيح أنّ الجزئي يحمل سمات الكل بحكم وحدة النسيج الكوني بعد أن العلاقة بين الجزء في إطار هذا النسيج ليست علاقة تركيبية بالمعنى المادي البسيط، وإنما هي علاقة خلقية تقوم أساسها على توليد الحي من الميت وتوليد الميت من الحي، وهذا بخلاف العلاقات التركيبية التي تقوم على التطور عبر خصائص مادية قابلة طبيعياً للتفاعل مع بعضها.

كمثال على هذه العلاقات الخلقية حالة دودة تعيش داخل الكهوف المظلمة الكلسية وتتغذى بتحويل الطين إلى مواد عضوية في جوفها، وكمثال آخر على هذه الحقيقة وجود الحياة في عنصر الماء الذي لا نرى فيه سوى اتحاد بين ذرتين من الهيدروجين مقابل كل ذرة من الأوكسجين، غير أن هذا الماء حين ينزل على تربة لا يتجاوز سطحها المتري الواحد نجده يخرج حياة متنوعة من عدة نباتات وأشجار، وهي في تركيبها لا تستوي على توليد واحد، وكذلك الإنسان نفسه الذي استمد عنصر حياته من الماء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ **الأنبياء/30**.

هناك عدة مستويات يتمظهر فيها المطلق في بنائية الكون والإنسان وحركتهما، من الحجر إلى النبات، إلى الحيوان والإنسان بنزوعه اللامحدود وقواه اللا مرئية فكلّ مستوى من هذه المستويات (منظومته المتكاملة)، فللمادة الصماء منظومتها الطبيعية وللنبات منظومته وكذلك للحيوان سواء على مستوى الخصائص أو السلوك، فلا يمكن أن نطلب من الحجر أن يتحول إلى نبات أو إلى إنسان، ولكن ذلك لا يعني أن الكون الموجود فيه هذا الحجز هو كون غير مطلق سرمدي في الكبر وفي الصغر، فكل محدود كوني يفهم ضمن الإطلاق والمنظومة التي يوجد ضمنها وفيها يتحرك، فأين هو موقع (جبرية موسى) وضمن أي (منظومة) تتحرك؟.

والخلاصة فكتابنا هذا يتمحور حول مشروع حضاري إنساني وعالمي متكامل في مواجهة الاستلاب والأزمة الإنسانية متخذين منه بدايات لوضع الإنسان على

طريق مطلقه وكونيته وبما يدفعه لتحقيق اللامحدودية فيه وخطابنا عالمي ينطلق من كونية القرآن ومنهجه بمنطق استيعاب وتجاوز كافة المناهج المعرفية والإنسانية الحضارية العالمية.

هذا العالم نقابة أو نادٍ ونحن فيها أعضاء لنا «كما قال الرسول الأعظمﷺ» ما لها وعلينا وما عليها ونتحرك ونعمل ونفكر فيها بمنطق الدعوة: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة.

المطلب الثالث:

العالمية الإسلامية الثانية بوصفها جزءاً لا يتجزأ من العالم الإنساني

ثمة إجماع لدى مفكري العالم، على أن القلق والاضطراب وعدم التعيّن هو السمة الأكيدة لعالمنا الراهن، ونحن أمام ماضٍ يلفظ أنفاسه، وأمام مستقبل يعاني الكثير من آلام المخاض والولادة، ومع ذلك فثمة سمات تزداد اتساعاً يوم بعد يوم، تنشأ عن المعالم البارزة للعالم الجديد الموعود.

وعلى كاهل الإنسان الحر عبء ثقيل وعسير وشاق والطريق طويل لا يقطعه إلا المخفون وزمان صعب استبد فيه الفسق، وتملك فيه الظلمة، حديث نبوي، بالتالي فالقوى التي تدفع الإنسان نحو البربرية الجديدة، قوى مخيفة ومذهلة وعلى الرغم من ذلك فالثقة عميقة ووطيدة في قدرة الإنسان على تجاوز ذاته، وتطلعه نحو الأفضل.

وهنالك دوماً لدى الإنسان شعلة فكرية وخلقية تمكنه من محاربة ما يقف في وجه إنسانيته ويحول دون تقدمها وعلومها، صحيح أننا نشهد تهافت القيم، وتداعي روح التضامن، وانحسار روح المسؤولية وتوثيق المادة والقوة والسلطان، بيد أن اللعبة لما تنته، وأنه يثوى في قلب كل إنسان طاقات الخير من أجل الإنسانية.

فالطاقات العقلية والخلقية للكائن لا تزال معطلة والآمال شاسعة أمام تغييرها وتدفقها، إذاً ما تستطيع أن تركن وتطمئن إليه هو أن الإنسان لديه طاقات معطلة وخبرة مرتجاة.

ومن جهة أخرى فالإنسانية وعطاؤها الثّر الفني قطعت شوطاً كبيراً في طريق المحلة والتقدم وأفرزت قوى إنسانية ماضية في سبيل الخير البشري العام، وفي نظرنا فهذا الانقسام بين عالم الشر وعالم الخير سيزداد قوة وضراعة وإن العولمة الشريرة الوحشية البربرية ستزداد فهماً وضراوة، وسيؤول الأمر إلى اصطفاف مركزي نفوذه العولمة المزيفة وشركاؤها وفي مطلع ذلك إسرائيل، أما الجبهة الأخرى، فستقيم الشعوب المقهورة المظلومة المتعطشة للحرية والمساواة والإخاء والإنسانية، وفي مطلع ذلك دول الجنوب ومن ضمنها الشعوب الإسلامية الحرة العادلة التي تتمثل القيم الإسلامية بجوهرها وحقيقتها.

إذاً التقسيم لن يكون تقسيماً دينياً وإنما عالمي إنساني قيمي خلقي وسنأخذ الإسلام معالمه مع الهدى ومع دين الحق ومع المغلوبين المستضعفين وفقاً للمعاني والتوضيحات الآتية:

نحن أمام صورة "مقت" تذكرنا بالصورة الأخرى "لدوريان غراي Dorian Gray" أو بصورة فاوست في رواية "غوتة" الشهيرة حين باع نفسه للشيطان في سبيل الثروة والسلطان، أو بالأسطورة اليونانية لجانوس الذي له وجهان، وجه منير، وآخر ترهقه الكآبة والقترة أو بالإلهين المتصارعين في الأسطورة الفارسية: إله الخير وإله الشر "أهورا كردا" وسنمضي قدر الإمكان تجلية هذين المشهدين:

البند الأول:

القيم الإنسانية في حضارة ما بعد الصناعة

لا شك أن القيم الإنسانية في عصرنا تعاني أزمة عميقة، وحسبنا التحدث عن بعض الأمثلة التي تؤكد ذلك:

فهنالك روح الهيمنة والسيطرة لدى الدول (ولا سيما العظمى) والأفراد (ولا سيما أصحاب الثراء)، وهناك اتساع الهوة بين الشمال والجنوب اتساعاً متزايداً (يتجه إلى أن يأخذ شكل صراع شامل بينهما وإلى ولادة عالمين: عالم البرابرة الأشرار من جهة، وعالم الأبرار الأخيار من جهة ثانية[1].

وهنالك تركزّ السلطة المالية في أيدي حفنة من الناس (20 بالمائة من سكان العالم يمتلكون 80 بالمائة من القوة الشرائية والرساميل العالمية) وهنالك قبل هذا وفوق هذا وضع مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها.

البند الثاني:

مقومات ركب الإنسانية

هنالك تحديات وعقبات كؤود جسام تواجه ركب الإنسانية، وهذه التحديات نوجزها فيما يلي[2]:

1- استمرار النمو الصناعي ومشتقاته دون ضابط، يؤدي إلى تخريب البيئة وتلوثها، كما يؤدي إلى القضاء على الأراضي الصالحة للزراعة وعلى الغابات (التي

---

1 - يحسن الرجوع في هذا الكتاب الآتي:

Jean- Christophe Rufin, Jean-Claude Lattes: L'Empire et les nouveaux barbares. Paris, 1991.

2 - د. عبد اللّه عبد الدائم: نحو فلسفة تربوية عربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1991، ص61.

سوف تتناقص بمقدار 40 بالمائة عام 2010، والتي يزول منها سنوياً من عشرة ملايين إلى سبعة عشر مليون هكتار، وأخطر من هذا كلّه تهديد الكرة الأرضية بكاملها، بسبب تزايد سخونة الأرض، وارتفاع منسوب المحيطات، نتيجة انتشار الغازات، وما مؤتمر كيوتو Kyoto حول مناخ الأرض/3- 11 كانون الأول ديسمبر 1997/عنا ببعيد).

2- الطغيان التقاني الذي يهدد الثقافات وأنماط الحياة وأساليب العيش وبنى المجتمعات.

3- التقدم السريع وغير المنضبط للتقنيات العلمية: وهذا يؤدي إلى ظهور طاقات علمية خطيرة تهدد صلب الوجود الإنساني، كطاقات علم النسل والأبحاث الجينية والدراسات العلمية المتصلة بالأعصاب وسواها.

4- غياب روح التضامن والتكافل بين البشر، وانقلاب الأفراد إلى مجرد ذرات شاردة.

5- مخاطر التجانس الحضاري وما يؤدي إليه من قضاء على تنوع الثقافات من جهة، ومن "بلقنة" للعروق والأجناس من جهة أخرى، تجعل من العسير قيام حضارة إنسانية مشتركة.

6- الآثار المتناقضة للعولمة: وما تحمل من مخاطر تسطيح الثقافات واتكالها وتهديمها وطغيان الأقوياء على الضعفاء عن طريق السوق الاقتصادية الحرة، وسواها.

7- الجمع بين البربرية القادمة من أعماق العصور التاريخية وبين البربرية المجهولة الهوية والباردة الناجمة عن التقدم التقاني والعلمي والاقتصادي.

8- سيطرة شعار النجاح، عن طريق الثروة والقوة وكأن الإنسان الاقتصادي Homo Economics أصبح هو المثل الأعلى الذي يُرجى للكائن الإنساني.

9- هذا كله يؤدي إلى تقدم التخلف، تخلف العالم الثالث، واتساع الهوة بينه وبين العالم المتقدم، بل يؤدي في العالم المتقدم نفسه إلى اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وإلى تزايد أعداد العاطلين عن العمل والمعوزين والمعزولين والمهمشين، فضلاً عن تقدم أعداد المتخلفين عقلياً وعاطفياً وثقافياً داخل المجتمعات المتقدمة نفسها، وما التخبط والقروح والآلام الجسام التي تعانيها البشرية إلا نتيجة هذا الإعصار الذي خلفته الأزمة الاقتصادية الأخيرة لنا.

البند الثالث:

مستقبل الحضارة الإنسانية

استعرت عام 1988 تلك الأزمة التي لم تعالج وحتى تاريخه إلا بروح الترفيع وعقليته وليس بالروح الإنسانية، والحل والسبيل إلى توليد حضارة تضع الإنسان وكرامته وحاجاته على رأس أولوياتها؟ وبالتالي تعززه وتجمده وترسخ قيمه وتستهدف آماله العراض لعلّ معالم هذه الحضارة المرتجاة تكمن فيما يلي:

الواقع الوقوع والواقعية الوثوب:

يمكن القول بيقين أن للواقعية معنىً سليماً وآخر مبتذلاً، فالواقعية في تقديرنا هي فهم الواقع والاستماع إلى دقات قلبه لا من أجل الوقوع فيه، وكما يقول "كلوفيس مقصود": ((الأخذ بتعقيدات الواقع والمستجدات الدولية دون افتقاد البوصلة

الهادية والمرجعية القومية، وبين واقعية مزورة تقوم على تهميش الذات والاستسلام للواقع))[1].

فالواقعية الحقيقية لا تعني استمرار الواقع وتدويمه، بل تعني معرفته والانطلاق منه من أجل تغييره، باتجاه المثل الأعلى، أما الواقعية المبتذلة فهي تلك التي تعتقد أن ليس من وجود إلا لما يُلمس باليد ويُقاس بمقياس ويوزن بميزان.

البند الرابع:

مقومات ودعائم الحضارة الإنسانية المرتجاة

لعل مرد ومظهر هذا العمد يتجلى في العناصر المتكاملة المتعاونة المتسقة الآتية:

أولاً- التضامن الإنساني:

وعقيرة الحضارة الإنسانية تجأر أمام الأعين لتحقيق هذا الهدف وحسبنا أن نذكر بأن تراثنا الثقافي العربي الإسلامي ينزل هذا الهدف منزلة لا نجدها في أي تراث آخر، فالسلوك الأخلاقي للفرد في تراثنا وقاعدة اجتماعية شاملة، وليس مجرد علاقة بين فرد وفرد، والفرد فيه لا يحمل عبئه وحده، بل يحمل أعباء المجتمع كلّه، ولا يقتصر هذا على تقديم العون للفقراء والمرضى والجهلة وسواهم، بل يتجاوز ذلك إلى العمل الجماعي المشترك في سبيل بناء مجتمع سليم متكافل متضامن، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ **المائدة/2**.

---

[1] – محمود عبد الفضيل: السياسة والفكر العربي بين الواقعية والوقوعية والمستقبل العربي، مقال منشور في مجلة المستقبل العربي، عدد 173، تموز لعام 1993، ص4.

ثانياً- المشاركة والتواصل والتراحم:

وأهمية هذا الهدف جلية وليست بحاجة إلى دليل، في عصر يسوده التقوقع الفردي، وتغيب فيه شيئاً بعد شيء حرارة التعاطف والمشاركة، ويشعر فيه وكأنه مقذوف في هذا العالم وحيداً لا عون له، في حميا تتقاذفه الأمواج وتنتهكه الأضراس.

ونذكر أيضاً بأن تراثنا العربي الإسلامي تراث مجلّ، له القدح المعلى، في هذا الميدان، فالإسلام فرض نفقات معينة على الموسرين لأقربائهم المحتاجين، تشمل المأكل والملبس والمسكن والتعليم والتزويج والقيام بخدمة العاجز والمريض، أو لم يكن في دمشق وقف (هو وقف المرج الأخضر) للحيوانات المريضة العاجزة تظلّ ترعى فيه حتى تموت؟ أو لم يكن فيها أيضاً وقف وقفة صلاح الدين الأيوبي لإمداد الأمهات بالحليب والسكر لتغذية أطفالهنّ؟ هذا فضلاً عن شبكة الأوقاف التي كانت تعطي الوطن العربي الإسلامي، حتى أننا نسمع أو وقف الأراضي الجيدة في مدينة الخليل بفلسطين بلغ أربعين بالمائة من مجموع الأراضي الخصبة، ومن جهة أخرى هنالك ضربان من المثل الأعلى، المثل الأعلى الطوباوي الذي ينادي بأحسن العوالم وبالمدينة الفضلى، وهنالك المثل الأعلى الممكن الإنجاز والتحقق بسواعد قوية ومثبتة.

فالفارق إذاً واضح بين الممكن والمستحيل، وإذا تأملنا عالمنا اليوم، وجدنا أن تطويره لمصلحة الإنسان أمر ممكن وغير ممكن في آن، والأمر كلّه يتوقف على مبلغ وعي الإنسان ومدى إرادته وعزمه، وبالتالي فمن كان يراهن على زوال دولة روما أو فارس؟ واللّه تعالى أخضع الجديد للبينات وذلك بقوله:

((والأمثلة أكثر من أن تحصى على أهمية مبدأ التواصل والمشاركة في تراثنا، ذلك التواصل الذي يولّد جوّاً من الدفء الإنساني الذي تفتقده المجتمعات الحديثة اليوم، لا سيما المجتمعات الغربية التي يغشى الصقيع الإنساني حياة أفرادها، فلا

تواصل ولا تراحم ولا تعاطف بل سعي فردي وسباق وسعير على المنافع الفردية على حساب الآخرين))، وحسبنا في هذا المجال أن نستحضر في ذاكرتنا طرفاً يسيراً من الأحاديث الشريفة الكثيرة: ﴿الخلقُ كُلُّهم عيالُ الله عزّ وجلّ، فأَحَبٌّ خلقه إليه أنفعُهم لعياله﴾، ﴿كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤول عَنْ رَعيّته، الإمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعيّته، وَالرَّجُلُ رَاعٍ في أَهْلِه وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعيّته، وَالْمَرْأَةُ رَاعيَةٌ في بَيْت زَوْجهَا وَمَسْؤولَةٌ عَنْ رَعيّتهَا، وَالْخَادمُ رَاعٍ في مَال سَيّده ومَسْؤولٌ عَنْ رَعيّته﴾، ﴿مَثَلُ المؤمنين في تَوَادّهم وتراحُمهم وتعاطُفهم: مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو: تَدَاعَى له سائرُ الجسد بالسّهَرِ والحُمّى﴾.

ثالثاً- استلهام الثقافات القومية:

بيد أن ما يجد الوقوف عنده هو العمد الأربعة المرجوة لحضارتنا ونعني به العود إلى الأصول والينابيع واستهداء القيم المشتركة للثقافات الإنسانية.

ذلك أن العولمة في شكلها السائد، تنزع إلى تقويض الخصوصية الذاتية للثقافات، وتحاول أن تقضي على أصول الحضارة وجذورها العميقة لدى الشعوب المختلفة، معرّضة بذلك بنية العالم للتمزق والصراع، فضلاً عن انعدام القيم، ولا نغلو إذا قلنا إن الهويات الثقافية وما يمكن أن تقود إليه من صراع بين الحضارات أو من حوار خصيب بينها، غدا الموضوع الأساسي الذي يستلزم معالجة جادة في نهاية القرن العشرين، في عصر (العولمة) وانفتاح العالم بعضه على بعض، وما خطاب " هنتنجتون" «كما ذكرنا» إلا صورة حيّة عن هذا العلو والصلف والاستكبار البعيد عن التعاون والتضامن.

وأبرز أشكال التزييف التي يقوم بها الداعون للعولمة الوحشية هي تلك التي يزيفون بها الإيديولوجية القومية، ناسين إليها ما ظهر وما بطن من الشرور، بل إن ثمة من يريد أن يعتقد أننا اليوم في عصر (ما بعد القوميات) لا سيما عندما يتم الخلط بين دعوات ثلاث: الدعوة الأثنية العرقية، والدعوة إلى الدولة القومية،

والدعوة إلى الوحدة القومية لدى الشعب الواحد والخلط بين الدعوة الإثنية العرقية بوجه خاص «وهي دعوة لا قومية في حقيقتها بل دعوة ممزقة للكيان القومي تقوم على العرق أو الطائفة الدينية أو النسب الإثني» وبين الدعوة إلى الوحدة القومية لشعب واحد قطعت أوصاله، هو الذي يسرّ أمام أعداء القومية من أنصار العولمة السائبة مهاجمة فكرة الوحدة القومية واتهامها بكلّ العلل والرذائل وتحميلها مسؤولية ما يسود في بقاع العالم من تنازع عرقي أو قبلي أو ديني.

وهكذا تجد اليوم في العالم المتقدم بوجه خاص اتجاهاً فكرياً سياسياً غالباً إلى رفض الأيديولوجية القومية، حتى على شكل الدولة القومية، فضلاً عن الوحدة القومية، بل نشهد ضرباً من (أبلسة) الفكرة القومية إن صحّ التعبير، أي اعتبارها إبليساً رجيماً، و(أبلسة) ما يلحق بها من تعلق بالوطن أو بالأمة[1]. وقد بلغ التزييف في هذا المجال حداً جعل من القومية صنواً للحرب، والعدو الوحيد للديمقراطية، وامتدت هوة (أبلسة) إلى فكرة "الهوية الجماعية" نفسها، بحيث اعتبرت رديفاً للبربرية، وكما يقول الفيلسوف والسياسي الفرنسي "أندره تاغييف": ((إن المثقف النموذجي المعاصر، كلما سمع كلمة "أمة" أو كلمة "هوية قومية" أو كلمة "وحدة قومية" أخرج مسدسه من قربه فوراً، وأطلق منه رصاصات عالمية شاملة من صنع عصر "ما بعد القوميات"))[2].

ذلك أن الديمقراطية الحقّة الوحيدة في نظر دعاة الحضارة العالمية القائمة، هي ديمقراطية السوق الاقتصادية التي تتجاوز حدود القوميات والدول.

---

[1] – د. عبد الله عبد الدائم: نحو فلسفة تربوية عربية، ص80.

[2]– Pierre Andre Taguieff: la'nation comme rempart' le point Décembre 1997.

وهكذا يستبين لنا أن الليبرالية الاقتصادية وسيطرة قطاع المال على الاقتصاد كما سبق أن رأينا، وغياب الديمقراطية في النظام العالمي القائم، وذيوع منطق الهيمنة والقوة، هي المسؤولة في حقيقة الأمر عما يظهر من ردود فعل فعالية تتجلى في نزعات أثنية أو دينية أو عرقية ضيقة.

وإذا استمرت مسيرة العالم على ما هي عليه، وهي لن تستمر، والأزمة الاقتصادية الأخيرة هي الجرس المعلق بالإنذار، فقد لا تجد القوميات نفسها المؤمنة بالتعاون والحوار بين الأمم، ملجأ يقيها من الذوبان والإمحاء والتآكل إلا تقوقعها على ذاتها واحتمائها بجلدتها، فشعار التعاون العالمي حين يغدو زائفاً —ويعني سيطرة دول معينة أو دولة بعينها على مصير آخرين لمصلحتها، هو الذي سيحيل "العولمة" بهذا المعنى الزائف أداة صراع بين الأمم، وهو الذي سيؤدي إلى استشراء النزعات، وإلى انقسام العالم كتلاً متخاصمة، وإلى سقوط العولمة.

ومن هنا كان العمل من أجل أحياء الثقافات القومية وتجديدها والحوار به مطلباً إنسانياً في عصر العولمة، وبدلاً من أن يكون رد الفعل على العولمة الانكماش العرقي أو الديني، يطلب بناء عالم جديد وإشادة عولمة سليمة تجسد الهويات القومية الحقيقية، ذات التراث الإنساني العريق والقيم الإنسانية الراسخة، من أن يكون رد فعل الثقافات القومية الأصيلة على العولمة إفراطاً في العود إلى ماضيها وإهمالاً لدروس التجربة العالمية، ووقوفها موقفاً جذرياً فعالياً، معادياً للحضارة الغربية أصلاً، يتطلب العمل الصحيح من أجل بناء عالم إنساني أن تدرك هذه الثقافات القومية الأصيلة ذاتها إدراكاً أعمق وأن تجدد ذاتها من خلال ذاتها، ومن سواها، وأن تحيا عصرها من خلال تاريخها وتاريخ غيرها، وأن تقيم حواراً مع الثقافات الأخرى من أجل توليد حضارة إنسانية موحدة القيم والأهداف، وعند ذلك فقط تأخذ العولمة معناها الصحيح، إذ تغدو القيم الثقافية العالمية الواحدة شيئاً واحداً، فتعامل القوميات مع (العولمة) القائمة ومع ما تحمله من انحرافات وشرور، لا يكون بالخضوع لها خضوع المضطر، كما لا يكون بنقدها نقداً مجانياً أو

رفضها أصلاً ومبدأ، بل يكون بالحوار معها حواراً يحيلها من "عولمة" محمَّلة بالمخاطر إلى "عالمية" قومية إنسانية.

والحقّ، إن ما نشهده اليوم هو، تأكيد المجتمعات غير الغربية تأكيداً متزايداً على ثقافتها الخاصة، ورفضها المتزايد كذلك للثقافة الغربية، وهي كما نقول: ظاهرة تقود إليها (العولمة) السائدة في شكلها الخاطئ والمتسلط، ولكنها بالإضافة إلى ذلك نتيجة لانحطاط الغرب من داخله، ولانحداره الخلقي وانتحاره الثقافي وفرقته السياسية، كما أنها نتيجة اعتقاده الخاطئ بتفوقه الثقافي على سواه، وبأن له وحده رسالة ثقافية عالمية، وهذا الاعتقاد خاطئ من جهة، وغير أخلاقي من جهة ثانية، ومحمّل بالمخاطر من جهة ثالثة، وهو ينسى في غمار هذا المعتقد أن الثقافات نسبية بينما الأخلاق هي المطلقة، كما ينسى أن التعايش الثقافي يستلزم "البحث عما هو مشترك بين معظم الثقافات بدلاً من الدفاع عن ثقافة بعينها تحسب أن خصائصها عالمية وشاملة[1].

وإدعاء العالمية هذا هو الداء الذي يصيب أي حضارة كما يقول "توينبي Toynbee" حين يعميها "سراب الخلود"، فيجعلها عاجزة عن وقف تدهورها وأفولها، أفلا يبيّن "بريزنسكي" نفسه، أن التغيرات الثقافية التي تجري في بلد كأمريكا (الولايات المتحدة) تسودها عبادة اللذة والانطواء النرجسي، وأن أمريكا وأوروبا عاجزة بالتالي عن إدارة النتائج الثقافية لهذا البحث عن اللذة وأفول القيم القائمة على الأخلاق والدين[2]؟.

أو لمَ يبين في مطلع كتابه المذكور دور الانحطاط الثقافي في سقوط الإمبراطوريات القديمة، وعلى رأسها الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الصينية، وفي أفول الإمبراطورية الحديثة، وعلى رأسها الإمبراطورية البريطانية؟.

---

[1] – S.Hunting: Le chac des cirilisations, op, cit ,p 353.

[2] – Zbigniew Brzezinski: Le grand échiquier, op, cit, p 269– 270.

أفلا يتساءل عن الإرث الثقافي الذي يمكن أن تخلفه الولايات المتحدة نفسها للعالم: مبيِّناً أنّ الإرث الذي تفخر به، وهو الديمقراطية، لا يمكن أن يسير جنباً إلى جنب مع الهجمة الإمبريالية التي تمارسها[1].

لا شكّ أن القيم الخلقية هي الوسيلة الأساسية لبناء مستقبل إنساني جدير بالإنسان، وإن كنّا نقول إن الأخلاق، وكما يقول "بريزنسكي": ((من سخرية القدر أنه عندما كان العالم ضخماً متباعد المسافات، تفصل بين أجزائه أسابيع بل شهور من السفر بحراً، كان وضع الإنسان كإنسان، فيما يتصل بعلاقة الإنسان بالطبيعة وفيما يتصل بالمفاهيم بين البشر، أكثر اتساقاً واتفاقاً مما هو عليه اليوم، بعد أن أصبحت المسافات لا تعدو ساعات، وبعد أن أصبح من الممكن الإطلاع على أحداث العالم في اللحظة التي تجري فيها))[2].

والشيء المؤلم حقاً أن عولمة الاتصالات، ومعها عولمة المال، ليست عالم انسجام وتوحيد بين البشر، بل عامل فرقة وشتات، وهي في أفضل الأحوال غير معنية بالشأن الإنساني بل إنها في الواقع ضده، وكما يقول "ابن الرومي":

ومحمل الأيام غير طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار

إن بناء أخلاق إنسانية إذاً مهمة ضخمة لا يأتي سهواً رهواً، ولا تكفي فيه الجهود المبعثرة، إذ لا بدّ من تيار واعٍ مقاوم، تضطلع به مؤسسات عديدة على رأسها التربية.

وبيان ذلك أن مستقبل الإنسان في العالم لا تحدوه المعايير المادية وحدها، وأن القيم الإنسانية الخلقية لا يجوز التطويح بها بسبب الهجمة الآلية والتقانية، أو

---

[1] – I bid, P 268.

[2] – Zbigniew Brzezinski: Out of control, op, cit, p 220.

بسبب الصراع السياسي من أجل السيطرة، وما ينادى به بعض أنصار الحضارة القائمة الذين يدعون إلى رفع "المستوى النوعي" لحياة الإنسان و"المستوى النوعي" للمجتمع، لا سبيل إليه إلا الارتقاء بالإنسان عن طريق الارتقاء بأخلاقه[1].

رابعاً- **التربية ومستقبل القيم الخلقية الإنسانية:**

إن بناء حضارة عالمية إنسانية، يستلزم إعادة بناء الإنسان بناءً تمثّل القيم الخلقية صلبه وجوهره، وإعادة بناء الإنسان هذه هي في صلب مهمة التربية، بل هي أصلها وجوهرها.

ولعل من المفيد أن نعود ههنا إلى ما قاله الفيلسوف "كانط" عندما تحدث عن الأثر الذي خلفه "روسو" لديه: ((إن المسألة التربوية هي التي يثوي فيها النجاح والخير إن القابلية للتربية هي التي تسمح ببزوغ الإنسانية))[2].

ولئن كنا لا نذهب مذهب روسو، ولا نقول معه إن الإنسان يخرج خيراً من بين يدي الطبيعة وإن المجتمع هو الذي يفسده، فإننا لا ننكر قابلية الإنسان للكمائل ولا ننكر أن التربية قادرة على توليد طبيعة إنسانية جديدة، ومن الصحيح دوماً أننا لا نستطيع أن نغير المجتمع إلا إذا غيرنا الإنسان كما يقول[3] "لوبردLobrot": ((فالثورة التربوية في عصرنا "شرط لازم لكلّ ثورة مهما يكن شأنها)).

---

[1] - د. عبد الله عبد الدائم: نحو فلسفة تربوية عربية، ص83.

[2]- Emmanuel Kant: Réflexions sur l'éducation, Paris,1966 ,p 44.

[3] - M,Lobrot: Education et rerolution,REVUE Intereducation, NO13 janvier-fevrier, 1970, p58- 63.

كما أننا نتفق مع "روجر Rogers[1]"، حين نؤكد قدرة الإنسان على النمو الذاتي، بل إننا نذهب إلى أبعد من هذا فنقول إن هذه القدرة تكاد تكون بلا حدّ، وإنّ ما نعرفه عن قدرات الإنسانية الذاتية جانب ضئيل من خضم من القدرات الذاتية التي لا تنضب معينها والتي لم تكشفها بعد، وبديهي أن الشبكة التربوية الواسعة تضم الأسرة والمجتمع والتعليم النظامي والتعليم غير النظامي والتعليم العارض العفوي والتعليم المستمر مدى الحياة والمؤسسات الثقافية، وكل ما هو توجيه وإعداد وتدريب داخل المجتمع[2].

خامساً- **التربية وبناء القيم الإنسانية:**

لا شكّ أن تغيير العالم لا يتم إلا عن طريق تغيير القيم، وتغيير القيم بدوره يتم عن طريق التربية في المنزلة الأولى.

فما هي هذه القيم التي يتوجب على التربية أن تعمل على بثها وإذاعتها وحفرها في النفوس؟.

ليس هنالك على المستوى العالمي حتى الآن نظام من القيم متفق عليه، ومهمة بناء مثل هذا النظام مهمة شائكة وطويلة، ينبغي أن تحشد من أجلها أرقى الطاقات الإنسانية من فكرية وتربوية وفلسفية واقتصادية واجتماعية وسياسية وسواها، ورغم ذلك فمهمة التربية أن تعمل على بثّ هذه القيم في شتى أوصال النظام التربوي وفي شتى مراحله وأشكاله داخل المدرسة وخارجها، وأن تجعلها جزءاً لا يتجزأ من الأهداف التي ترسمها والمناهج التي تصوغها والطرائق التي تصطنعها وسائر مقومات العملية التربوية.

---

[1] – Carl Rogers: Psychothérapie et relations humaines, 1965.

[2] – د. عبد الله عبد الدائم: نحو فلسفة تربوية عربية، ص84.

سادساً- **الثقافة العربية الإسلامية وبناء القيم الإنسانية:**

من الطبيعي أن نقول أن أهداف ووسائل التربية العربية تلتقي مع الأهداف والوسائل التي تقع عليها في مختلف بلدان العالم، لكن الوصول إلى هذه الأهداف يتم من خلال الذات، فالإيمان بالقيم الإنسانية المشتركة، ينبغي أن ينبع من أعماق الفرد ومن بنيته النفسية، وأعماق الفرد هي ثقافته التي انحدرت إليه من آبائه وأجداده وكونت وعيه الجماعي، فالفرد مغمور بتراث ثقافي يتجاوزه، هو التراث الثقافي للحضارة التي ينتمي إليها، ومن خلال هذا التراث يدرك العالم ويحكم عليه.

غير أنّ هذا التراث حين يتجمد ولا يتجدد يسير نحو الضمور فالزوال، ويحول بالتالي وبين الفرد وبين كامل إدراكه لذاته ولغيره، ومن هنا كانت هنالك صلة دائرية بين تجدد الذات على "السوى" على حدّ تعبير قدماء الفلاسفة، أي من خلال انفتاح الثقافة القومية على الثقافات العالمية، ومن خلال تشبع الفرد بثقافته وثقافة الآخرين تشبعاً يؤدي إلى توليد مركّب حيّ جديد [1].

لقد كانت الثقافة العربية الإسلامية منذ تكونها عامل دفع وتجديد للفرد والمجتمع، وعامل بناء لحضارة ذاتية طورت ذاتها باستمرار عن طريق التفاعل مع غيرها، فاستطاعت بذلك أن تطور سواها.

وعالم اليوم بحاجة ماسة إلى رفد ثقافي فعّال، تقدمه لنا الثقافات العالمية الكبرى بوجه عام و الثقافة العربية الإسلامية بوجه خاص، بعد أن تعي ذاتها وتدرك دورها، عن طريق إدراك الحاجات الإنسانية للعصر الذي نعيش فيه، إن هذه الثقافة العربية الإسلامية التي يتهمها الغرب اليوم بالبربرية والتخلف لجهله بها أو حقده عليها أو لتشويه بعض أبنائها لمعانيها الحقيقية، ترفق التربية وتتطلع إليها لتخرجها من مأزقها ولتجعل منها عامل صحوة عالمية.

---

[1] - د. عبد الله عبد الدائم: نحو فلسفة تربوية عربية، ص 85.

وهكذا فإن مزج الثقافة العربية الإسلامية بالتربية، وإحكام اللحمة بين مضمون التربية وطرائقها، وبين قيم تلك الثقافة بعد ترجمتها إلى لغة العصر، ممنيان بأن يولدا مواطناً قادراً على إيداع مجتمع عربي جديد يسهم في بناء مجتمع إنساني جديد.

وهل نحن في حاجة إلى التذكير بالقيم الإنسانية الكبرى التي يحملها التراث العربي الإسلامي؟ التي وصفت بالقيم الحارّة أو الحادّة[1] التي من شأنها أن تعبئ المجتمع العربي تعبئة حيّة فعّالة، وأن تبث (وثبة الحياة) فيه.

وأبرز هذه القيم: العدل وتكافؤ الفرص، والعدالة الاجتماعية، والتكافل الاجتماعي، والتعاون والتعاضد والتآخي، واحترام العلماء، واحترام العمل، والشورى وحرية الرأي، ونصيرة الحقّ، واحترام الإنسان وتأكيد حقوقه، والتناصح والتواصي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورعاية الفقراء واليتامى والمساكين، ورعاية ذوي القربى.

وهذه القيم تحدث في نفوسنا، عند تأملها، صدىً خاصاً، ولا سيما عندما نقرن بينها وبين العالم الشرس الذي نعيش فيه، ونلتقي كما نرى إلتقاءاً عميقاً بأحدث القيم التي يجدر أن تحرص عليها الإنسانية، ويمكن أن نضيف إلى هذه القيم قيماً فردية أخلاقية يدخل كثير منها في مجال ما يسميه "الماوردي" أدب النفس: ((كالبرّ والإحسان، وتوقير الكبير ورحمة الصغير، ومجانية الكبر والإعجاب، والحلم، والمروءة، وما يلحق بها من عفّة ونزاهة وصيانة، والإيثار، وصون كرامة الإنسان أنّى كان وأيّا كان، والأريحية، والعفو عند المقدرة، وروح المسؤولية، مسؤولية الفرد

---

[1] – المرجع السابق، ولا سيما الفصل الثامن وعنوانه: مصادر الفلسفة التربوية العربية المنشودة ومنطلقاتها.

عن نفسه وعائلته ومجتمعه، والاستقامة بمعنى الإخلاص في العمل، وحسن التعامل مع الآخرين وإيفاء الناس حقوقهم وأداء الأمانة وغير ذلك الكثير)).

كما يمكن أن نضيف إليها ما يمكن أن نسميه آداب السلوك الاجتماعي: ((كآداب التحية، وآداب الدخول إلى البيوت، وآداب التعامل بين الزوجين، وحسن الأسوة، وكظم الغيظ، وآداب الطعام والشراب، وآداب الجلوس في المجالس، وآداب النظافة في المأكل والملبس والجسد، وآداب الكلام وما يتبعها من آداب الجليس وآداب الصحبة، وآداب العلاقة بين العالم والمتعلّم، وسوى ذلك كثير)).

مثل هذه القيم والآداب هو قصدنا إليه حين قلنا إن إحكام اللحمة بين التربية وبين قيم الثقافة العربية الإسلامية من شأنه أن يولد فرداً جديداً ويفجر مجتمعاً حيّاً مبدعاً، وهو الذي رأينا فيه جانباً من الزاد الثري الذي تستطيع الثقافة العربية الإسلامية أن تقدمه للعالم.

وإذا أضفنا إلى هذا الزاد ما تملكه سائر الثقافات العالمية الكبرى، كالصينية والهندية واليابانية، فضلاً عن الحضارة الغربية، من زاد رفيع في مجال القيم الإنسانية، استطعنا أن ندرك النتائج الضخمة لتلاقح الثقافات وأن ندرك دورها في بناء قيم الحضارة الإنسانية المرجوة[1].

[1] – د. عبد الله عبد الدائم: نحو فلسفة تربوية عربية، ص87.

نقيض العالمية الإسلامية الثانية

ذكرنا سابقاً أن العولمة التي تقودها أمريكا وتصطف إلى جانبها إسرائيل آخذةً في التعويل والبربرية والوحشية والافتراس سيراً في طريق الاقتناص والنهب واستنزاف الثروات، لكن هذا السلوك المخزي في عمر الإنسانية لن يطول والحق في الإسلام أقوى من الحديد، والحديد خلقه اللّه خدمة للحق والرسل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ الحديد/25.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ الروم/8.

أجل ما خلق اللّه تعالى ذلك كيما يخربها فريق أحمق من الناس، ولقد عاقب اللّه بذنوبهم كثيراً من الملوك والأباطرة والعروش، وأزال المماليك التي خرجت على حدود التقوى، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ الروم/9.

في الصفحات الآتية سنتكلم عن عبرة ومغزى ومعنى نصوح قوة اليونان والرومان على أن نتكلم في الفرع الأخير على اليهود باعتبارهم حصان طروادة في فلسفة الصراع.

الفرع الأول

معنى ومغزى والعبرة من تصوح قوة اليونان والرومان

لقد كنا حريصين على التعريج على هذا البحث نظراً لأهميته من حيث إنه يكشف عن خواء وتخاذل وتهلهل مزاعم ودعاوى القوة والبطش والهيمنة، ولا عجب فالعاقبة للمتقين، والأرض يرثها عبادي الصالحون....

وأبعد من ذلك فكيف كانت عاقبة الظالمين، قوم عاد وثمود وفرعون، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴿6﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴿7﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴿8﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴿9﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴿10﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ الفجر/**6-11**، لقد كنّا حريصين –كلّ الحرص- على الالتزام بأمانة العقل والمحافظة على اللفظ والمعنى بقول المذكور.

وفيما يلي هذا البحث الذي خطته براعة المفكر الكبير "أرنولد توتيني": ((الأنانية هي إحدى نقط الضعف الأكثر شيوعاً لدى الكائنات الحيّة، وهذه الحقيقة نعرفها جيداً إذا عدنا إلى أنفسنا، وكثيراً ما تصبح هذه الذاتية عند المخلوقات الواعية مبعثاً للأوهام)).

إنّ كلّ كائن بشري أو قبيلة أو طائفة أو شيعة تعتقد أنها مختارة، وإذا كنا لا نلاحظ بسهولة الخطأ الذي نرتكبه بتصورنا أننا فريدون فإننا على العكس، نتعرف فوراً إلى هذا الخطأ عند الآخرين.

ونحن الغربيين، نميل إلى الاعتقاد أن كلّ ما فعلناه في العالم خلال القرون الأخيرة لم يكن له مثيل في كلّ ما حدث من قبل، وكي نُشفى من هذا الوهم يكفي أن نُلقي

نظرة إلى الوراء على فعلة اليونان والرومان في العالم منذ مدة ليست ببعيدة جداً، وسنرى أنهم بسطوا سيطرتهم على العالم، وتصوروا كذلك فترة من الزمن أنهم من طينة تختلف عن طينة البشر.

إن توسع الغرب في العالم الذي بدأ في القرن الخامس عشر بالسيطرة المؤثرة المفاجئة على البحار، يقابله في التاريخ القديم التوسع البري اليوناني الذي تم خلال حكم الاسكندر ذي القرنين وبعده في القرن الرابع قبل الميلاد، وسيره عبر آسيا، من الدردنيل إلى البنجاب، أحدث في التوازن العالمي تغييراً ثورياً على غرار ما أحدثته رحلات فاسكو دي غاما وكريستوف كولمبس وفي القرن الثاني قبل المسيح احتل اليونان الهند كلها حتى البنغال وفي العصر نفسه أقام الرومان على حساب العالم اليوناني – الروماني رأس جسر على المحيط الأطلسي في جنوبي إسبانيا والبرتغال، واللغة اليونانية "الشعبية" التي كتب بها العهد الجديد في القرن الأول للمسيح كانت مفهومة يتحدث بها الناس من ترافانكور بالهند إلى مرسيليا في إيطاليا، وفي الحقبة نفسها ضمت الجيوش الرومانية بريطانيا إلى العالم اليوناني –الروماني، وكذلك الفن اليوناني الذي وضع في خدمة دين هندوسي هو «البوذية» قام بفتوحات سلمية منطلقاً من الأفغانستان باتجاه الشمال الشرقي، ليصل إلى الصين وكوريا واليابان، وإذا تطلعنا إلى الأمور من الوجهة الكيلومترية البحتة وجدنا أن الحضارة اليونانية الرومانية انتشرت في عصرها في العالم القديم إلى مجالات لا تقلّ اتساعاً عما وصلت إليه حضارتنا الغربية اليوم.

وفي فترة لم تكن حضارة أميركا المحلية قد ظهرت بعد يستطيع اليونانيون أن يتبجحوا كما نفعل اليوم، بأنهم عن طريق إشعاعهم الحضاري قد أثروا في جميع الحضارات الموجودة في العالم.

وهذه السيطرة للحضارة اليونانية ابتداءً من القرن الرابع قبل المسيح كانت بالنسبة للعالم صدمة لا تقلّ عنفاً عما أحدثه التقاؤه بحضارتنا الغربية الحديثة منذ القرن الخامس عشر من تاريخنا الحاضر.

وبما أن الطبيعة البشرية لم تتغير مطلقاً منذ تلك الحقبة، فليس هناك ما يدهش في أن يحدث بروز حضارة أجنبية اليوم المقاومة النفسية الدفاعية نفسها التي كان يحدثها في أيام اليونان والرومان.

وتلك الحقبة من التاريخ أنتجت أيضاً أشخاصاً متصلبين كالهدي، إلى جانب آخرين كبطرس الأكبر عرفوا كيف يتكيفون، فمثلاً في صفّ بطرس الأكبر عرف الزمن القديم متريدات الثاني الكبير، الملك الإيراني في آسيا الصغرى، الذي كاد أن ينتصر على الرومانيين بتسليح جيشه وتدريبه على الطريقة اليونانية والرومانية وبوقوفه في وجه روما كزعيم لليونانيين ومدافع عن حضارتهم وعرف العصر القديم كذلك هيرودس الكبير الملك اليهودي الذي ناء تحت حمل المهمة التي كان هيرودس قد نذر نفسه لها، كانت إقناع رعاياه اليهود المعتدين، بأن عليهم أن يتبنوا ولو جزئياً الحضارة اليونانية والقوة الرومانية الأمر الذي كان الوسيلة الوحيدة لشعب صغير شرقي كي يتخلص من خطر الفناء التام، وكانت سياسة هيرودس تكمن في التكيف بواسطة تنازلات حذرة.

غير أن هذه السياسة لاقت عناداً متصلباً ومعارضة عنيفة من قبل جماعة من اليهود يذكروننا بعناد المهدي وتصلبه.

وهذه الحركة المعارضة كانت قد بدأت في القرن الثاني قبل المسيح بثورةٍ عنيفة ضد السياسة الممالئة للهيلينية من قبل ملك يوناني من جنوب غرب آسيا.

وإذا عاد المرء قراءة الكتابين الأول والثاني من المكابيين فسيعتريه ذهولاً لهذا التشابه الكبير بين ثورة المكابيين في فلسطين سنة 166- 165 قبل المسيح، وثورة

المهدي محمد أحمد في السودان المصري سنة 1881 من تاريخنا المعاصر وبعد ثورات "توداس ويوداس" التي يروى غامليل فشلها في أعمال الرسل، أرسل لهيب هذه المقاومة العنيفة ليهود فلسطين ضد الهلينية آخر نور له في القرن الثاني بعد المسيح خلال ثورة "باركوكابا" الذي أعلن نفسه مسيحاً فقضى عليه وعلى ثورته الإمبراطور الروماني "هدريان".

ولم يكن هؤلاء المحرضون من يهود فلسطين على رأس المقاومة الموجهة ضد الحضارة اليونانية- الرومانية، ولم يكونوا الوحيدين من نوعهم، ففي الماضي قبل نهاية القرن الثالث قبل المسيح حصل مثيل لثورة "سبياي" لدى الجيوش المصرية التي كانت مسلحة ومدربة على الطريقة اليونانية في ظلّ ملك مصري من أصل يوناني، أراد أن يدافع عن ممتلكاته ضد هجوم عدواني محتمل من جانب أحد معاصريه، ملك يوناني يحكم في جنوب غرب آسيا، وقد شتت المصريون المسلحون حسب الأصول اليونانية العسكرية الجحافل اليونانية التي "هاجمتهم" والانتصار المذهل على أحفاد جنود الاسكندر الذين لا يقهرون، أفقد الجنود المصريين صوابهم.

وفيما بعد، كانت هناك بوادر ثورة عند أكثر شعوب الشرق حرماناً فمن وقعوا تحت نير السيطرة اليونانية الرومانية وأعني بذلك السوريين الذين سبوا ونقلوا إلى وراء البحار ليعملوا كعبيد في المزارع اليونانية في صقلية، وقبل نهاية القرن الثاني قبل المسيح قام هؤلاء السوريين بمحاولتين بائستين للثورة على أسيادهم اليونانيين وعلى الرومان حماة هؤلاء.

إن هذا التاريخ المشؤوم للثورات العنيفة والقمع القاسي خلال الفصول الأولى لهذا التلاقي بين العالم واليونانيين والرومان له ما يوازيه في الفصول المألوفة لدينا من تاريخ التقاء العالم مع الغرب، ومع الأسف نجد في العصر الحديث، عصر

الحضارة الغربية، نجد تجارة الرقيق التي كانت في الماضي تشين البحر المتوسط قد عادت وازدهرت في الأطلسي.

وثورة العبيد في المزارع التي كانت قد فشلت في صقلية نجحت في هاتين، وتمرد جيوش بطليموس المصرية المدربة على النسق اليوناني له ما يقابله في تمرد "السيباي" الذين دربوا أيضاً على النسق الغربي.

وهكذا يتتبع التاريخي في ماضينا الخاص دون حاجة إلى التعمق في تاريخ الإغريق والرومان نصل إلى الكلمات الأخيرة من الصفحة المفقودة، ووراء هذه النقطة يكمن سرّ مستقبلنا، وفي هذه النقطة بالذات يصبح التاريخ اليوناني — الروماني أفضل منهل للاستعلام من أجل الإمكانات المقبلة، بالطبع لا أريد بذلك الإشارة إلى أننا نستطيع قراءة مستقبلنا بمراقبة ما حصل في التاريخ اليوناني- الروماني، فيما وراء النقطة التي تتوقف عندها تجربتنا الخاصة، بتبديل المعطيات اليونانية- الرومانية حرفياً بمعطيات مماثلة غربية حديثة.

إنّ علينا أن نستمر في تصفح التاريخ اليوناني- الروماني دون أن تغيب عن ناظرنا هذه النصائح الاحترازية كي نصل إلى اللوحة التي يمثلها العالم اليوناني- الروماني في القرن الثاني للمسيح، وإذا قارناها مع الأوضاع قبل قرنين من الزمن أدركنا فوراً أنه خلال تلك المدة حصلت تحسينات ملموسة بينما مع الأسف لا نرى لذلك مثيلاً في التاريخ الغربي حتى الآن.

خلال القرن الأول قبل المسيح كان العالم اليوناني- الروماني يعيش في دوامة من الثورات والحروب وأخطار الحروب، فريسة للفوضى والعنف تماماً كما هو اليوم عالمنا الغربي، ولكن في أواسط القرن الثاني بعد المسيح توصّل السلم إلى أن يبسط جناحيه على العالم من "الغانج" حتى "تين"، وهذه المساحات الشاسعة التي تمتد من الهند شرقاً حتى بريطانيا غرباً حيث انتشرت الحضارة الرومانية بقوة السلاح كانت مقسمة إلى ثلاث دول فقط.

هـذه الـدول قـد توصلـت إلى التعـايش بسـلام دون اصـطدامات تـذكر، إلى الغـرب كـان هنـاك الإمبراطوريـة الرومانيـة تحتـل شـواطئ المتوسـط، وفي الوسـط امبراطورية "البارثيين" تبسط نفوذها على العراق وإيران، وإلى الشرق إمبراطورية "كوشـان" تسـيطر علـى آسـيا الوسـطى وأفغانسـتان والهنـد، وهـذه الإمبراطوريـات الثلاث كانت تغطي مجموع العالم اليوناني- الروماني.

وعلـى الـرغم مـن أن مؤسسـيها وزعماءهـا لم يكونـوا يونـانيي الأصـل، فقـد كـانوا جميعاً "متهلينين" كما كانوا فخورين في إعلان ذلك والجهر به، وهذا يعني أنهم كانوا يعتبرون واجباً عليهم أو امتيازاً لهم أن ينشروا الحضارة اليونانية مع الإبقاء على الاستقلال الذاتي في الأمكنة التي تتمكن فيها طريقة الحياة اليونانية من التفتح.

وكـي نفهـم الأوضـاع جيـداً لا بـدّ مـن أن ننفـذ إلى عقـول ملايـين اليونـانيين والرومانيين والشرقيين "المتهلينين" الذين كانوا في الأمس برابرة يعيشون في معزل عن هذا السلام "البارثي" أو "الكوشي" في القرن الثاني بعد المسيح.

إن الفيض من الحروب والثورات الذي كان قد تدفق على حدودهم قد انتهى الآن، وكابوس تلك الحقبة المضطربة لم يعد يقلق أفكارهم ويشغل مخيلاتهم، فالحياة الاجتماعية أصبحت مستقرة بفضل رجال الدولة المتحلين بالروح البناءة والوضع الاقتصادي إن لم يكن المثال المتبقي من ناحية العدالة الاجتماعية فهو محمول حتى من طبقة الفلاحين والبروليتارية، ويمثل بالنسبة للطبقات جميعها تقدماً لا مجال لإنكاره إذا ما قيس بالفوضى السابقة التي وضع أخيراً حدّاً لها.

لقد أصبحت الحياة أقل قلقاً مما كانت عليه في الحقبة السابقة، ولكنها صارت بسبب ذلك أكثر رتابة، وتمكن أمثال يوليوس قيصر وأرزاس أو "كانيشكا" من أن يزيلوا المتاعب في القضايا الاقتصادية السياسية المحرقة وهكذا ساعد العمل الخيّر حكومة استبدادية دون أن يدري على خلق فراغ في النفوس البشرية.

ترى، بماذا يمكن أن يسدّ هذا الفراغ؟ لقد كان هذا الأمر السؤال الأكبر الذي طرح في العالم اليوناني- الروماني في القرن الثاني بعد المسيح، والموظفون والفلاسفة المفرطين في الدّقّة والتعقيد لم يكونوا يشكون دائماً من أن قضية كهذه كانت قضية الساعة، وأولئك الذين عرفوا كيف يحللون إشارات الزمن، وانتقلوا إلى العمل متكلين على هذه الدلائل، كانوا الرسل للديانات.

وفي المعركة الطويلة بين العالم واليونان والرومان انتزع هؤلاء المبشرون الشرقيون المبادرة من الإغريق والرومان، بمهارة جعلت الأمور تمرّ دون أن يلحظها أحد، لذلك لم تكن مبعث قلق وخوف، ومع ذلك في تجربة القوة هذه بين العالم واليونان والرومان بدأ دولاب الحظ في الدوران، وكان الهجوم اليوناني- الروماني قد استنفد كل قواه، مما يؤكد أن هجوماً معاكساً كان وشيكاً، ولكن هذا الهجوم المعاكس لم تظهر آثاره سريعاً لأنه كان قد دفع به على صعيد آخر، لقد كان الهجوم اليوناني- الروماني عسكرياً لا سياسياً، اقتصادياً، فجاء الهجوم المعاكس دينياً، وكان لهذه الحركة الدينية الجديدة مستقبل واسع، كما يثبت لنا التاريخ، فيما بعد، ترى ما هي أسباب هذا النجاح الذي كان قد بدأ تحقيقه؟.

من بين الأسباب التي ساعدت في القرن الثاني بعد المسيح على ولادة هذه الديانات الجديدة وانتشارها كان القرف الذي سببته الاصطدامات المتتالية بين مختلف الحضارات.

لقد لاحظنا سابقاً أنّ الشرقيين كانوا قد تبنوا مسلكين متناقضين تماماً تجاه حضارة الإغريق المشعّة، الحضارة التي اعتبروها تحدّياً لهم، كان هناك رجال دولة من مدرسة هيرودس يعتقدون أنّ أفضل وسيلة للحياة في هذا الجو الحضاري اليوناني- الروماني هي تبني تلك الحضارة إلى آخر حدٍّ ممكن، وكان هناك آخرون متعصبون اتخذوا قراراً لهم يقضي بأن يتجاهلوا تماماً هذه الحضارة الجديدة، ويتصرفوا كما لو أنها ليس لها وجود.

وبعد أن كانوا قد جربوا عبثاً التكتيكين، أيقنوا أن هذه الحرب لن تؤدي إلى شيء، فالتعصب كان قد اتضح هلاكه، وتكتيك هيرودس لم يعطِ نتائج مرضية، والحكمة التي يجب استنتاجها من هذا التغيير هي أنه لا يوجد حضارة إنسانية تستطيع أن تدعي كونها طلسماً روحياً في الأفكار المتيقظة، والقلوب البائسة كانت مستعدة الآن أن تستقبل إنجيلاً يترفع فوق هذه المطالب الحضارية العقيمة والمطالب المضادة لها، لقد كانت تلك هي الفرصة الوحيدة كي يقوم مجتمع جديد لا يكون فيه سكثيون ولا يهود أو يونانيون، لا عبد ولا أحرار، لا رجال ولا نساء، بل الجميع شخص واحد في يسوع المسيح، أو في "ميترا أو "سيبيل أو إيزيس" أو بوديسادتو أو امتيابها أو أفالوكيتا".

إن المثال الأعلى للإخاء الإنساني الذي خرج منتصراً من تمازج الحضارات هو إذاً أول تفسير لنجاح هذه الأديان، ويجب ألا ننسى أنّ هذه المجتمعات الجديدة التي تخاطب كل الكائنات البشرية، دون تمييز في العنصر أو الطبقة أو الجنس، قد أنقذت أعضاءها باتحادها مع كائن أعلى، وذلك لأنها تعلمت أن الطبيعة البشرية دون النعمة الإلهية لا تكفي حتى ذلك الوقت كان الشرقيون قد جربوا نوعين من الآلهة البشرية، خيبا الآمال، فالعسكرية المتألهة المتمثلة في الاسكندر كانت فضيحة طنانة، والاسكندر هو قاطع طريق أكثر منه إله، ولو أنه قام بمغامراته وأعماله بمساعدة شريكين عوضاً عن أن يسانده جيش كامل لما وجد القرصان التيراني أي إزعاج في أن يقول ذلك في وجهه، حسب ما يروي لنا القديس أوغسطينوس.

وماذا نقول عن البوليس المتأله أوغسطس قيصر، لقد أصبح بوليساً في اليوم الذي صفّى فيه رفاقه قطاعي الطرق، ولو أنه طلب إلينا التعبير عن امتناننا بعبادة هذا الشقي التائب، فإننا نفعل ذلك دون اقتناع ولا حماسة، وستكون قلوبنا عطشى إلى إله نستطيع أن نعبده في الروح والواقع، مع الآلهة التي ظهرت في هذه

الأديان الجديدة وجدنا أنفسنا أخيراً مع آلهة نستطيع أن نكرس لها كل قلوبنا وعواطفنا وأرواحنا وقوانا، إن ميترا ستكون قائدنا، وإيزيس تهز لنا سريرنا، كأنها أمنا، والمسيح تعرى من كل قوته ومجده الإلهي كي يتجسد ويذوق الألم، وبوذا سنفا وصل إلى النيرفانا رفض أن يدخل في الطوبى، إن هذا الرائد البطل قد حكم على نفسه أن يجعل طوق التجسد من جديد لآلاف السنين، وهذه التضحية السامية قبل بها حباً بأخوته المخلوقات البشرية كثيرة هي الترغيبات التي قدمتها هذه الديانات الجديدة إلى القسم الأكبر من البشرية التي كانت منهوكة القوى، تنوء تحت النير في ظل السلام اليوناني- الروماني، ترى ماذا كان موقف الأقلية اليونانية- الرومانية التي تملك في يدها السلطان؟.

لقد اجتاحت من قبل العالم وخرّبته ونهبته وسلبته وفرضت نفسها عليه، إنها تتجول بين الخرائب بعد أن أعطت لنفسها لقب بوليس أو دركي.

ويقول مفكر يوناني: ((إن اليونان خلقوا صحراء سمّوها سلاماً))، فكيف يستطيع أسياد العالم اليونان والرومان أن يقاوموا هذا الهجوم المعاكس على الصعيد الديني الذي كان جواب العالم على هجومهم العسكري السياسي؟.

وإذا دخلنا إلى قلوب اليونانيين والرومانيين من جبل مرقص أوريلوس وجدنا أنفسنا أمام فراغ روحي تماماً، مثلنا نحن الغربيين الحاليين.

وهؤلاء الفاتحون الأوائل للعالم، كانوا منذ مدة طويلة قد نبذوا دين أجدادهم وطريقة الحياة التي كانوا قد اختاروها لأنفسهم والتي قدموها للشرقيين الخاضعين لنفوذهم الحضاري، كانت طريقة حياة عالمية دنيوية، يلعب الذكاء دور القلب بوضع فلسفات تقوم مقام الأديان، إن هذه الفلسفات التي كان يفرض فيها أن تحرر الروح، لم تفعل سوى تقييد النفس بالرتابة الحزينة حتى أن "مرقس أوريلوس" الإمبراطور الفيلسوف كتب يقول: ((لقد جرب إنسان متوسط الذكاء وصل إلى سن الأربعين كل ما كان وكل ما هو كائن وكل ما سيكون)).

لقد خابت آمال هذه الأقلية الموجهة من اليونان والرومان، لذلك تأملوا كسواهم من الجوع الروحي الذي كانت تشكو منه الأكثرية الإنسانية آنذاك، والأديان الجديدة التي وجهت نداءها إلى الرجال والنساء دون تمييز في الأشخاص خضعت لتزيين المبشرين كي يقبلها الفلاسفة، ومن أجل أن تتم الخطوة الأخيرة ويتقبل الجمهور الوثني هذا الغذاء الروحي الجديد كان لا بدّ أن يرتدي أشكالاً يونانية، وهكذا أثبتت البوذية، حتى المسيحية الطراز اليوناني لتعبر عن شكلها على صعيد الفن، ولكن المسيحية ذهبت إلى أبعد من ذلك بتبنيها، على الصعيد الثقافي الحضاري التعابير الفلسفية اليونانية نفسها ذلك هو الفصل الأخير من تاريخ التقاء العالم باليونان والرومان، وبعد أن سيطر هؤلاء على العالم بقوة السلاح، أصبحوا سجناء لدى هؤلاء المغلوبين أنفسهم إذ اعتنقوا على أيديهم أدياناً جديدة توجه رسالتها إلى بني البشر دون تمييز بين الأسياد والعبيد بين الشرقيين والبرابرة، ترى هل يتم تدوين نهاية تاريخية مشابهة للقاء الحالي بين العالم والغرب.. في التاريخ الذي لم ينته بعد؟!.

إننا لا نستطيع معرفة ذلك، لأننا نجهل ماذا سيحدث، ولكن يمكننا فقط القول إن ما سبق وحصل مرة، خلال حقبة ماضية من التاريخ ما زال أحد الأمور الممكنة في المستقبل.

تقدير وتقويم

تقديرنا الكبير لهذا البحث وما تتضمن من حكمة رائعة ومن أحداث تفيض بالمشاعر الرفيعة خاصة نعيه على دعاوى القوة وغطرستها وضلالها وزيفها وقصر نظرها، إلا أننا نبدي الملاحظات الآتية:

1- كنا نتمنى أن يأتِ على ذكر الرسول الأعظم ودوره الكبير في فلسفة الحب وبذل السلام، قال ﷺ جواباً على سؤال وجه إليه، أي الأعمال أحبّ إلى اللّه فأجاب: ﴿بَذْلُ السَّلَامِ لِلعَالَمِ﴾ صحيح البخاري"، وقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ **المائدة/54**.

2- مع أن خاتمة البحث وردت في صيغة استفهام استنكاري، إلا أننا كنا نتمنى أن يأتي في صيغة تقريرية خير لا سيما أن موضوع الاستفهام يمثل مبدأ عاماً مستخلصاً من صميم الحياة وسننها وقوانينها، إذ لا ريب بأن العاقبة للمتقين لا للأشرار الظالمين.

3- تعرض المذكور إلى حركات التصحيح على يد ميترا وإيزيس والمسيح وبوذا، لكن تسلب في ذكر الرسول محمدﷺ الذي حرر دارنا من عبث الرومان والفرس وأخيراً فليس بين اللّه ودعوة المظلوم أي حجاب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

الفرع الثاني

اليهود هم حصان طروادة في فلسفة الصراع

منذ أن فتح اليهودي عينه على هذه الحياة، وهو يدور حول نفسه ومصلحته أو كما نعته ماركس بذلك أفضل نعت بأن آلهة السفنجة الأداة الأهم في فعل الصرف والتجارة.

كيف نفخ به هذا الإحساس للتوجه صوب فلسطين، وهو طامس في مصالحه الذاتية الضيقة؟.

إنها فلسفة الصراع الغربية التي قطفت المسألة اليهودية كقاعدة عدوانية في خاصرة الشرق ودملة آكلة مستمرة في تدميره وحرقه يحركها الغرب كيف يشاء.

ونحن هنا لن نكرر أدبيات النضال العربي وخاصة القومي، وإنما سنضيف أداة نضالية جديدة، هي أدبيات سورة الإسراء، تلك الأدبيات التي لا ترقى إلى عصمتها الشك، إلى تحققها الوهن إذا تحقق في ديارنا الشرط البشري، رنو إلى اعتناق الهدى ودين الحق.

لقد جاء في هذه السورة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴿1﴾
وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً﴿2﴾

ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴿3﴾ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴿4﴾ فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً﴿5﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴿6﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً﴿7﴾ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴿8﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ **الإسراء/1- 9.**

جاء الإسراء كرؤية ماضية ومستقبلية لكلّ المنطقة التي بارك الله حولها بالأنبياء وليس بالماء والخضرة كما ذهب بعض المفسرين، فالماء والخضرة في الهند أكثر مما هما في هذه المنطقة، والآيات التي نراها تتعلّق بسباق التاريخ بمقدماته ونتائجه في هذه المنطقة وبالأطر الغيبية التي تكيّف صنعه[1]، قد قضى الله لبني إسرائيل علوّين يعقبهما فساد، وينتهي أمرهما في الحالتين على يد (عباد الله) يؤمنون به ويحلّون بديلاً عنهم.

[1] – على الرغم من أن الآيات السابقة في سورة الإسراء تلبس وقائع التدافع الإسلامي اليهودي إلا أن بعض التفاسير القرآنية تقودنا إلى مواقع مقلقة فهي تفسر قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا﴾ هم أهل بابل وكان عليهم بختنصر وقبل جالوت ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ذوي قوة وبطش، قيل: في المرة الأولى جاءت خير من فارس متنكرون ليتجسسون أخبارهم فهل نفسر آيات عظيمة بأسلوب الاحتمال "قيل"، محمد محمد عبد اللطيف ابن الخطيب: أوضح التفاسير، المكتبة المصرية، ص337.

في الأولى يجسون خلال الديار ولم يفعل في التاريخ هذا الأمر عباد الله يؤمنون به غير ما فعله المسلمون في ديار اليهود بالمدينة:﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿2﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ **الحشر/2-3**.

حيث جاسوا خلال ديارهم ثمّ يردّ الله الكرّة على هؤلاء العباد «بما ابتعدوا عن المنهجية الإلهية» ثم يعيد لهم الأمر فلا يجوسون خلال الديار هذه المرة ولكن (يتبرّون ما علوا) واللفظة هنا ليست مجازية فلو كانت مجازية لقيل ما اعتلوا بمعنى ما سيطروا عليه وقهروه ولكن ما علوا تعني ما حلّقوا فوقه قد جعلت "لمحمد" الأرض التي بارك الله حولها ليستوي قومه على مسلسل النبوات ويضعوا خاتمة لدورة التفصيل الإسرائيلي، ويصبح تاريخ المنطقة سجالاً بين الفريقين وضمن مرحلتين يمرّ بهما العرب: مرحلة التاريخ العربي ضمن الخروج للعالمية والتداخل مع الحضارات التقليدية، ثمّ يأتي فاصل تاريخي إسرائيلي نعيشه اليوم، ثمّ المرحلة التاريخية الثانية حيث تنطلق المنطقة العربية انطلاقاً حضارياً كونياً يصفي فيما يصفي ذيول الوجود اليهودي في المنطقة.

في مرحلة الدورة التاريخية الثانية هذه يعطي القرآن للحضارة العالمية كلّ مكنوناته الكونية في المنهج البديل المركز على الحقائق الثابتة، وما نفعله الآن هو مجرد نقطة في بحر المقدمة.

سورة الإسراء في وحدتها العضوية وشموليتها تعطي كل هذه المعاني وتوضح أبعاد الطريق بالحكمة، هي امتداد لما بين سورة "النحل" و"الكهف" ومدخل جديد

لحضارة مضيئة وتفصيلية تبتدئ بالعلم، فمن بعد آيات التدافع العربي – الإسرائيلي في مقدمة السورة، تبدأ الآية رقم/12/ : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ **الإسراء/12.**

أي لنعلم كل شيء قد فُصّل، فالواو عطف على علمنا في السنين والحساب وتتأكد آية الفعل الإلهي وتأكيد حرية الاختيار البشري ومدّ الله في العطاء لمن يريد، ثمّ وضع ذلك في دائرة الحكمة الإلهية الكليّة وسياقها التاريخي منذ عهد آدم، والتأكيد على استمرارية الوحي القرآني ثم الانتقال إلى "موسى" وبني إسرائيل وإلى وعد الآخرة من الدّنيا حيث يأتي الله ببني إسرائيل لفيفاً ليس في أول الحشر كما تفيد سورة الحشر ولكن للحشر الثاني والأخير الذي سيعقبه الانتصار العربي- الإسلامي ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ **الإسراء/104.**

ووعد الآخرة في هذه الآية رقم/104/يرتبط بوعد الآخرة في مقدمة الإسراء رقم/7/، وقد جمعت سورة الإسراء وبالذات من الآية/ 21/وإلى نهايتها[1].

لقد مضت المرحلة التاريخية الأولى في التجربة المحمدية العربية، وقد حملها تاريخنا على قدر استطاعته بعد التحول الغيبي الذي أجراه الله على المستوى العربي وعلى مستوى العالم الحضاري التقليدي، وقد تبدت مظاهر المنهج الكوني القرآني في تلك المرحلة على مستوى السلوك العام والحكمة العامة، وقد رأينا الكيفية التي تلازم فيها قول الله بفعله، وبعد ألف وأربعمائة عام الآن بدايات

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص405.

المرحلة الحضارية الثانية التي ستحمل القرآن بكل أبعاده وبكل منهجيته البديلة لا للعرب فقط ولكن للعالم أجمع[1].

لقد تمّ الإسراء لاستكمال (ختم النبوّة) و(تعميد بيعة) الأنبياء والرسل لخاتم النبيين بعد أن كانوا قد عاهدوا الله على إنجاز رسالاتهم (الحصرية) في أقوامهم كمقدمة لرسالته العالمية الخاتمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ آل عمران/**81**، وقد كان موسى هو المتقدم (إماماً) على هؤلاء الرسل والأنبياء من قبل محمد: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ هود/**17**، وذلك في إطار نبوات الأرض (المقدسة).

قد تمّ العهد ووثق قبل أن يبعث الله الحياة الدنيوية في أجساد الأنبياء فكلّ الأنبياء يتميزون بخصائص الروح، وسبق لنا أن شرحنا الفرق بين الروح التي هي قناة اتصال بالملأ الأعلى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ الاسراء/**85**، والنفس التي هي مصدر الحياة.

لذلك تنزل الأنبياء من عالم الروح إلى عالم الجسد (ومعهم) تنزل رسالاتهم فكلاهما نزل «أرواح الأنبياء ورسالاتهم»: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ

[1] - المرجع السابق، ص 405.

فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ البقرة/213.

وخلاصة ما يقصده هنا أن اليهود رفضوا السّير في إطار المنهجية الإلهية وآثروا التفرد العقلي الذاتي بما يرونه عائداً عليهم بالقوة والمجد: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِأَيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الجمعة/5، ونلاحظ هنا ارتباطهم بعملية (الربا) التي حرّمها الله تحريماً قطعياً.

من خلال الربا جمع اليهود في العالم ثروات طائلة وتمكنوا من إقامة إمبراطوريات مالية هائلة وسيطروا على النظام البنكي العالمي وأصبحت لهم «بحكم سياسة التمويل» مراكز نفوذ سياسية داخل الولايات المتحدة وبلدان أوروبا الغربية واستحكم اليهود بأموال الربا وجعلوها وسيلة للعودة إلى فلسطين منذ محاولتهم رشوة "السلطان عبد الحميد الثاني" الذي استعصم ورفض منحهم شرعية العودة، ولكنهم وجدوا لدى غير عبد الحميد إمكانيات المقايضة السهلة وعادوا وجعلوا خططهم بعد ذلك جذب مراكز القوى العالمية من ورائهم بحكم سياسات التمويل لفرض نفوذهم على الأمة العربية، رغم الحضارة العربية تجاههم لا سيما في الأندلس.

ما جمعه اليهود في مئات السنين تدفّق من بئر نفطية واحدة تحت نعل شيخ بدوي كل ما كان يفعله هو الصلاة ساجداً بجبهته على رمال الصحراء الناعمة ومختتماً سلامه بالصلاة على الرسول.

الأمر هنا «لا مصادفة كونية» يحمل ردّاً إلهياً على اليهود، هاكم ما جمعتوه وكأن الله يقول لهم إنه هنا وفي هذه الأرض من قبل أن يبتعث "محمداً" ومنذ أن ابتعثه وإلى اليوم.

وكأن اللّه يقول للعرب إنه ليس بتاركهم يدفعون لوحدهم قائمة الحساب المحمدي لقوى الصليبية واليهودية[1].

ونمضي أكثر فنقول إن العودة الإسرائيلية الحاليّة ليست سوى بداية للعالمية الإسلامية الجديدة التي يقضي اللّه إبرامها في الظاهر الموضوعي بكل أسس تكوينها بعد أن اطلع عليها محمد ﷺ في سياق الإسراء وفي سياق سورة الإسراء إننا نمرّ بمرحلة تبدل تاريخي لن يكون لنتائجها مثيل في تاريخ العالم، إنها مرحلة العالمية الثانية التي سيكشف فيها القرآن عن مكنونات المنهج الإلهي الكلي في الحركة الطبيعية والتاريخ البشري، وهي العالمية التي ستحمل للإنسان كله البديل الحضاري الذي يرسي دعائم السلام كما هي حقائقه الكونية (الإلهية والعلمية والفلسفية) بديلاً عن فلسفة الصراع التي تغرق العالم قبل سلبياتها، وهكذا لم يخلق اللّه الكون ويتركه عبثاً لحماقة الإنسان[2].

لم يطرح القرآن ظهور مهدي مخلص يقود الأمة ضد المشركين واليهود، ويستقطب قلوب العرب، وإنما طرح (التناقض الجدلي التاريخي) بين العرب والإسرائيليين تخصيصاً ومن خلال سورة (الإسراء) التي حملت معنى (التدافع) إنه من خلال هذا (التدافع العربي- الإسرائيلي) والذي سيمتد إلى أرجاء (الديار) العربية بأكملها ستكون ولادة العربي مجدداً، ولكن بنهج عالمي وبمنهجية كونية حضارية بديلة.

هنا بالذات سيتحد القومي مع الإسلامي في مواجهة إسرائيل، ولكن عبر متغيرين يصيبان كلاً منهما، وذلك تبعاً لما يكون عليه الكيان الإسرائيلي نفسه فالحركة القومية العربية ستمضي إلى خارج المفاهيم الوضعية حين تكتشف أن المفاهيم

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص458.

[2] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص459.

الوضعية تشكل سنداً للصهيونية في تعزيز (فلسفة الصراع) ضد الإنسان العربي المقوم بفلسفة (السلام)، ولأنه مقوم كذلك حان لنا أن نكتشف معاني النفي للتركّز الذاتي والتركّز العصبوي، والطبقي، فتكوين الشخصية العربية لا تؤدي للصراعية فهي كافة للناس وخيركم عند الله أتقاكم، فلا مجال للصراع، حتى ولا على أساس الدعاوي السياسية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿204﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ البقرة/**204- 205**، وانتهاء بالآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ البقرة/**208**.

لقد حبا الله قاعدة العالمية الثانية جناحين للانطلاق لا تعوقهما مشاكل القلب المتعب بجراحات المواجهة.. أحدهما شرق السويس منتهياً في (الجزيرة العربية) وثانيهما غرب السويس منتهياً في (المغرب العربي الكبير) وأبقى الاثنين خارج متناول التجارب الوضعية السافرة وشحنهما بخصائص تحمل مكنونات حركة جاذبة تستقطب بها الجزيرة العربية بأسرها ويستقطب بها المغرب الاتساع العربي ومعه الاتساع الإفريقي المسلم في نصف القارة الإفريقية الشمالية، أمّا دول القلب الملتفة حول الجسم الإسرائيلي الحار فإن مصيرها يقرر في الجناحين المتكاملين، وبذلك فكل مقومات التفاؤل متوفرة لدينا لتحقيق النصر ورد الكرامة المفروض به أن يأكل الحصى وأن يعيش بثلث معده حتى يسترد الكرامة المسلوبة.

وفي الواقع فرد الإنسان العربي الحضاري على الوجود الإسرائيلي هو ردّ على الوضعية العالمية كلها التي أفرزت الوجود الإسرائيلي وجعلته مقدمة لها في عمق منطقة القرآن ولسانه، وتحدينا لإسرائيل ليس معركة قومية عسكرية مجرّدة، وإنما هي معركة حضارية عالمية يتصدّى فيها القرآن بلسانه العربي وبإنسانه للعالمية كلّها التي جعلت الوجود الإسرائيلي شرعيّاً، فإسرائيل لا تكتسب شرعيتها

في هذه الأرض من حقوقها التاريخية، وإنما تكتسبها من منهجية الصراع الوضعية العالمية التي تقبل ببساطة وتبرر قتل وتشريد مليوني فلسطيني، وهذا قدرنا دون سائر شعوب الأرض، ولهذا نحن هنا في قلب العالم وفي حوضه الحضاري وممراته الاستراتيجية.

ولهذا تدفق النفط في الجزيرة العربية كأساس مادي لتطور متسارع يختصر جهداً بشرياً ضخماً، وكلّ شيء قد قدّره الله تقديراً[1].

ونعود مرّة ثانية لنؤكد أن حكمة الله لن تحقق على أيدينا غايتها الإلهية إلا عندما نستجيب بصورة كاملة لله تعالى، ونسخر البترول بصورة كاملة في حق الله (حق الشعب) وفي معركتنا وحقوقنا تجاه إسرائيل.

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص532.

الفرع الثالث

مقارنة جهة التجربة الإسلامية بالتجربة اليهودية

البقاء للأصلح في هذا الوجود، وكما قال تعالى:﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الأنبياء/105، وهذا هو دافع كتابتنا لهذا الفرع، وما دمنا نحمل المنهج الأمثل فالله «لا محالة» ناصر وأول ما تشير ويُدل عليه هو «كما سنبين» أن الله تعالى نسخ وأنهى المنهج اليهودي الحسي بنهج عالمية الكتاب النهج الموضوعي.

وفي الحقيقة لقد ذكرنا أن تجربة موسى هي تجربة إيمائية حسيّة وعلاقة الغيب بها علاقة مباشرة محسوسة، فموسى (يخاطب كلاماً)، أي صوتاً مسموعاً، والخطاب من وراء (شجرة ملتهبة) وترافقه (المعجزات الحسية المنظورة) من شق البحر وإلى تشقق الصخر ليخرج منه الماء، وإلى تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى، ويكون الخطاب الإلهي (حصرياً) لبني إسرائيل، وفي هذا الإطار الحسي المباشر للتجربة الموسوية –اليهودية يأتي التنزيل التوراتي (عهداً وقانوناً ووصايا عشر) وتكون (الحاكمية) لله مباشرة يمارسها الله سبحانه وتعالى عبر الأنبياء فلا (اجتهاد ولا تصرف) ولا (استخلاف)، وكلما مات نبي يخلفه نبي، بما في ذلك شرائع حسيّة غليظة أسماها الله (شرعة الإصر والأغلال) في مقابل المعجزات الخارقة عطاءً وفي إطار التجربة الإيمانية الحسية المباشرة، فلا فداء ولا عفو ولكن مسخ إلى قردة وخنازير.

إنها منظومة حسية متكاملة تهيمن عليها (الإرادة) الإلهية المباشرة و(الحاكمية الإلهية المباشرة)، وهكذا يتمظهر المطلق في جبرية الحالة الموسوية- اليهودية، كما يتمظهر مطلق الكونية في حالات الحجر والنبات والطائر الذي يطير بجناحيه في جو السماء.

وقد تمرد الإسرائيليون في مرحلة لاحقة على مظهر واحد فقط في هذه المنظومة الحسية الجبرية المتكاملة وليس عليها كلها، إذ تمردوا على (الحاكمية الإلهية المباشرة) وطالبوا (بحاكمية الاستخلاف).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ البقرة/**246**.

وتحوّل اللّه عن الحاكمية الإلهية المباشرة باتجاه (حاكمية الاستخلاف) التي منحها لداوود وسليمان، ولكن مع كامل مقومات الاستخلاف من حيث التحكم في قوى الطبيعة كالرياح، غدوها شهر ورواحها شهر، ومن حيث التحكم في الكائنات غير المرئية ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴿**78**﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴿**79**﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴿**80**﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴿**81**﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ الأنبياء/**78- 82**.

فحاكمية الاستخلاف تستوجب الأخذ بصلاحيات المستخلف وهي غير الحاكمية الإلهية المباشرة التي تمرد عليها الإسرائيليون وهي تتدرج في إطار (التجربة

الحسية) نفسها من حيث المعجزات الخارقة والشرائع والخطاب الحصري لبني إسرائيل.

من حاكمية الاستخلاف إلى حاكمية الكتاب

بظهور محمد خاتم الرسل والنبيين ﷺ نسخت المنظومة الحسية الموسوية-اليهودية وبكل متعلقاتها الجبرية، حيث بلغت إطلاقية الإنسان ذروتها بظهور دين الأنبياء، وهو الإسلام للناس كافة.

منظومة الإطلاق هي منظومة إسلامية، ومتكاملة أيضاً، فالخطاب الحصري لبني إسرائيل ينسخ بخطاب للناس كافة (عالمية الخطاب)، والحاكمية الإلهية وحاكمية الاستخلاف تحلّ بديلاً عنهما (حاكمية الكتاب) الذي يتجه عبر عالمية الخطاب مع كافة المناهج المعرفية ومختلف الأنساق الحضارية للشعوب، وشرعة (الإصر والأغلال) التي ارتبطت شرطياً بمنظومة التجربة الحسية ومعجزاتها الطبيعية الخارقة تنسخ بشرعة (التخفيف والرحمة) التي ترتبط بامتناع خوارق المعجزات فلا ينابيع تتفجر ولا منّ ولا سلوى، والعلاقة بالغيب تصبح (غير مباشرة فالعلاقة بالله غيبية غير حسيّة مضمونها (وحي لدني) وتتحول النبوة من الأرض (المقدسة) إلى الأرض (المحرمة)، وعوضاً عن الدعوة إلى (التوطن) يؤمر العرب (بالخروج) إلى الناس، وتختتم النبوة وكذلك الرسالة[1].

هنا نسخ كامل، ومنظومة أخرى في إطار تحقيق المطلق، حتى يركز على توضيح الأمر ونثبته في ذهن القارئ ليتبين الفارق بين منظومتين يتحرك في إطارهما المطلق نورد المقارنات التالية بين المنظومتين الحسية اليهودية والإطلاقية الإسلامية.

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص264.

في الخطاب الإلهي لبني إسرائيل نجد أن النص يتجه للمخاطبة: (القومية) مثل ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ البقرة/40، ويمتد هذا الخطاب القومي التخصصي إلى محاورة موسى لفرعون ليأذن بخروج بني إسرائيل: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الأعراف/105.

أ-**المقابل**:

يتجه الخطاب الإلهي لخاتم الرسل والنبيين باتجاه عالمي: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الأعراف/158.

حينما وجه الله خطابه القومي لبني إسرائيل للخروج من مصر فإنما أمرهم (بالتوطن) في الأرض المقدسة: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ المائدة/21.

ب- **المقابل**:

وجّه الله سبحانه وتعالى خطابه للعرب بالخروج إلى (الناس) كافة وليس التوطن في بقعة محددة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ آل عمران/110.

ج- اتسم المسار اليهودي/الإسرائيلي بخوارق المعجزات الحسية المتطورة من ذلك:

1- التدافع بين موسى والسحرة حين ألقى بعصاه فالتقفت وليس (التقمت) ما يأفكون فجردت أنظار الناس عن متوهم السحر: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ الشعراء/**45**.

2- شق البحر والسير بين جنبيه: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ الشعراء/**63**.

3- تظليلهم بالغمام وتدني المن والسلوى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ البقرة/**57**.

4- انفجار الينابيع من الصخر: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ البقرة/**60**.

5- تحدّي العناد الفرعوني بآيات حسية مبصرة: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴿132﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾ الأعراف/**132- 133**، وهناك معجزات حسيّة أخرى منظورة عديدة.

ح- المقابل:

اتسم المسار الإسلامي بخلوه من هذا النوع من المعجزات الحسية المنظورة الخارقة، وقد أكّد القرآن على هذا الامتناع، من ذلك:

1- ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً﴿90﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً﴿91﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً﴿92﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً﴿93﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً﴾ **الإسراء/90 -94**، هنا طلب الأميون العرب ينبوعاً كانبجاس الماء من الصخر لقوم موسى كما طلبوا معجزات حسيّة خارقة أخرى مماثلة، ولكن امتنع الله –القدير- عن ذلك.

2- وأوضح الله سبحانه وتعالى ما كان عليه حال الرسول ﷺ حين امتنعت هذه الخوارق من الآيات الحسيّة: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ **الأنعام/35**.

وهنا تأكيد إلهي جازم بامتناع هذا النوع من الخوارق في المسار الإسلامي، أي أن طبيعة هذا المسار الإسلامي مفارقة نوعية لطبيعة المسار اليهودي الذي يتطلب الخوارق الحسيّة، ولذلك حذّرنا الله من الجهل بالأمر الذي يحبس الخوارق عن طبيعة مسارنا ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ **الأنعام/35**،بمعنى أن هناك أمر لو علم لما طلبت الخوارق الحسيّة.

وجاء التأكيد على اختصاص العلم بفهم هذا الفارق في نفس السياق حين قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ **الأنعام/36**، فحضر (نمط التصديق والإيمان) هنا بحاسة السمع «أي السمع وليس حتى الاستماع الحسي كما كان لموسى» فالسماع هو من قابلية

الوعي (الغيبي) بالإيمان بتحكيم (السمع والأبصار والأفئدة) وليس تحكيم الرؤية المادية كما كان عليه حال بني إسرائيل، فهنا مرتبة أعلى بالعلاقة بين اللّه والبشر تجاوز الحواس المادية، ولهذا ردّ اللّه الأمر لعلم مرّة أخرى في آية لاحقة من بعد أن حذر من الجهل في مبتدأ الآية السابقة: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ **الأنعام/37**، أما حين يعلمنا اللّه بهذا الأمر الذي حذرنا من الجهل به فستكشف أن مسار إيماننا باللّه وعلاقتنا به إنما تتم وفق مقومات الإدراك الثلاثي (غيبياً) وليس الرؤية المادية حسّاً.

لذلك حين أراد اللّه أن يتفضل على الأميين برسالة الإسلام حيث يختص برحمته من يشاء فقد قدّر الأمر نسخاً لما كان عليه مسار بني إسرائيل، وحذرنا منهم تماماً كما حذر آدم من إبليس، ثمّ طلب اللّه منا ألاّ نخطئ في فهم الطبيعة النوعية المميزة لمسارنا الديني القائم على علاقتنا (الغيبية) باللّه والقائمة على (الإدراك) فنطلب من رسولنا ما سبق لبني إسرائيل أن طلبوه من موسى كمعجزات حسيّة: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴿105﴾ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿106﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴿107﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾ **البقرة/105- 108**.

هنا سياق إلهي محكم من الآيات التي توضح (النسخ) باعتباره تجاوزاً موضوعياً وتاريخياً لنمط المسار الإسرائيلي/اليهودي القائم على الإيمان الحسّي المنظور المعجزات وباتجاه الإيمان الغيبي القائم على المدارك، ولذا نهانا اللّه في السياق

نفسه عن طلب الخوارق الحسية التي طلبت من موسى والتي كانت تتوافق مع المسار الموضوعي التاريخي للحالة الإسرائيلية التي هي أكثر تخلفاً عن الحالة الإسلامية ومسارها.

وعلى الرغم من أن بعض المفسرين قد تأولوا وجهاً آخر لمعنى (النسخ) باعتباره نسخاً في آيات القرآن الكريم وليس نسخاً للحالة التاريخية الإسرائيلية ونمطها الديني الحسي، حين ربطنا الآيات ربطاً كلياً وعضوياً دون تجزئة السياق، فإننا نأتي بهذا الوجه لمعنى (النسخ) فيما توضحه ضمن المقارنة المتعددة الجوانب بين الإسلام واليهودية، ونحن من مدرسة لا تعتقد أن هناك آيات في القرآن المقروء تنسخ بعضها البعض، وإنما هناك متشابهات تعارض صعب على البعض اكتشاف ما يوجد بينها، إما لإشكاليات في استخدام اللغة، وإما لعدم الأخذ –حين التفسير- بوحدة الكتاب العضوية واكتشاف منهجيتها الرابطة لكلّ آياته من الفاتحة وإلى المعوذتين، أو نتيجة الأخذ ببعض الأحاديث التي تبدو متعارضة مع صريح القرآن دون التدقيق الكافي في هذه الأحاديث وصحّة نسبتها إلى الرسول ﷺ والنسخ يعني تجاوزاً لحالة دينية تاريخية قائمة على المدرك الغيبي وقوى الوعي الثلاثي سمعاً وبصراً وفؤاداً، فلزم أن ينهانا الله عن طلب ما كان لقوم موسى من معجزات في سورة البقرة، وكما حذرنا من الجهل بهذا الأمر في سورة الأنعام وأكّد لنا على امتناع المعجزات في سورة الإسراء، فهذه سور عدة أحكمت هذا المعنى للنسخ التاريخي وردت اكتشاف الأمر به إلى العلم الذي يعني اكتشاف الفارق بين المسارين وقد أوضحنا حكمه هذا الفارق[1].

كما نود أن نشير إلى أن البعض ممّن يجهلون هذا الفارق وجذرهم الله من الجهل به قد انساقوا وراء (حمية) عصبوية ظنّاً منه أن خلو الرسالة الإسلامية من

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص268.

المعجزات الحسيّة إنما يقلل من مرتبة الرسول ﷺ إزاء مراتب الرسل الآخرين من الذين بهذه الخوارق، وبالذات موسى وعيسى صلوات الله عليهما، فنسبوا للرسول ﷺ الموقّر معجزات حسيّة وما أدركوا أنهم بذلك يقللون من شأن خاتم النبيين بجهلهم «الذي حذر منه الله» بالطبيعة والنوعية المفارقة للإسلام.

اتسم التشريع الإلهي لبني إسرائيل بالعقوبات الحسية الغليظة التي وصفها الله أنها (إصر وأغلال) والتي امتدت إلى تحريم ما هو حلال بطبيعته، وذلك نتيجة ظلمهم وطغيانهم، ويمكن توضيح الأمر على النحو التالي:

1- ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّه كَثِيراً﴿160﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ النساء/**160-161**

2- حين تحللوا عن قيود السبت وغضب الله عليهم مسخهم إلى قردة، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ البقرة/**65**.

وكذلك إلى قردة وخنازير: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ المائدة/**60**.

3- ويمضي العقاب الحسي الخارق إلى نتق الجبل فوقهم: ﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأعراف/**171**، وكذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ البقرة/**93**.

4- ويمضي العقاب الحسيّ الخارق إلى درجة الصعق والموت ثمّ البعث في الدّنيا من جديد ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴿55﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ البقرة/**55- 56**.

5- وتمضي أصر التشريعات وأغلالها التي جعلها الله على الإسرائيليين إلى مستوى لا ينظر معه إلى قتل النفس بصيغة (المفرد)، بحيث تقبل الفدية وإنما قتل النفس الواحدة هو كالقتل الجماعي: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴿32﴾ إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ المائدة/**32- 33**، وقد طبق سيد الأنصار في المدينة المنوّرة هذا النص التشريعي المعمول به في التوراة عليهم حين حاربوا اللّه ورسوله حين غزوة الخندق وخلفهم مع الأحزاب وهو نص وارد بحق اليهود وليس المسلمين، إلاّ أن بعض الفقهاء قد استمد منه تشريع يوصف (بحدّ الحرابة) طبقه على المسلمين دون الرجوع إلى مبتدأ الآيات الدالة على خصوصية الشريعة اليهودية كنوع من الإصر والأغلال، تماماً كالنص بحقهم فيما يختصّ بالقتل الجماعي ضمن الحالة الفردية حيث لا تقبل الفدية.

6- ويتخذ اللّه تشريعاً للإسرائيليين يقتضي معه (المماثلة) فلا يتم القبول بعقوبة قياسية أو تعزيزية تؤخذ بالاجتهاد، وإنما الجزاء من طبيعة العمل نفسه وليس من جنسه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴿45﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ المائدة/**45- 46**.

فأصل التشريع كان عليهم من قبل عيسى(عليه السلام)، ونكتشف فيه أن عفوهم في حال الخروج لا يعتبر صدقة وإنما (كفارة)، ﴿فمن تصدّق به فهو كفارة له﴾، والفارق بين الكفارة والصدقة أن الكفارة إنقاص من سيئات في حين أن الصدقة هي إضافة إلى حسنات أو إضافة حسنات، وما ذلك إلاّ لأن الإسرائيلي الذي شقّ له البحر وتدني له المنّ والسلوى وظلّل بالغمام وانبجس له الماء من الصخر لا يعامل في حال العقوبات والغضب الإلهي عليه إلاّ بما يماثل العطاء الحسي الخارق، فهذه من تلك، ولذلك جعلت صدقته كفارة لأن المطلوب منه مماثل لما أعطي له، وهو دائماً «أي الإسرائيلي» في ما يعطيه دون مستوى ما يأخذه، في حين أن الله يشرع لعفو المسلم في الدم بوصف هذا العفو صدقة وليس كفارة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى﴾ البقرة/**178**،

فهنا أشار الله إلى مبدأ (التخفيف) في التشريع على المسلمين، وجعل الفدية إتباع بمعروف وإحسان.

1- أكّدّ اللّه على هذه الأصر والأغلال بحقّ اليهود حين لجأ إليه موسى وقومه للاعتذار عن عبادة العجل، سائلين اللّه التخفيف، فأوضح اللّه لهم استمرار الإصر والأغلال كعقاب حسيّ خارق يماثل العطاء الإعجازي الحسيّ الخارق إلاّ أن يتبعوا النبي الأميّ الذي تتميز شرعته بالتخفيف المقرون بالرحمة وبالعالمية، فكان هذا مبتدأ الإشعار لليهود بنسخ المسار الديني التوراتي ونسخ الشريعة التوراتية وإصرها وأغلالها كما أوردنا في سورة البقرة/الآيات من 105- 108.

وقد كان حوار الله مع موسى والسبعين رجلاً على النحو التالي في سياق الآيات: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴿155﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴿156﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ **الأعراف/155- 157.**

فبموجب هذه الآيات جعل الله التخفيف والرحمة ووضع تشريعات الإصر والأغلال وقفاً على الرسول النبيّ الأميّ باعتبار الإسلام ناسخاً لليهودية ومفارقاً لمسارها، وبما توضحه هذه المقارنات، كما بشّرهم الله في نفس تلك الوقفة على الجبل بعيسى عليه السلام وجعله حلقة وسطى ما بين موسى ومحمد على جميع النبياء والرسل الصلاة والسلام.

المقابل:

1- اتسم التشريع الإسلامي بالتخفيف ووضع الإصر والأغلال كما أشار لبني إسرائيل في نتق الجبل، ليحلّ أيضاً تلك الطيبات التي حرّمت عليهم، وليتجه بالدعوة اتجاهاً عالمياً، لهذا جاء تصديق الوعد الإلهي في الآية المتصلة بنتق الجبل من بعد البشارة بالنبيّ الأميّ وشرعته المخففة والناسخة للشرعة اليهودية: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ

هُوَ يُحيِيِ وَيُميتُ فآمِنوا باللّهِ ورَسُولِهِ النَّبِيِّ الأمّيّ الّذي يُؤْمِنُ باللّهِ وكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهتَدُونَ﴾ الأعراف/158.

2- باتجاه سنّة الرسول ﷺ العملية نحو التخفيف والرحمة في التشريع تأكيداً للبشارة به في سورة الأعراف وتحقيقاً وتبياناً لمنهج القرآن، تأكد لليهود أنه «أي الرسول ﷺ الموقر» هو النبيّ الأمي المبعوث إلى الناس كافة والقائم على الشريعة المخففة، فجعلوا همّهم الطعن في أهم علامتين من علامات الرسالة الإسلامية، وذلك بالطعن في شرعتها المخففة وفي عالميتها، فعبر الطعن في هذين الأمرين بالذات يحاولون إبطال جوهر الرسالة الإسلامية الناسخة لهم ولدورهم ولدينهم، ولقد حذّرنا الله سبحانه وتعالى كثيراً من هذا التوجه اليهودي حين ذكر في مبتدأ آية النسخ ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذينَ كَفَرُواْ منْ أَهْلِ الْكتَابِ وَلاَ الْمُشْركينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ البقرة/105.

ومع هذا التحذير الإلهي لنا والذي يماثل تحذيره لآدم من إبليس وقعنا في خطأ ما دسّ علينا وبالذات حين نسب إلى الرسول تنفيذه الأحكام التي هي من نوع الإصر والأغلال وليست واردة في القرآن الكريم، ولم نتنبه نحن إلى مغزى هذا الدسّ الذي يمضي لأبعد من قيمة الأحكام نفسها، فالمقصود به في النهاية البرهان على أن محمداً يتبع ما كانت عليه شرعة اليهود، وليس هو بالنبي الأميّ الناسخ لشرعيتهم بشرعة التخفيف، وبالتالي تبطل عالميته، وعليه لا بدّ من مراجعة بعض هذه التشريعات المدسوسة علينا دون أن ننتبه إلى خطورة مغزاها حين دسوها على الرسول ولم يأمر بأي منها ولدينا دراسة لاحقة وموثقة حول هذا الموضوع بالذات.

أما ما حدث في المدينة المنوّرة يوم الأحزاب من تطبيق لحدّ (الحرابة) على اليهود والمنصوص عليه في سورة المائدة/33، فهو تطبيق لنص التوراة عليهم بعد أن رفضوا الإسلام، وقد أوكل الرسول الحكم عليهم بنص التوراة إلى سيد الأنصار ولم يتول الأمر هو شخصياً.

3- تبعاً لنسخ الإسلام لشرعة الإصر والأغلال فقد وضع منطلق التكفير والكفارة نهائياً عن المسلمين إلاّ في حالتين فقط، تمسّ الأولى منهما القسم زوراً بالذات الإلهية (المحرمة)، وتمسّ الثانية مخالفة أحكام (التحريم) في الأرض المحرمة: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ المائدة/**89**.

أمّا النّص على الكفارة الثانية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ المائدة/**95**.

فالتكفير يلحق بالمسلمين في هاتين الحالتين فقط وهما مما يمسّ بالذات الإلهية المحرمة والبيت المحرم، أمّا عدا ذلك فيكفّر الله نفسه السيئات عن المسلمين بما يصيبهم به من نقائص في صحّة أو مال أو ولد: ﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ﴾ البقرة/**271**.

تلخيص الفوارق بين المنظومتين الإسلامية واليهودية

الإسلام	اليهودية
1- خطاب عالمي إلى النّاس كافة.	**1**- خطاب قومي محصور في نبي إسرائيل.
2- يقوم الإسلام على (الخروج) إلى الناس كافة.	**2**- تقوم اليهودية على التوطن في الأرض المقدسة.
3- يرتبط تنزيل القرآن بالأرض المحرمة فهو غير قابل للتحريف ويعتبر مرجعاً لكل أشكال الوحي الحاكمية المتقدّم زمانياً عليه ومن هنا تنبع الإلهية حاكمية الكتاب.	**3**- يرتبط تنزيل التوراة بالأرض المقدسة حيث تتدنى درجتها عن الأرض المحرمة ومن هنا نتبع حاكمية الاستخلاف.
4- تعتمد العلاقة مع اللّه على المدركات الغيبية بقوى الوعي الثلاثية سمعاً وبصراً وفؤاداً ودون فوارق حسيّة.	**4**- تعتمد العلاقة مع اللّه على الحواس المنظورة والمعجزات الخارقة.
5- يعتمد التشريع على التخفيف والرحمة.	
6- يُنسخ منطق التكفير ويؤخذ بمنطق العفو والصدقة.	**6**- يرتبط التشريع بالأصر والأغلال.
7- القرآن ناسخ للتوراة وأمّة المسلمين ناسخة لأمّة نبي إسرائيل.	**7**- التوراة منسوخة بالقرآن والإسرائيليون نسخوا بالمسلمين.

فوارق الشرعة والمنهاج:

هذه هي الفوارق الجوهرية بين الديانتين، وبالتالي ينبغي على الفكر الإسلامي أن يتعمّق في معاني (عالمية الخطاب)، و(حاكمية الكتاب) مع ربط العالمية (بشرعة التخفيف والرحمة) وعدم الأخذ بما كان في شرائع الدين اليهودي المتجه نحو القومية والمدركات الحسيّة، وبذلك نصل إلى فهم (النظام الديني الإسلامي) وأبعاده الفكرية والفلسفية إي منهاجه، والذي أكّد القرآن على نسقه النوعي المميز بالقول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ المائدة/**48** ولم يقل لكل جعلنا شرعة ومنهاجاً أو لكل منكم جعلنا، وإنما جعل مصدر الجعل (منكم) رجوعاً إلى النسق المميز الذي شرحنا محدداته المنهجية من ختم النبوة والرسالة وإلى حرمة البيت.

ومع إعادة النظر في فهم القرآن الكريم والمجيد والمكنون وفق هذه المعطيات، فالإسلام هو دين المستقبل كما هو دين الحاضر والماضي، وأهمية هذه المقابلة أنّها توضح آفاق العلاقة بين المطلق والنسبي، وبهذا يجمع الله لنا في كتابنا الخاتم لكلّ الكتب والمصدق لها ما بين الثابت والمتحول في الزمان والمكان.

هذا نموذج لكيفية الجمع بين القراءتين في قراءة المطلق وفق جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، حيث يكون الحجر الأصمّ مركباً ضمن إطلاقية الكون اللامتناهي في الكبر واللامتناهي في الصغر، ففي داخل الإطلاقية الكونية والإنسانية تتعدّد المنظومات فهناك ما هو جبري، ولكن ضمن منظومته وهناك ما هو نسبي وهناك ما هو مطلق تتحقّق لديه آفاق الحرية المتكاملة.

وفي إطار تعدّد المنظومات ضمن المطلق تتعددّ أنماط الخطاب الإلهي تبعاً لكلّ حالة، من العائلية الآدمية وإلى الحصرية الإسرائيلية الحسيّة بمنطقها القومي-القبلي و"إلى عالمية الإسلام الأولى التي تحركت في إطار الأميين وشكلت التأسيس الحضاري لعالمية إسلامية ثانية تليها، فلكل منظومة خطابها، وشرعتها ومنهجها.

أمّا ثاني المحددات المنهجية في الجمع بين القراءتين فتختص بـ:

المتوسطات الجدلية في الفعل الإلهي:
فكلّ الآيات التي تبدو من سياقها الجبرية المتناقضة مع الإطلاق فيجب أن تعاد قراءتها في إطار الإطلاق وضمن توسطات جدلية كالآية: ﴿ إِنَّمَا أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ يس/**82**، فالتوسطات الجدلية تشتمل هنا على ثلاثية تبدأ بالأمر وتتشكل في صيرورتها عبر الإرادة لتنتهي إلى التشيؤ، فهناك صيرورة وليس من خلق فجائي، هكذا يعتدل الإنسان بمنطلقه الكوني (متحرراً) من أي استلاب وضعي أو لاهوتي، وهذا هو (لب الكتاب) ولكن: ماذا بعد أن يتحرر المطلق الإنساني؟.

وقتها يشرع الإنسان وفي إطار هذه الكونية القرآنية المطلقة التي حرّرته من أسر الوضعية واللاهوت ليعيد تأسيس حضارته الإنسانية في عصر العلم والعالمية بحيث يتكافأ الخلق مع الحق ويتجه إليه، وهو تأسيس في إطار جدلية الغيب والإنسان والطبيعة وعبر الجمع المنهجي والمعرفي بين القراءتين، فنحن لا نعاني مأزق المجددين ضمن الخصوصية التراثية أو خصوصية الجغرافية- البشرية، وليس شاغلنا مخاصمة الشرق للغرب، فهنا عالمية في عصر العلم، شاغلنا فيها مأزق الإنسان الحضاري والاستلاب الذي يجرده من مطلقه وكينونته، سواء في الشرق أو الغرب، من جزر اليابان وإلى الجزر البريطانية وامتداداً عبر الأطلسي، مستهدفين استعادة هذا الإنسان إلى مطلقه وإلى وعيه الكوني المطلق.
هنا يعاد سحب كل القيم الكونية «بعد اكتشافها» على مستوى النظم الأخلاقية خارج ما نقدناه في البراجماتزم والعبثية الليبرالية الفردية، وخارج الانسحاق الجبري المادي لتحقيق معنى الحرية في ناظمها الكوني وفي أخلاقياتها الكونية بخلاف تلك الأخلاق البهيمية.

حين يتحرر المطلق الإنساني يكتسب النظام السياسي معنىً جديداً حيث يكون الاتجاه نحو السلم والوحدة، فلا يكون صراع طبقات ولا صراع أحزاب ﴿يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ البقرة/**208**،﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ البقرة/**208**.

وبمعنى أوضح فحيثما نستعيد تصرفات الإنسان إلى الله، يأتي تدخل العقل الإلهي كدعم للعقل البشري ليعطيه أكثر من نتائجه الموضوعية وليدفعه بأكثر من إمكانيات ويصحح مساره وهذا ما يسمى بالتوفيق المرتبط بالتدخل، أي أن قاعدة التوكل تستند إلى حركة موضوعية فعلية يتحرك الإنسان في موضعيته، فيعطيه الله من قدرته المطلقة، وهكذا يتضح وجود الله في مسيرة العقل البشري، وفي هذا الحال بالذات يصبح وجود عناية وتوفيق، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى﴿5﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴿6﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴿7﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴿8﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴿9﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ الليل/**5-10**.

ولقد سبق أن قلنا إن الله تعالى يتخذ لنفسه في عالم الشهادة في صفة الرحمة ناظراً إلى معاناة الإنسان وحتى إلى خطاياه في هذا الدافع المعقد بعين الرحمة والعناية، ويضع الله في مقابل عالم آخر هو عالم الغيب حيث لا جدلية ولا تنابذ، هنا يتخذ الله لنفسه صفة العزة، قال تعالى موضحاً ذلك ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ السجدة/**6**.

في هذا الإطار الموضعي ينطلق الإنسان باتجاه البناء الحضاري غير أن انجازاته الحضارية «باعتماده على الله» تأتي أكبر من قدراته وحجمه الذاتي لاستوائها على قاعدة العقل الإلهي.

بهذا المعنى يصبح الله حاضراً في وجود الإنسان وقصوره ضمن فعل كوني حضاري دون أن يلغي ذلك المعنى الموضوعي لوجود الإنسان وفعله الذاتي، إن

الصورة التي يفصلها القرآن لطبيعة الخلق الكوني تجعل الحياة تتخذ منهجاً محدداً باتجاه واحد هو اتجاه السلم والوحدة، سلام بين اللّه والإنسان الذي خلق كل شيء فأحسنه وسلام بين الإنسان وذاته الاجتماعية وهذا ما وجدنا، على العكس في الحضارات البارزة التي بنيت على المطلق الذاتي والتحول إلى الكينونة الطبيعية المجردة كما كان قوم لوط والسطوة والعلو، كما كان قوم عاد والطغيان، كما كان فرعون وملؤه والمجادلة العبثية، كما كان قوم نوح.

لقد أوضح اللّه تعالى التجربة الإسرائيلية وكيف أفرعت من إيجابياتها وتحولت إلى النهج الاصطلاحي المعاكس لروحية السلام، ومنهجية الخلق الكوني أورد اللّه آية الانتقال إلى المرحلة البديلة التجربة العربية المحمدية[1]، قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ البقرة/**105**.

وبالمقابل يتكلم القرآن الكريم عن عصمة الرسول المطلقة والنجم إذا هوى ما ضلّ صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى لا يوازيه إلا قيم اللّه بحقّ العصمة القرآنية إذ يماثل بين العصمتين القرآنية والمحمدية بمواقع النجوم ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴿75﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ الواقعة/**75-76**.

والأمة المحمدية خاطبها اللّه تعالى بالقول: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ آل عمران/**103**.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ البقرة/**208**، لقد سبق لنا أن تكلمنا عن خروج العربي إلى الناس ومنعكسات الانتشار الأمّي على خصائص الشخصية العربية.

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص321.

وكم اكسب هذا الخروج العرب من حيوية حضارية علماً أنّ هذه الحيوية الحضارية ملازمة قرآنية وما علينا إلاّ أن نتمسك بالقرآن لكسب هذه الحيوية الحضارية.

الوجود الإسرائيلي والعالمية الثانية

لا حاجة للتأكيد بأن إسرائيل ما كانت لتفتح عينها على الحياة لولا الدعم الكبير للغرب الأوروبي وإلا أن تستأنف هذه الثنائية الإسرائيلية والدولية تحت مظلة الهيمنة الأمريكية الأحادية على العالم لتتخذ جانب التحيز الاقتصادي والحضاري والتكنولوجي والاستراتيجي والسياسي لإسرائيل.

أولاً: الحيلولة دون ظهور أي بديل عربي للدور المصري المركزي الذي أجهض في فترة إبراهيم باشا عام 1840 وفترة عبد الناصر وأثر هزيمة 1967، مع "إجهاض" الدور المصري من "داخله" إثر اتفاقات كامب ديفيد عام 1978.

ثانياً: الحيلولة "دون أي وحدة أو اتحاد إقليمي" عربي من شأنه تطويق إسرائيل أو التمهيد لتوحيد الجيوبوليتك العربي.

ثالثاً: "ترسيخ ثقافة العولمة الثانية" والمعاصرة بمرتكزاتها الفكرية التي تتمحور حول البراجماتية النفعية الفردية والليبرالية، والتي تخترق ثوابت الإيديولوجيا والأديان والقوميات، ومورثات "الدفاعات الذاتية" عن خصائص الشخصية الوطنية، ومعايير التنمية والتطور الخاصة بالشعوب، فينفتح المجال على مستوى المنطقة العربية للسوق الشرق أوسطية بهيمنة عالمية أمريكية وهيمنة إقليمية إسرائيلية.

رابعاً: تطويع الشخصية العربية عبر استخدام مناهج علم الاجتماع الأنثروبولوجي وفروعه المتعددة وبذات الكيفية التي طوقت بها الشخصية اليابانية بعد الحرب

العالمية الثانية لدفعها نحو الإحباط واليأس التي وضعها "روث بندكت" في كتابها **الأقحوان والسيف** لتطويع الشخصية اليابانية، وكذلك كتابات "مارجريت ميد" عام 1957 حول (الإنثروبولوجيا) والتي ذكرت فيها أن كافة بحوث الشخصية القومية لم تكن تجري لذاتها وإنما كانت أشبه بالدراسات التطبيقية بغرض إمداد السلطات السياسية والعسكرية بالبيانات اللازمة التي تسمح لهذه السلطات بفهم خصائص وسلوكيات الشعوب التي تهدف الولايات المتحدة لاحتوائها والتأثير عليها، وفي هذا الإطار تأتي دراسات "هوبل" على الشخصية القومية من وجهة نظر الأنثروبولوجيا عام 1967.

وفي هذا الإطار تأتي مهمات مراكز البحوث والدراسات ومن بينها منتديات الدراسات الحقلية والمتوسطية في روما والذي يعقد تحت إشراف بعض الجامعات الأمريكية، وقد بحث المنتدى عام 1971 (اتجاهات الشباب في الخليج) وكذلك الحالة (العائلية الخليجية والحداثة) وكذلك هناك دراسات العالمة الإسرائيلية "سنية حمادى" حول كيفية توظيف الخصائص السلبية في الشخصية العربية التي تميل إلى (العمل الفردي) و(نزعة الشك) والافتقار لحس وحماس (المتابعة) مع طغيان الحماس الجماعي المؤقت.

خامساً: توظيف كل ما سبق من نقاط في إيجاد مناخ أو حالة عربية نفسية واجتماعية وثقافية قابلة للتطبيع والتعايش مع إسرائيل عبر آليات متدرجة للتسوية، متدرجة وليست حازمة ونهائية حتى ينتهي التدرج إلى هيمنة إقليمية مركزية إسرائيلية تكون هي البديلة في المنطقة عن مركزية مصر "وعن البدائل الأخرى" لمصر سواء في سورية أو العراق أو الجزيرة العربية.

قد أدّى كلّ ذلك إلى اتفاقات (كامب ديفيد) عام 1978 و(اوسلو) عام 1994 وقبلها (مدريد) عام 1991 وإلى أشكال التطبيع الإسرائيلي المختلفة مع بعض

الدول العربية، وكلّ هذه الاتفاقات أشبه "بالجزرة" التي يركض من ورائها الحصان ولا يلحق بها أبداً، لأن التكتيك الإسرائيلي الأمريكي يعتمد على اتخاذ هذه التسويات وأشكال التطبيع المختلف محطات في مخطط تطويع الشخصية والأنظمة العربية باتجاه الهيمنة الإسرائيلية للدولة الفلسطينية، وليس مفهوم أوسلو أو مدريد، وانتهاء برفض اللجنة المركزية لحزب الليكود الإسرائيلي فكرة الدولة الفلسطينية في اجتماعها بتاريخ 12 مايو/أيار 2002[1].

تفكيك الشخصية العربية

يرتبط هذا التكتيك المدرج بمفهوم (الأرض مقابل السلام)، فمقابل التنازل عن الأرض بالنسبة لإسرائيل ليس هو معاهدة سلام مجردة تنهي المواجهات العسكرية، ولكن معاهدة (تطويع) أو (تطبيع) تقتلع جذور العداء الكامنة في الدين والآيات الخصيمة لبني إسرائيل وفي القومية وفي التاريخ وفي الثقافة صعوداً إلى التدامج الاقتصادي ومرتكزات العولمة بليبراليتها وبراجماتيتها وبما يؤدي لتفكيك الشخصية ودفاعاتها الذاتية.

هذا التكتيك المتدرج، والنقاط التي ذكرناها من إبراهيم باشا إلى عبد الناصر، وتحجيم مركزية مصر والحيلولة دون البدائل، وعزل الشق الآسيوي من الوطن العربي عن الشق الإفريقي جغرافيا، والثقافة الحضارية والاستراتيجية والتكنولوجيا والاقتصادية بين إسرائيل وأوروبا في عصر العولمة الأولى، ثمّ بين إسرائيل وأمريكا في عصر العولمة الثانية، ثمّ الاتفاقات المتدرجة والمتتابعة، وفي إطار تطويع الشخصية العربية أنثروبولوجيا ودفعها للإحباط واليأس، تدنياً بها إلى الهيمنة الإسرائيلية والأمريكية المطلقة.

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: أبستمولوجيا المعرفة الكونية، ص33.

وحدة الخطابين الصليبي عام 1095م والأمريكي عام 2001م

منذ تسعمائة عام تقريباً، وبالتحديد في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 1095م اعتلى البابا "أوربان الثاني" منصة كاتدرائية مدينة "كليرمونت" في فرنسا مدشناً الحرب الصليبية لطرد أحفاد (أبناء الجارية) «ويقصد بها العرب المسلمين من أحفاد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وأمهم "هاجر"» من الأرض المقدسة، وذلك بعد أن وصف العرب والمسلمين بأقذع الصفات من (كفرة) و(معتقدات خرافية نجسة) (وإدخالهم الكلاب إلى الأماكن المقدسة)، بل دعا البابا لصوص أوروبا والسارقين والقتلة للانضمام إلى الحملة الصليبية للتكفير عن سيئاتهم والانضمام إلى ملكوت الرب: ((وجهوا أسلحتكم التي لطختموها بشمل محرم في ذبح بعضكم بعضاً إلى أعداء العقيدة، وأعداء اسم المسيح، وأقول للمتهمين بالسرقات، وإحراق البيوت عمداً، والسلب والنهب والقتل والجرائم الأخرى ذات الطبيعة المماثلة والذين لم يحوزوا بسببها على مملكة الرب، قدموا هذه الطاعة المرضية للرب، بحيث يمكن لأعمال التقوى هذه مع شفاعة القديسين أن يحصل لكلم بكل سرعة عن آثامكم التي أثرتم بها سخط الرب)).

لقد كانت الحروب الصليبية التي دعا لها حتى القتلة واللصوص ستاراً لإخفاء المطامح الحقيقية لأوروبا في تلك المرحلة، حيث تطلعت لذات الأهداف التي حققها من قبل الإسكندر المقدوني وأباطرة بيزنطية وروما لإخضاع الشرق ونهب ثرواته والتحكم في ممراته الاستراتيجية باتجاه آسيا وثرواتها، أرادوا استعادة إرث الإسكندر المقدوني الإغريقي/333 ق.م/، وإرث الإمبراطور الروماني "بومبي"/64 ق.م وإلى 223م/، ثمّ (بيزنطة) بعد (روما) من عام/223م/وإلى

عام/635م/حيث تمّ تحرير الشرق على يد الفاتحين العرب، الذين كونوا (الأمة الوسط)[1].

لماذا قضى الله بالتدافع بين العرب والإسرائيليين بالذات؟

باختراق إسرائيل للأمة الوسط تتجدد شرعة السيف وفي عصر العولمة يتوهم الناس فيه سيادة الثقافة الليبرالية والعلمانية والحداثة وحتى ما بعدها لقد قضى الله سبحانه وتعالى بالتدافع لأن الناس «كما ذكرنا» لا يستجيبون عفوياً لدعاوى الإصلاح أو النبوات، فالإنسان أقرب لأن يستكين إلى دواعي الغريزة في عالم المشيئة وإلى ممارسة الفردية والنفعية واستثارة مختلف أشكال الصراع والتنابذ حتى أن المتسامح هو دائماً رجل طيب بمعنى (ساذج) في مقابل المثل الدارج: (إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب).

أمام هذه السلبيات البشرية كان لا بدّ من تدخل إلهي لتشكيل (قاعدة دينية بشرية وجغرافية)، وهذا ما حدث في حالتين (فقط(الحالة الإسرائيلية ثمّ الحالة الأمية العربية.

وانتهت الحالة الإسرائيلية إلى (التوطن في الأرض المقدسة) و(الحاكمية الإلهية) وإسنادها بالخوارق (الحسية) وفرض شرعة (الإصر والأغلال) في مقابل خوارق الإسناد المعجز، واتخذت التوراة صفة (العهد والميثاق) وطرح الخطاب حصرياً لأسباط بني إسرائيل.

وامتدت إلى (حاكمية الاستخلاف) التي استندت بدورها إلى (التسخير الإلهي) للكائنات المرئية كالطير والنمل وسواهما وإلى غير المرئية كالجن، ومع تسخير الجبال والرياح والحديد بمنطق حسي أيضاً، فالمستخلف ينوب عن الذي استخلفه

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: أبستمولوجيا المعرفة الكونية، ص337.

في بعض قدراته وصلاحياته ومع تدخل الله سبحانه وتعالى بالإرشاد وانتهت الحالة (الأمة العربية إلى تكوين الأمة الوسط) والخروج إلى ما بين البيت الحرام (أم القرى وما حولها) والبيت المقدس وما حوله، وأسندت بالتدخل الإلهي (الغيبي-النصرة لمحمد) وطرح الخطاب العالمي وشرعة التخفيف والرحمة و(حاكمية الكتاب) مع نسخ الخطاب الحصري وشرعة الأصر والأغلال والحاكميتين الإلهية والاستخلاف[1].

الاصطفاء والقاعدة الدينية

لتنفيذ شرعة العهد والميثاق فرض على بني إسرائيل الخضوع للتوجيهات الإلهية عبر النبوات المتتابعة التي لا ينقطع تسلسلها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ **البقرة/87**.

وكذلك: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ **المائدة/46**.

وفرض عليهم "التسامح" في التطبيق، ومن هنا جاءت صفات "الاصطفاء والتفضيل" ارتباطاً لازماً بالمهمة الدينية": ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ **البقرة/40**.

وقد حدد الله هذا التسامي المرتبط بالتفصيل بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: أبستمولوجيا المعرفة الكونية، ص338.

وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ﴿83﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴿84﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ البقرة/**83- 85**.

ولكنهم نكصوا على أعقابهم كما توضح لنا الآيات السابقة بل ومضوا إلى (عبادة العجل وخرق حرمة السبت)، الرجوع إلى الآيات في البقرة من/40 وإلى 103/.

فالاصطفاء والتفضيل ليس مطلقاً لذات العرق الإسرائيلي بمفهوم (شعب الله المختار) وإنما هو تفضيل واصطفاء مقيد بمهمة إلهية وميثاق وعهد، ولهذا حين ادعى الإسرائيليون في مواجهتهم للسيد المسيح بأنهم "أبناء إبراهيم" قال لهم: إنّ الله قادر على أن يخلق من الحجارة أبناء لإبراهيم وحتى إبراهيم الخليل نفسه حين اتخذه الله "إماماً للناس" وطلب استمرارية الإمامة في عقبه من بعده حصر الله الاستمرارية في العادلين الصالحين منهم فقط:﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ البقرة/**124**.

ويكفي أن غضب الله سبحانه وتعالى قل حلّ عليهم إلى مسخ بعضهم قردة وخنازير بأقصى متاحات شرعة الأصر والأغلال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ البقرة/**65**.

وكذلك: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ المائدة/60.

وكذلك: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ الأعراف/166، فالتفضيل ليس لذات العرق وإلا كانت حجة إبليس على آدم منطقية ومبررة: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ الأعراف/12.

وكذلك: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ ص/76.

وكذلك: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ الإسراء/61.

فالتمايز العنصري مدان ومرفوض قرآنياً، ولهذا قيد الاصطفاء والتفضيل بشروط التسامي والعهد والميثاق وليس لذات الإسرائيليين، وبالمنطق والمنهج تمّ "تقديس" الأرض، أي من حيث تعلقها "بالحاكمية الإلهية" و"العهد" وليس لذاتها.

وينسحب المنطق نفسه والمنهج الإلهي على "الأميين العرب" الذين وضعهم الله بأنهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ آل عمران/110.

وذكر "سلبيات الأعراب" الممتدة كصحرائهم القاحلة: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة/97

ثم لجأ الله سبحانه وتعالى إلى تهديدهم بتحويل (المسؤولية عن الذكر) إلى غيرهم: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ **محمد/38**.

وكذلك: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ **التوبة/39**.

فاصطفاء الأميين العرب بمفهوم "خير أمّةٍ" ليس أيضاً لذاتهم، ولكن لارتباطهم بالقرآن والتزامهم به عقيدة وسلوكاً.

وكما "قدست" أرض العهد والميثاق لتعلقها بالله "حرمت" مكة لتعلّقها بالله أيضاً، والتحريم أعلى درجة من التقديس، لأن التحريم يرتبط "بعالم الأمر الإلهي المنزّه" في حين يرتبط التقديس بعالم "الإرادة الإلهية النسبية" ولهذا كانت النصرة الإلهية لمحمد "غيبية" من عالم الأمر، في حين كانت النصرة الإلهية لموسى "حسية" من عالم الإرادة.

فالخيرة الأمية العربية والاصطفاء الإسرائيلي، وكذلك تحريم مكة وتقديس المسجد الأقصى، ليس لذاتهما وإنما لتعلقهما بالله، أمراً وإرادة.

القاعدتين والتدافع

باصطفاء اللّه للقاعدتين البشريتين، وتدخله، حسيّاً ثمّ غيبياً لتكوينهما رغماً عن سلبيات هؤلاء وأولئك، تجاوز اللّه بالبشرية حالة الإخلاد إلى الأرض والركون إلى الذات الفردية والتمركز الغريزي حولها، فكل دعوة في العالم تحتاج إلى (قاعدة بشرية ومرتكز جغرافي) يحمل هذه الدعوة وينشرها للناس وينقلها للبشر.

فلتطبيق أي منهج نظرية يلزم قاعدة بشرية وجغرافية، وإلا أصبحت النظريات أو الأديان كلمات سابحة في الفضاء، سواء أكانت دينية أو وضعية غير أن تأسيس القاعدة الدينية بحكم ارتباطها باللّه سبحانه وتعالى فهي بشرياً مربط بمفاهيم (الاصطفاء والتفضيل والتقديس والتحريم) بالكيفية الشرطية التي تضعها السماء وليس بالمطلق (كالمفاهيم النازية والفاشية والعنصرية الصهيونية).

لماذا التدافع؟

يعلمنا اللّه سبحانه وتعالى من خلال القرآن، أن القاعدة البشرية سرعان ما يمضي عليها العهد فتزيف ما أخذته عن ربّها، وهذا قانون عام ينطبق حتى على الذين يأخذون من الفكر الثوري والإصلاحي، فالجذوة المثالية تخبو، ثم سرعان ما يسيطر الواقع بأيديولوجية وأعرافه وقيمه على المثال، وتحلّ شرائع الأصر والأغلال لدى المسلمين بديلاً عن شرائع التخفيف والرحمة، وتتحول اليهودية إلى حركة عنصرية صهيونية "ترفض التعايش" في فلسطين حتى بمنطق المواطنة والديمقراطية.

أمام هذا التحريف الطبيعي يأتي اللّه بالتدافع بين القاعدتين الإسرائيلية والعربية في دائرة الأمة الوسط بعد اختراقها إسرائيلياً.

فالإسرائيليون قد حملوا التوراة كالحمار يحمل أسفاراً، وهناك "مثلهم" أو ما "يماثلهم" أيضاً في سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴿1﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴿2﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿3﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴿4﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ **الجمعة/1- 5**.

هنا يستخدم الله سبحانه وتعالى التدافع (أداة صراعية) بين القاعدتين، معلقاً نصره أو انتصاره للجانبين بمدى ما يعود أي منهما لحقائق التنزيل[1].

الغاية المنهجية من التدافع

بتشكيل القاعدتين أسلم "القياد الديني" في العالم للإسرائيليين ثم العرب، وذلك لتحقيق وتجسيد منهج "الحق" الذي خلق الله به "الخلق"، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴿16﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ **الأنبياء/16- 17**.

وكذلك: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴿38﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **الدخان/38- 39**، فالتدافع هو من أجل "قذف الحق على الباطل"، فالله لم يخلق الخلق "عبثاً" "كالملهاة اليونانية" وإنما بهدف وغائية، ولهذا تم تأسيس القاعدتين.

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: أبستمولوجيا المعرفة الكونية، ص343.

غير أن انصراف القاعدتين عن المنهج بعد أن "تدخل الله ونصرهما" أفضى لإيجاد التدافع بينهما.

ويستمر التدافع حتى يؤدي لإظهار الهدى ودين الحقّ، منهجاً ومعرفة، على الدين كلّه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴿32﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة/**32 – 33**،

وكذلك: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ الفتح/**28**.

وكذلك: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴿8﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الصف/**8-9**.

فالتدافع ليس "صراعاً عبثياً" ليقال أنه يعني تدافع الإسرائيليين مع "الآشوريين" الذين قضوا على مملكة "إسرائيل" الشمالية عام/721 ق.م/، ثمّ مع نبوخذ نصر البابلي قضى على مملكة "يهودا" الجنوبية عام/586 ق.م/، وسقوط القدس وكان السبي والأسر، ثمّ الرومان فهؤلاء يغيبون "المنهج" في فهم الآيات، فتدافع الإسرائيليين مع أولئك أدّى لسبيهم واحتلالهم وإخضاعهم لقوى "وثنية" وليس عودتهم لحقائق التنزيل، فما كان هو "عقوبة" كعقوبة "الأسر الفرعوني" وليس "تدافعاً"[1].

ثمّ إن الله قد قيد التدافع بثنائية محددة بين القاعدتين، في "مضمر" يتكرر مثل "رددنا لكم الكرة عليهم" ولم ترتد الكرة الإسرائيلية على البابليين أو الرومان،

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: أبستمولوجيا المعرفة الكونية، ص344.

وإنما ارتدت على الأميين العرب الذين أجلوهم "لأول الحشر" من المدينة المنورة فانساحوا باتجاه الشام.

ونعرض هنا لآيات التدافع: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴿1﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً﴿2﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴿3﴾ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴿4﴾ فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً﴿5﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴿6﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً﴿7﴾ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴿8﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ **الإسراء/1- 9.**

وكذلك: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿1﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴿2﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴿3﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ **الحشر/1- 4.**

تحليل التدافع تاريخياً

كان العلو الأول منذ "حاكمية الاستخلاف" لداود وسليمان التي امتدت حوالي ثمانين عاماً من نحو سنة/1000 إلى 922 ق.م/، ثمّ كان الانحدار والإفساد بانقسام المملكة إلى مملكتين، شمالية هي "إسرائيل" وجنوبية هي "يهوذا" بعد وفاة سليمان وكان العقاب الإلهي في الإفساد بالسبي البابلي والاحتلال الروماني والشتات في الأرض بما في ذلك إلى المدينة المنورة وما حولها.

وانتهت تلك المرحلة بأن (جاس) الأميين العرب (خلال الديار) وما حدث ليهود فدك وتيماء وبني النضير وبني قريظة.

قد انتهت تلك المرحلة ولكنها حملت في نهايتها بداية حشر جديد لمرحلة (علو ثان) و(إفساد ثان) تحقق بعد أربعة عشر قرناً من (تكوين الأمة الوسط) وإعادة تشكيل المنطقة، بدا العلو الثاني ظاهراً منذ 1948 ولا زال مستمراً إلى اليوم.

طبيعة التدافع ومنطق السلام

لأن هذا التدافع يستمر ضمن غاية إلهية ويتجه إلهياً، فإن إحداثيات التدافع نفسها وأن أخذت بالمفاهيم الاستراتيجية والجيوبوليتيكية إلا أن ارتباطه بالغاية الإلهية يجعل لهذا التدافع حيثياته المختلفة، فالسلام بين القاعدتين لا يتمّ ولا يحلّ بأي منطق براجماتي.

فنصّ الآية الموجه إلى الإسرائيليين: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ **الإسراء/7**.

توضح أن لا سلام دون أن يحسن الإسرائيليون لا لغيرهم ولكن لنفسكم وذلك بالتخلي عن العنصرية الصهيونية واستئصال الآخرة ورفض حقّ العودة والإفساد،

فإذا لم يحسن الإسرائيليون لأنفسهم فلا سلام، وهكذا يستمر الرد الجهادي على الاستئصال الإسرائيلي ألي هذا هو برنامج منظمة التحرير الفلسطينية المدلل بالتعايش ديمقراطياً[1] مع اليهود في دولة واحدة.

إشكاليات المفاهيم في التدافع

تماماً كما أغمض البعض على فهم بعض آيات سورة الإسراء فاسترجعوا السبي البابلي والحكم الروماني، كذلك أغمض على كثيرين بما فهموه من إمكانيات ومتاحات الصلح مع الإسرائيليين.

فالبراجماتيون منهم مضوا لفهم وتفسير "صلح الحديبية" بين الرسول ﷺ ومشركي قريش والذي وقع في أواخر ذي القعدة عام 6هـ الموافق 627/628م فهماً ذرائعياً مستندين إلى توهم براجماتية الرسول ﷺ وواقعيته وتناسوا أمرين:

أولاً: أن الرسول ﷺ لم يكن براجماتياً في يوم من الأيام، فهو ليس بحاجة لهذه البراجماتية (فالنصرة الإلهية) معقودة لهم، وبهذه النصرة دخل معركة بدر الكبرى بتاريخ 17 رمضان عام 2هـ الموافق 623/624م، وليس معه من المسلمين سوى/314/مسلماً في مقابل/950/من قبائل مكة الوثنية، منهم/83/من المهاجرين و/61/من الأوس و/170/من الخزرج.

ونظرة هذا التقسيم الجغرافي توضح لنا أن قوى المحاربين المحترفين في جيش المسلمين لم تكن تتجاوز من فيهم من المهاجرين المتحدرين من أصلاب مكة بجفاف صحرائها وقسوة صخورها وتنشئتهم على صهوات الخيل ومصارعات البرية ورمي النيل ومراتع السيوف.

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: أبستمولوجيا المعرفة الكونية، ص 346.

أما أهل المدينة فقد غلبت عليهم صفة الاستقرار الحضرية في المزارع، لم تفتل المعارك الصحراوية عضلاتهم ولم تجفف الصحراء طباعهم سوى حروب داخل يثرب كانت فيما بينهم.

في المقابل كان هناك/950/من رجال مكّة الأشداء، حقاً قد ألقت إليهم مكة بفلذات أكبادها، لقد كان الفارق في الحشد البشري بنسبة/1/وثني مكي إلى/0,3/مسلماً، غير أن الفارق كان أكبر على مستوى المراس والتدريب، وفارق جوهري آخر إذ جاءت قبائل مكة تعتلي صهوات/200/من الخيول المدربة في مقابل حصانين فقط من جيش المسلمين أي بنسبة/1/إلى/0,01/، وهذه نسبة في القوى الحاملة لم يعرفها تاريخ معركة من قبل لمن يدرك قيمة الحصان في الهجوم والمبارزة.

وعلى مستوى الإبل يتضح فارق آخر، فجيش المسلمين إن أسميناه جيشاً لم يكن يملك سوى/70/في مقابل/350/للقوى المقابلة أي نسبة/1/إلى/5/، أما السيوف فكانت نادرة في صفوف المسلمين، وقد قطعوا سيراً على الأقدام كما قطع جيش جالوت من قبل/160/ميلاً من يثرب إلى بدر.

كان الرسول ﷺ يترقب التدخل الإلهي الفوري فهو يدري إمكانياته الموضوعية ويدرك جسارة القبائل التي نشأ ضمنها والتي أتت زاحفة عليه: ﴿اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ﴾.

ومن بلاغته وضع الأمر في موضعه فلم يقل هذا الجيش من أهل الإسلام بل قال العصابة، وكان "سعد بن معاذ" أكثر قلقاً فنجده يشرع في الإعداد قبل المعركة لإجراءات ما بعد الهزيمة التي كان يتوقعها، وقد بنى الرسول عريشاً ﷺ يتلاءم

وفرص الانسحاب في الشمال الشرقي لميدان القتال وضرب حوله نطاقاً من فتيان الأنصار لتأمين الانسحاب نحو المدينة.

وكان "أبو بكر" يراقب ببصيرته الثاقبة إلحاح الرسول في التوجه والدعاء وزحف إبل قريش وجيادها فيهيب بالرسول: ((كفاك يا نبي الله «بأبي أنت وأمي» مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك)).

والتهبت المعركة ويتخلى الرسول ﷺ عن كل الترتيبات التي فرضها "سعد بن معاذ" ويقتحم الميدان يتبعه فتيان الأنصار وهو يردد ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴿45﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ القمر/**45- 46**، كان رجل سيف وقتها وكانوا يلوذون به، وكما قال عليّ: ((إنّا كنّا إذا اشتد الخطب وأحمرت الحدق اتقينا برسول الله فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه وقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو)).

ثانياً: أن المنطقة التي تمّ فيها الاعتداء والتفاوض هي منطقة "حرام" لا يباح فيها القتال إلا إذا تمّ فيها الاعتداء على المسلمين: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ التوبة/**36**.

وكذلك: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴿190﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴿191﴾ فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿192﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ

إلاَّ عَلَى الظَّالمينَ﴿193﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْه بمثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقينَ﴾ البقرة/**190- 194**.

كما أن الشهر الذي وقع فيه صلح الحديبية هو أيضاً شهر محرم، فقد جاء الرسول ﷺ ومن معه للعمرة في شهر "ذي القعدة" وهو من الشهور الأربعة الحرم، وهي "ذو القعدة، وذو الحجة والمحرم ورجب" ذاك ما كان من استشهاد خاطئ ثمّ نعود لنفس "البراجماتيين" في استخدامهم لآية "الجنوح إلى السلم" وسحبها على "كامب ديفيد" و"أوسلو" و"مدريد" فنصّ الآية يربط بين "الجنوح" و"الاضطرار" وليس مجرد (النوايا)، ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الأنفال/**61**.

والجنوح في اللغة هو فعل اضطراري محتم، فحين يجنح الطائر فيعني ذلك سقوطه بعد انكسار جناحه، ثمّ "يقبل كالواقع اللاجئ إلى موضع" كذلك المراد "كاسرات الجناح" أو ما جنح من السهام[1].

ثم بعد ذلك نأتي لما يتفاداه البراجماتيون من "المسلمين" وفقهائهم "الرسميين" فالله يضع شروطاً للمصالحة: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴿8﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الممتحنة/**8-9**.

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: أبستمولوجيا المعرفة الكونية، ص349.

ولهـذا يسـتمر التـدافع إلى أن يحسـن الإسـرائيليون لأنفسـهم، فهـل كـفّ الإسرائيليون عن تمنعهم تجاه حق العودة للفلسطينيين؟ وهل كفوا عن مقاتلتنا في ديننا فأعادوا إلينا «على الأقل» المسجد الأقصى[1]؟.

ما بين البراجماتية:

لم يجعل الله التدافع وعظياً وإرشادياً، وإنما جعله واقعاً موضوعياً يستند إلى مرتكزات جدلية واضحة بحيث غطت هذه المرتكزات في جدل الواقع.

فحين يتعلق الأمر الإلهي بالتشيؤ الظاهري في عالم المشيئة الظاهرة بقوانينها واستراتيجيتها فإن الأحداث تبدو للناس بظواهرها وأسبابها، فيصبح التدافع بمنطق جدل الواقع وتابعاً ومرتبطاً بأسبابه الموضوعية، فإسرائيل هي تارة حاملة الطائرات الأمريكية الغير قابلة للغرق في الشرق الأوسط، وتارة هي أداة إمبريالية، وتارة هي احتلال استيطاني، وتارة هي مولود الثنائية بين الإمبريالية الغربية ضمن مراحلها الخمسة من الجنينية في القرن الخامس عشر وإلى العولمة المعاصرة، إن هذا الحدّ الأدنى من الفهم الواقعي الموضوعي يكفي لأن يكون التدافع قائماً وحيّاً وتتسع جبهته لكلّ النّاس بما في ذلك من يدخلون التدافع بمنطق وطني أو قومي أو حتى إنساني فالله -سبحانه- يحول (الأمر) إلى مشيئة عبر الإرادة، وهذا هو معنى التوسطات الجدلية في الفعل الإلهي، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يس/**82**.

فبمعزل عن هذه التوسطات لا يفهم العقل البشري معنى الإرادة الإلهية ولا اتجاهها، ولا يفهم تلك (الموازنة الإلهية العادلة) بين العرب وإسرائيل، فإذا أمدّ الله الإسرائيليين «والمدد خارجي» بأموال وبنين وجاؤوا لفيفاً وهجرات، وجعلهم أكثر نفيراً بمعنى أكثر قدرة على الحشد والتركيز وأقله السيطرة على الإعلام العالمي وتوجيهه.

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: أبستمولوجيا المعرفة الكونية، ص350.

فإن الله قد جعل للعرب ما بين المحيط والخليج، ومد سيطرتهم إلى منافذ العالم الأوسط، من جبل طارق إلى قناة السويس، وإلى ممر الدردنيل وإلى باب المندب ومضيق هرمز، أودعت هذه الأرض الطاقة المحركة للاقتصاد العالمي كلّه، ومد لهم من البنين والنسل حتى قاربوا الثلاثمائة مليون وجعل لهم من الموروث الحضاري الكثير.

فالذي كتب «عن إيمان وليس عن كفر» رسالة إلى الله يشكو عجز الأمة وعدم التدخل الإلهي لم يبصر كل هذا، ولم يفهم بعد ذلك منطق التدافع وغاياته الإلهية حتى يظهر الحقّ الذي خلق به الله الخلق على الباطل ويزهقه[1].

لقد قضى الله بالتدافع مع إسرائيل، وبشرعة السيف مجدداً حيث لا تجتمع في الأمة الوسط مركزيتان، فالمطلوب أن يحسن الإسرائيليون لأنفسهم بأن يتعايشوا مع كينونة الأمة الوسط وخصائصها ومع أهل الأرض المقدسة: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً﴾ **الإسراء/7**، بيد أنهم لم يحسنوا لأنفسهم، فاتخذوا من "استئصال" الغير كما يفعلون في الأرض المقدسة مدخلاً لزرع كيانهم، كما اتخذوا من "احتلال" أراضي الغير ضمن الأمة الوسط مدخلاً لفرض إرادتهم ومركزيتهم بما فعلوه في لبنان وفي سورية، فكان الردّ هو "الاستشهاد الفلسطيني" في مقابل "الاستئصال الإسرائيلي"، والمقاومة" في مقابل الاحتلال.

فشرعة السبت تفرض نفسها مجدداً بعد أربعة عشر قرناً بمنطق التدافع، كما تقرر بإرادة إلهية في سورة الإسراء، وبما يتحمل الإسرائيليون المبادأة به والمسؤولية عنه ودون أن يختلط ذلك بآيات الحوار والتعاون والجدال الحسن الذي شرحنا

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: أبستمولوجيا المعرفة الكونية، ص351.

مقوماتـه في إطـار العالميـة الإسـلامية ومنطقهـا في اسـتيعاب مخـتلط الأنسـاق الحضارية والتفاعل معها واستيعاب مختلف المناهج المعرفية، هكذا يصير التمييز المنهجي والمعرفي القرآني بين آيات الحوار ومحددات شرعة السيف.

السيرة الذاتية

الدكتور برهان خليل زريق

ولد في محافظة اللاذقية – قضاء الحفة– قرية الجنكيل (القادسية حالياً)، 1933.

المؤهلات العلمية:

- الثانوية العامة الفرع العلمي – ثانوية البنين(جول جمال) اللاذقية عام 1951.
- إجازة في الآداب – قسم اللغة العربية وعلومها – جامعة دمشق عام 1958.
- إجازة في الحقوق – جامعة حلب عام 1965.
- ماجستير في القانون الإداري من كلية الحقوق جامعة القاهرة عام 1970.
- دكتوراه في الحقوق – جامعة المنصورة عام 1984.

العمل المهني:

- التدريس في ثانويات محافظة اللاذقية عامي 1952-1953.
- العمل في المديرية العامة للتبغ والتنباك حتى عام 1975.
- العمل في مهنة المحاماة من بداية عام 1976 حتى آذار 2007.

النشاط المجتمعي:

- عضو في الاتحاد الاشتراكي فرع سوريا حتى عام 1975.
- عضو نقابة المحامين حتى عام 2007.
- عضو المؤتمر القومي العربي حتى وفاته 2015.
- شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات أبرزها ندوة الوقف التي أقامها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت عام 2002.

✓ تم الاستعانة بخدمات محرك البحث Google لتدقيق وتصويب أسماء المراجع والمؤلفين، وبعض محتويات هذا المؤَلف بسبب رحيل الكاتب قبل النشر، فالشكر كل الشكر للقائمين على هذا المحرك للخدمات الجليلة التي تقدم للإنسانية.

محتوى الكتاب

الفصل الأول: مدخل عام الرؤية والموضوع.................................5
البحث الأول: القرآن الكريم 15
البحث الثاني: طبيعة التجربة المحمدية خصائصها واستجابة العرب والمسلمين لها 21
الفرع الأول: خصائص التجربة المحمدية 23
البحث الثالث: الأمّة...51
الفرع الأول: استجابة العرب والمسلمين...52
الفرع الثاني: ثواب استجابة العرب للنبأ العظيم 61
الفرع الثالث: الأمّة العربية بصفتها نواة العالمية الإسلامية 65
الفرع الرابع: تكوين الأمّة العربية منظور إليه من زاوية قواه الفاعلة 73
الفصل الثاني: العالمية الإسلامية الأولى 79
البحث الأول: لماذا اختار الله العرب لتبليغ رسالة النبأ العظيم؟.................81
الفرع الأول: الأمّة الوسط 83
الفرع الثاني: أطروحة نقاء المعدن وصفاء الفطرة..............................105
البحث الثاني: سمات وخصائص العالمية الإسلامية الأولى 121
الفرع الأول: دراسة بعض النماذج الشخصية في العالمية الإسلامية الأولى 123
الفرع الثاني: السمات العامة للعالمية الإسلامية الأولى 131
البحث الثالث: سقوط العالمية الإسلامية الأولى..................................171

الفصل الثالث: العالمية الإسلامية الثانية..179
المبحث الأول: الرنو للمستقبل واحتضانه..181
الفرع الأول: أعاصير المتغيرات ومفاجآتها وصدمة المستقبل 183
الفرع الثاني: الدراسات المستقبلية.. الامتلاء والتراكم...............................189
الفرع الثالث: الدراسات المستقبلية في الأدبيات الإسلامية..............................195
الفرع الرابع: الإسلام والعالم الإسلامي في الدراسات المستقبلية.........................201
تقدير وتقويم 220
المبحث الثاني: هل توجد الآن عالمية إسلامية ثانية 225
المبحث الثالث: العالمية الثانية ليست تكراراً للعالمية الأولى 249
المبحث الرابع: منهج العالمية الإسلامية الثانية..253
المبحث الخامس: العالمية الإسلامية الثانية 261
المبحث السادس: أسس العالمية الإسلامية الثانية 265
الفرع الأول: أهداف العالمية الإسلامية الثانية...271
المبحث السابع: نقيض العالمية الإسلامية الثانية 309
الفرع الأول: معنى ومغزى والعبرة من تصوح قوة اليونان والرومان 311
تقدير وتقويم 321
الفرع الثاني: اليهود هم حصان طروادة في فلسفة الصراع 323
الفرع الثالث: مقارنة جهة التجربة الإسلامية بالتجربة اليهودية 333